الألف كتاب
الثانى
١٩٩

كتب غيرت الفكر الإنسانى

الجزء الرابع

أحمد محمد الشنوانى



الهيئة المصرية العامة للكتاب

العنوان	كتب غيرت الفكر الإنساني - الجزء الرابع
ترجمة العنوان	Books That Changed the Human Thought - Part Four
المؤلفون	أحمد محمد محمود الشنواني
تاريخ النشر	1995
الناشر	دون ناشر
الموضوعات	ثقافية
الكلمات المفتاحية	علم الاجتماع | العلوم الاجتماعية | الثقافة (تستخدم الصفة الدالة على الجنسية)
ISBN	977- 01 -4641-2
المستخلص	يتناول هذا الكتاب الجزء الرابع من " كتب غيرت الفكر الانسانى " خلاصة طائفة من عيون ما قرا فى العربية وغير العربية مشيرا الى ما فيها من عمق وتجربة وخبرة فى شتى نواحى المعرفة فيعد هذا الكتاب واحدا من ثقافات اخرى وعمل اضافى الى اعمالنا الثقافية واثراء لها مستعرضا مؤلفين محدثين واخرين قدامى ومنهم (اوديب ملكا - العقد الفريد - الكوميديا الالهية - الشوقيات - تفسير الاحلام لسيجموند فرويد).
URL	*www.askzad.com/Bibliographic?service=4&key=Books_Bibliographic&imageName=BK00022106-001*

كتب غيرت الفكر الإنسانى

الجزء الرابع

أحمد محمد الشنوانى



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٥



كتب غيرت الفكر الإنساني

الألف كتاب الثانى

الفهرس

الموضـــوع — الصفحة

المقـــدمة

تحـكي كتب التاريخ ان اديبـا دخل على الخليفة عبد الملك بن مروان فوجده يقرأ ، فقال له : « يا أمير المؤمنين ان الكتاب انبل جليس ، وآنس أنيس ، وأصدق صديق ، وأحفظ رفيق ، وأكرم مصاحب ، وأفصـــح مخاطب ، وأبلغ ناطق ، وأكتم وامق (محب) ، يورد اليك ، ولا يصدر عنك ، ويحكي لك ، ولا يحكي عنك ، ان أودعته سرا كتمه ، وان استحفظته علما حفظه ، وان فاتحته فاتحك ، وان فاوضـــته فاوضـــك وان جاريته جاراك ، ينشط بنشاطك ، ويغتبط باغتباطك ، ولا يخفى عنك ذكرا ، ولا يفشي لك سرا ، ان نشرته شهد ، وان طويتـه رقـد ، خفيف المؤونة ، كثير المعونة ، حاضر كمعدوم ، غائب كمعلوم ، لا تتصنع له عند حضوره فى خلوتك ، ولا تحتشم له فى حال وحدتك ، فى الليل نعم السمير ، وفى النهار نعم المشير » •

فقال عبد الملك بن مروان : « لقد حببت الى الكتاب ، وعظمته فى نفسى ، وحسنته فى عينى » •



وفى الصفحات التالية أقدم للقارىء العربى الجزء الرابع من هذه السلسلة (كتب غيرت الفكر الانسانى) وبه طائفة من الكتب من عيون ما قرأت فى العربية وغير العربية ، لفت نظرى فيها ، ما فيها من عمق وتجربة وخبرة فى شتى نواحى المعرفة ، وقد تحريت فيما اخترت أن يكون هذا الكتاب حافلا بزاد أصيل نافع ، لذلك رأيت ان أضعها بين يدى القارىء لعله يجد فيها ما وجدت •

ولقد أردت بهذا العمل أن أقدم للقارىء العربى زادا من ثقافات أخرى ، وثمرا من رياض غير رياضنا حتى يكون عملى اضافة الى بضاعتنا

الثقافية واثراء لهـا • وما من كتـاب قدمته فى هذه الأجزاء الأربعـة الا وتحريت أن يكون من نفائس الذهن العربى والغربى مما لا أتوقع أن يكون فى متناول الكثيرين • وما أنا فى هذا الا كزارع يبحث عن الطيب المستجاد من خيرات الأرض ليزرع بذوره فى أرضه لتغنى وتثرى •

فى هذا الكتـاب مؤلفون محدثون وآخرون قدامى ، محدثون ممن يملكون نواحى عالم الفكر اليوم ، وقدامى ممن كتبوا كتبا لا يتقادم بها الزمان ولا تموت ولا تخمل ، فهى حديثة أبدا •

والحمد لله حمد الشاكرين •••

احمد الشنوانى

أوديب ملكا

سوفوكليس

٤٠٠ ق.م

سوفوكليس .. الجائزة الأولى !!

في عام ٤٦٨ ق.م انتزع الجائزة الأولى للمأساة من اسكلس قادم حديث في سن السابعة والعشرين يسمى سوفوكليس أى العاقل المكرم . وكان سوفوكليس هذا أسعد الناس حظا ويكاد أن يكون أشدهم تشاؤما . وكان موطنه الأصلى ضاحية كولونس احدى ضواحى أثينة وكان ابن صانع سيوف ، ومن أجل هذا فان الحروب الفارسية والبلوبونيزية التى أفقرت الأثينيين كلهم تقريبا جاءت لهذا الكاتب المسرحى بثروة طائلة . وكان فضلا عن ثرائه رجلا عبقريا وسيما جيد الصحة نال جائزتى المصارعة والموسيقا — فجمع بذلك بين كفايتين لو شهدهما أفلاطون لاغتبط أشد الاغتباط بوجودهما فى رجل واحد وقد أمكنته مهارته فى لعب الكرة وفى العزف على القيثارة من أن يقيم حفلات عامة فى الفنين وكان هو الذى اختارته المدينة بعد واقعة سلاميس ليقود شبان أثينة العراة فى رقصة النصر ونشيده . وقد ظل محتفظا ببهاء طلعته الى أواخر أيامه ويظهر تمثاله المحفوظ فى متحف لاتران شيخا ملتحيا بهيا ولكنه قوى طويل القامة وقد نشأ فى أسعد عهود أثينة ، وكان صديقا لبركليز وشغل فى عهده أعلى مناصب الدولة فكان فى عام ٤٤٣ أمين بيت المال الامبراطورى ، وفى عام ٤٤٠ كان أحد القواد الذين تولوا قيادة قوات أثينة فى الحملة التى سيرها بركليز على ساموس وان كان من واجبنا أن نضيف الى هذا ان بركليز كان يعجب بشعره أكثر من اعجابه بخططه الحربية وعين بعد الكارثة التى حلت بأثينة فى سرقوصة عضوا فى لجنة الأمن العام واقترع بحكم منصبه هذا على عودة الدستور الالجركى فى عام ٤١١ وكان الشعب يعجب بأخلاقه أكثر من اعجابه بسياسته فقد كان ظريفا لبقا متواضعا محبا للهو وهب من قوة الجاذبية ما يكفى عن جميع أخطائه وكان شديد الصلاح ، وقد شغل مرارا منصب الكاهن .



ولد سوفوكليس فى كولون عام ٤٩٥ ق.م وكان والده سوفيلوس من أصحاب مصانع الأسلحة فى أثينا ولما شب استقبل الحياة بقلب مرح وكان من ذوى الفطر المرنة التى تنثنى ولا تتحطم وتقدر على أن تتلون بألوان البيئات المختلفة التى تندمج فيها ولهذا لم تلبث مدينة أثينا ان

صورته على الصورة التى أرادته عليها فكان أثينيا لحما ودما وقلبا وشعورا وذوقا وعقلا ٠

كلف منذ طليعة شبابه بالموسيقا فأخذ يدرسها ويختلف الى مواطن توقيعها ويرافق حذاقها وذوى النبوغ فيها وكذلك شغف بالرياضة البدنية فعكف عليها فى نشاط حتى أجاد أهم تمريناتها ٠

ولما كان جميل الطلعة مليح التقاسيم خفيف الروح رشيق الحركات ـ فقد لفتت اليه هذه الميزات أنظار الجميع ولهذا عندما احتفلت أثينا فى سنة ٤٨٠ ق٠م بانتصارها فى موقعة « سالامينا » وقع الاختيار عليه ليرأس الجوقة المؤلفة من الشبان للتوقيع على القيثارة ولم يكن بعد قد تجاوز الخامسة عشرة من عمره فقام بهذه المهمة قياما يبشر بمستقبل زاهر فى عالمى الموسيقا والتمثيل ، وبعد ذلك التاريخ بقليل لم يرهب أن يمثل دور « نوسيكا » ابنة ملك الفابكيان فى الأوديسا ودور الشاعر الجوال ثاميريس الذى كان يخاصم عرائيس الشعر فى التوقيع على القيثارة ٠

على أن أهم العوامل التى كانت تحتل رأسه احتلالا تاما هو التأليف المسرحى فأخذ يجد ويطلق العنان لموهبته فى عالم الأقاصيص الغابرة يستلهمه الفن ويستوحيه القريض حتى استطاع أن يتقدم للمسابقة للمرة الأولى فى سنة ٤٦٩ ق٠م ولم تكن سنه قد تجاوزت الثامنة والعشرين ففاز فيها بالأولية وهزم ايسخيلوس الشيخ ٠

ومنذ ذلك الحين الى وفاته جعل يتقدم الى المسابقة بأربع مآس مرة كل سنتين حتى روى انه لم يفز أى شاعر بمثل ما فاز به من الانتصارات لا فى الكم ولا فى الكيف اذ بلغ عدد المسابقات التى ظفر فيها بالأولية ثمانى عشرة مسابقة فيما يروى ديودوروس وعشرين فيما تدعى الرسالة المجهولة المؤلف وأربعا وعشرين فيما يحدثنا به سويداس وأيا ما كان فانه ـ فيما خلا هذا العدد من المسابقات ـ لم ينزل فى أية مسابقة فى حياته عن الصنف الثانى ٠

كان هو الذى يقوم فى شبابه بتمثيل الأدوار الأولى من مآسيه حسب التقاليد القديمة ولكنه لما تقدمت به السن وضعف صوته أسند هذا الدور الى حذاق الطبقة الأولى من الممثلين ٠

كان عهد نضوج سوفوكليس وسطوع كوكبه أسمى عهود أثينا فقد بلغت فيها قوتها الأوج ، ووصل مجدها الى القمة وتحولت فيها الحياة الى جنة يانعة الأزهار دانية الثمار ولذلك شاهد هذا الشاعر فيما بين الثلاثين والستين من عمره سلطان كيمون يسمو ويتألق ثم ينطفئ فيعقبه

سلطان بيريكليس العظيم الذي يساهم فى تحقيق سؤدد هذه المدينة واتمام علاهـــا ٠

وعلى أثر انتصار أثينا فى الحرب الميدية تفتحت أبواب الثراء والمجد أمام الجميع ولكن سوفوكليس قد أبى أن ينال أى تشريف من جهة أخرى غير فنه ، فاكتفى بأن يكون مواطنا أثينيا وشاعرا مأساويا ولم يطمع فيما وراء ذلك مما كان يغوى الشباب فى تلك الحقبة المليئة بالنشاط والأمل وظل يرفل فى حلل الهناءة والسطوع ما شاءت لهما الأقدار أن يفعلا ٠

ولما قلب الزمن لهذه الحاضرة الجليلة الزاهية ظهر المجن ، وتجهمت لها الأقدار فسددت اليها سهام الارزاء والنكبات ووقعت بها هزيمة صقلية فى سنة ٤١٣ ق٠م أضحت فى حاجة الى البحث عن وسائل انقاذها ، وكان شاعرنا قد تقدمت به السن وعين قاضيا فاختير ضمن القضاة الستة الذين وكلت اليهم هذه المهمة ٠ وفى سنة ٤١١ عين عضوا فى لجنة الثلاثين التى كلفت بتعديل الدستور ٠

وأخيرا وبعد هذه الحياة الطويلة المليئة بالنشاط والانتاج والظفر والسعادة والشقاء والمرح والأسى توفى فى سنة ٤٠٥ ق٠م وكانت سنه تسعين عاما فرسم أحد الفنانين على قبره صورة احدى عرائس البحر ذوات الأصوات الساحرة رمزا الى أثر شعره فى النفوس وليس هذا فحسب بل ان أثينا بنت له معبدا جعلت تقدم اليه فيه الضحايا فى كل عام على نحو ما تفعل لعظماء الأبطال ٠

مؤلفـــاته

لا يدرى أحد كم ألف سوفوكليس من المآسى بالضبط فقد أقر الناقد الاسكندرى « أريستوفانيس البيزنطى » مما نسب اليه منها مائة وثلاثا وعشرين مسرحية ووافقه « سويداس » على هذا العدد ٠ ولكن الباحث الألمانى « داندروف » لم يثبت فى قائمته الا مائة وخمسة عشر عنوانا ٠

لم يبق من هذا العدد الضخم الذى أشرنا اليه الا سبع مآس وهى :

١ ـ اياس : وهى مسرحية انتيجونى أقدم ما وصلنا من أعمال سوفوكليس وتعالج الأولى مأساة انتحار اياس وكان يطلق عليها أحيانا (اياس حامل السوط) لتمييزها عن تراجيديات أخرى باسم هذا البطل ، وهذه المسرحية دراسة للخطأ الذى يؤدى الى الفاجعة ٠

٢ ـ انتيجونى : التى عرفت لأول مرة حوالى ٤٤١ ق٠م فهى فى رأى معظم النقاد الحديثين من أروع ما كتب سوفوكليس وذلك لأنهـا

تعرض مشكلة من أهم المشاكل الأخلاقية الأبدية وهى مشكلة الصراع بين الواجب الخاص والواجب العام ٠

٣ ـ نساء تراخيس : أو التراخينيات ويحتمل انها عرضت حوالى عام ٤١٣ ق٠م ٠

٤ ـ الكترا : التى عرفت لأول مرة فى عام ٤١٠ ق٠م على وجه التقريب وهى تعالج نفس الموضوع الذى عالجه ايسخيلوس من قبل فى مسرحية الخويفوروى أي حاملات القرابين وهو موضوع انتقام أورسيتس وأخته الكترا من أمهما كليتستترا لقتلها أباهما أجاممنون ٠

٥ ـ فيلوكتيتيس : التى عرفت حوالى عام ٤٠٩ ق٠م ٠ وكان سوفوكليس قد بلغ السابعة والثمانين على وجه التقريب وفازت بالجائزة الأولى ٠

٦ ـ أوديب فى كولونوس : وهى آخر ما كتب سوفوكليس وعرفت لأول مرة عام ٤٠١ ق٠م بعد وفاة الشاعر بحوالى ثلاث أو أربع سنوات وتقدم بها للمسابقة حفيده وسميه سوفوكليس الصغير ٠

أوديبــوس ملكا

ترجع الاشارة الى أسطورة أوديبوس الى أبعد العصور فقد أشار اليه هوميروس فى الأوديسا (الجزء الحادى عشر البيت ٢٧١ وما بعده) وتحكي الأسطورة أن أبوللون قد أنذر لايوس بأنه ان أنجب ولدا فسوف يقتله هذا الولد وكان هذا الانذار عقابا له على جرم ارتكبه فى حق بيلوبس الذى أكرم وفادته عندما لجأ اليه حين طرد من عرش بلاده طيبة فبدلا من أن يعترف لايوس بالجميل والفضـل لمضيفه بيلوبس يختطف ابنه خريسيبوس ٠ يسترد لايوس عرشه ويتزوج من يوكاستا ٠ وبعد مدة تضع له زوجته ولدا فيغتم ويتنازع نفسه عاملان : الحرص على الحياة من ناحية والرغبة فى الولد الذى يرث الملك ويخلد الذكرى من ناحية أخرى ولكن تردده هذا لم يستمر طويلا فقد قرر التخلص من الولد فأرسله مع أحد خدمه ليتخلص منه بعيدا فوق قمة جبل كيثيرون وهناك أخذت الرجل الشفقة على الطفل ، وفيما هو جالس يفكر فى الأمر اذ يقبل أحد الرعاة من المملكة المجاورة فاذا سأل زميله عن أمره وعرف ما يشغل باله اقترح عليه أن يعطيه الطفل ويعود الى مولاه بدم كذب فيوافق ٠ يعود الراعى الى مدينته كورنثة ويعطى الطفل لملكها بوليبوس الذى كان محروما من نعمة الذرية فيفرح الملك بالطفل ويتبناه وتتعهده الملكة ميروبى بالحب

والرعاية فينشأ في مهاد النعمة وليا للعهد ، ويشب الطفل وهو يعتقد انه ابن الملك والملكة بالفعل • وتسير الأمور هانئة هادئة ردحا من الزمن الى أن يذهب أوديبوس وقد صار الآن شابا يافعا مع نفر من أصدقائه ليلهو معهم فشربوا وسكروا وفي غمرة سكرهم يعيره أحدهم بأنه مجهول الأصل وليس ابن ملك كورنثة وملكتها ويهلع قلب الأمير الشاب أوديبوس ويذهب الى معبد دلفي ليستلهم الحقيقة من أبوللون فجاءه الوحي بأنه ان عاد الى وطنه فسيقتل أباه ويتزوج من أمه ويجلب التعاسة على أهله وذويه • يشتد هلع أوديبوس ويعتزم عدم العودة الى كورنثة حتى لا يقع هذا الشر المستطير فهو يحسب أن ملكها وملكتها هما أبوه وأمه ويمضى في طريقه على غير هدى الى أن يأتى الى مكان عنده مفترق طرق ثلاث وفى هذا المكان يلتقى بجماعة من المسافرين على رأسهم شيخ وقور يركب عربة يصيح به بشيرهم ليخلى الطريق ولكنه لا يبالى ويصر على أن يمر هو أولا وتنشب بينهم معركة يقضى فيها أوديبوس على كبيرهم وكل حاشيته الا واحدا استطاع أن ينجو بجلده وهكذا تحقق جزء من النبوءة فلم يكن ذلك الشيخ الوقور سوى لايوس والد أوديبوس وكان فى طريقه الى مهبط وحى دلفى ليعرف السبيل للخلاص من ذلك الاسفنكس — الوحش الهولة — الذى يهدد مدينة طيبة ويقطع الطريق على الناس ويقتل منهم كل من لا يستطيع حل لغز يلقيه عليه • يقبل أوديبوس على طيبة وهو لا يدرى انها مسقط رأسه وعلى أبوابها يعترض الاسفنكس طريقه ويلقى عليه اللغز : ما الحيوان الذى يسير فى الصباح على أربع وفى الظهيرة على اثنتين وفى المساء على ثلاث ؟ فيجيب عليه أوديب : انه الانسان فهو يحبو على أربع وهو طفل فاذا شب واستوى عوده سار على اثنتين واذا أدركته الشيخوخة توكأ على عصا • فيضحك الاسفنكس ويتركه ليمضى فى شأنه اذ كانت هذه هى الاجابة الصحيحة ولكن أوديبوس يستهل سيفه ويهاجمه ولا يزال به حتى يجهز عليه وتكون هناك جماعة من أهل طيبة واقفة على الأسوار تشاهد هذا الصراع الرهيب • كان أهل طيبة قد تلقوا نبأ مقتل ملكهم لايوس فى ظروف غامضة من الحارس الذى فر هاربا ولكنهم سرعان ما يشغلون عن هذا بذلك الشاب الباسل الذى خلصهم من الرعب الرابض على أبواب مدينتهم فيقبلون عليه مهنئين مستبشرين ويدخلون به المدينة دخول الفاتح المنتصر حيث يتوجه كريون ملكا على طيبة ، ويزوجه من الملكة يوكاستا وذلك تحقيقا لنذر نذره أهل المدينة لمن يخلصهم من الاسفنكس فلم يملك أوديبوس وقد عقدت لسانه الدهشة الا أن ينزل على رغبتهم ويقبل الملك والزوجة ، وبذلك تحققت كل النبوءة وتمضى الأيام والسنون وأوديبوس يحكم المدينة فى أمن وسلام وتنجب له يوكاستا — زوجه وأمه — ولدين وبنتين أما الولدان فهما اتيوكليس وبولنيكيسس وأما البنتان فهما انتيجونى واسمينى ولكن

القضاء كان لهم بالمرصاد اذ يهدد المدينة الطاعون والمجاعة فيرسل الملك الى دلفي من يسأل عن سبب ذلك الوباء وطريقة الخلاص منه فيعود الرسول يقول انه لا خلاص لطيبة مما هي الا اذا تطهرت من رجس بها وهذا الرجس هو وجود قاتل لايوس بها فلابد اذن من القبض عليه والاقتصاص منه وبعد تقصي الحوادث تتضح الحقيقة وهي ان قاتل لايوس ان هو الا أوديبوس نفسه وأنه تزوج من أمه وأنجب منها أبناء هم في نفس الوقت اخوة له • تظلم الدنيا في عيني أوديبوس وتكون أمه قد انتحرت عندما عرفت الحقيقة فينطلق الى داخل القصر ليسمل عينيه في ثورة جنون ويترك البلاد ، تقوده ابنته انتيجوني ، فقد حكم على نفسه بالنفي •

هذه هي الأسطورة فكيف تصرف فيها سوفوكليس ؟ لم يعرض سوفوكليس الأسطورة بالتسلسل الروائي الذى رويناه وانما بدأ مسرحيته من منتصف الأسطورة ولكن ، كان لابد من الاحاطة بالأحداث السابقة على نقطة البدء • لم يلجأ سوفوكليس في شرحها الى طريقة المقدمات وانما كان بارعا في الاشارة الى هذه الأحداث خلال عرض مسرحيته فكان موفقا كل التوفيق في مزج الماضي والحاضر •

تبدأ المسرحية عند سوفوكليس بتجمع نفر من أهل مدينة طيبة يحملون أغصان الغار والزيتون وقد جثوا أمام مذبح قصر الملك أوديبوس وبينهم كاهن زيوس كبير الآلهة ، يخرج اليهم أوديبوس وقد مضت عليه سنوات يحكم فيها البلاد حكما عادلا وهو الآن زوج يوكاستا وأبو أولادها ، يخرج اليهم متسائلا :

– أى أبنائي يا ثمار نسل كادموس التليد • أيها الجيل الحديث الناشيء • ما لكم جاثين هكذا ، حاملين معكم ضفائر الزهر وأغصان التوسل في حين يملأ المدينة عبق البخور ، وترتفع فيها الأصوات بالأدعية ويشيع بين أهلها الأنين ؟! •

من أجل هذا جئت اليكم أنا أوديب الذى تبجله الناس جميعا •

واذ يعلم انهم لجأوا اليه كي ينقذهم من هذا الوباء الذى يحصدهم حصدا ، كما أنقذهم من قبل من ذلك الوحش الذى كان يهدد مدينتهم يطمئنهم ويطيب خاطرهم بأنهم ان كانوا يألمون فانه يألم أكثر منهم فهو يحمل كل آلام المدينة على كاهله كما يخبرهم بأنه قد أرسل كريون الى معبد دلفي ليعلم من الاله أبوللون ما ينبغي أن يصنع • ولا يمضي وقت طويل حتى يقبل كريون مبتهجا وقد توج رأسه بأكليل الغار فيبادئه أوديبوس بالسؤال :

— : أى جواب تحمله الينا من الآلهة يا كريون ؟

كريون : ان شئت تكلمت أمام هذا الحشد والا فلندخل القصر .

أوديبوس : تكلم أمامهم جميعا . فان آلامهم تثقل على أكثر مما تثقل على آلامى وان الأمر لأخطر من أن يمسنى وحدى .

فيعلن كريون أن الاله أبوللون يطلب اليهم تطهير المدينة من قتلة الملك السابق لايوس بتوقيع القصـــاص عليهم ونفيهم فاذا سأل أوديبوس :

— : أين هم وكيف نقتفى أثر هذه الجريمة التى حدثت منذ أمد بعيد ؟ أجاب عليه كريون :

— : لقد قال الاله ان الآثمين فى هذه الأرض ومن بحث عن شىء وجده ومن أهمل شيئا أفلت من يده .

فاذا بأوديبوس يقرر :

— : اذن فلأرجع بالأمر الى أصله حتى أرده الى الجلاء والوضوح .

ثم يخرج الجميع ليدخل أفراد الجوقة التى تتألف من خمسة عشر من أشراف طيبة فتغنى أنشودة تبتهل فيها الى الآلهة أن ترفع عن طيبة هذا البلاء .

ومن هذا الموقف تبدأ عقدة مسرحية سوفوكليس فى التطور نحو الذروة فقد راح أوديبوس يبحث عن هؤلاء القتلة فأدى به هذا البحث الى الكشف عن حقيقة نفسه وقد أدار سوفوكليس دفة هذا البحث فى بناء درامى محكم يصل فى روعته الى حد الاعجاز .

يدخل أوديبوس مرة أخرى فيخاطب أفراد الجوقة مطالبا اياهم أن يعينوه على اكتشاف الحقيقة ويهيب بالقاتل أن يظهر نفسه فان أقصى ما سيناله ان دل على نفسه هو أن ينفى دون أن تتعرض حياته لأدنى خطر . كما ينذر ويتوعد كل من يعرف القاتل ولا يدل عليه اذ يجب أن يردوه جميعا عن ديارهم فهو الرجس بالقياس الى المدينة كلها كما أنبأ بذلك وحى أبوللون واذ ينصـــحه رئيس الجوقة باستدعاء تريسياس الكاهن القادر على اختراق حجب الغيب يجيب بأنه لم يمهل هذه الخطة بناء على مشورة كريون وقد أرسل بالفعل فى طلبه ، يقبل تريسياس الأعمى يقوده صبى صـــغير ويسأله أوديبوس فيجيب اجابات غامضة ملتوية فينتهره الملك ويتهمه بأنه شريك فى القتل ولولا أنه أعمى لقال انه القاتل نفسه فيثور الكاهن ويصيح كالمجنون :

— انك أنت نفسك الرجس الذى يدنس المدينة .

فتحتدم ثورة أوديبوس على أثر هذا الاتهام الرهيب وتبلغ الثورة مداهــا فيقذف بالتهم فى وجه الكاهن فيتهمه بأنه صنيعة كريون الذى رشاه بالمال ليخترع هذه الفرية كى ينزعاه عن العرش كما يعيره بفقد بصره فلا يسع تريسياس عندئذ الا أن يصرح بالحقيقة ويرهص بالنهاية :

ـ اذن فلأقل لك فى صراحة ما دمت تعيرنى بفقدان البصر ...

انك تبحث مهددا منذرا عن الرجل الذى قتل لايوس فاطمئن سوف أدلك عليه انه هنا يقيم على انه غريب ، ولكن سيعرف الناس أنه من أهل طيبة ... انه يرى ولكنه سيفقد البصر ، وسيسعى ، وعصـــاه تتحسس طريقه ضاربا فى بلاد مجهولة مصغيا الى أصوات تهتف به من حوله : هذا أب وأخ لأبنائه هذا رجل جلب الخزى والعار على أبيه وأمه .

هذا ابن قاتل ، مرتكب للفسق .

ثم يخرج الكاهن مغضبا . ويدخل أوديبوس القصر وكلمات الكاهن تطن فى أذنيه تنشد الجوقة انشودة تستعيد فيها أفضال أوديبوس على المدينة وتتردد فى تصديق ما تنبأ به الكاهن تريسياس عندئذ يدخـل كريون وكان قد سمع بما اتهمه به الملك فيدافع عن نفسه أمام الجوقة ويلوم أوديبوس لاهانته بهذا القول ثم يدخل أوديبوس فيشتبك مع كريون فى حوار عنيف :

أوديبوس : اذا كنت تحسب انك تستطيع الاعتداء على أحد أقربائك دون أن تنال العقاب فأنت واهم .

كريون : أنت على حق فى هذا ، ولكن ماذا جنيت فى حقك من ذنب ؟

أوديبوس : ألم تشر على بأن أرسل فى طلب هذا الكاهن ؟

كريون : بل وما زلت أرى هذا الرأى .

ـــ : أى أمد مضى على لايوس منذ ان قتل ؟

ـــ : ماذا تقصد ؟ لا أفهم ... مضى على ذلك زمن طويل .

ـــ : أكان هذا الكاهن يصطنع كهانته حينئذ ؟

ـــ : نعم وكان بارعا كما هو الآن .

ـــ : هل أسمانى فى ذلك الوقت ؟

ـــ : كلا لم يفعل ذلك أمامى على الأقل .

ـــ : ألم تبحثوا عن الحقيقة فى مصرع الملك ؟

— : بحثنا بدون شك ولكن بلا طائل .

— : ترى لماذا لم يقل ذلك البارع اذ ذاك ما يقوله اليوم ؟

— : لا أدرى .

— : لا تدرى ، ولكن قد تقوله حين تواتيك الفرصة .

ويشتد الحوار حتى يصل الى ذروته :

كريون : ماذا تريد اذن ؟ أتريد نفيى من المدينة ؟

اوديبوس : أنى أريد موتك لا نفيك .

ثم تدخل الملكة يوكاستا لتوقف هذا الصدام بقولها :

— : أيهــا المغروران ، حسبكما ما تشدقتما به من ألفــاظ الغضب العمياء ، ألا تخجلان من اثارة الخصومة الخاصة بينما المدينة كلها تنزف دماءها .

وتحاول التوفيق بينهما فلا تفلح ، ويخرج كريون محنقا ثم تسأل أوديبوس عن سر هذا الغضب فيخبرها أنه ائتمار كريون به فهو يزعم أنه هو قاتــل لايوس ويدعى أن الكاهن هو الذى أخبره بذلك فتسفــه يوكاستا كهانة الكاهن بل الكهانة كلها بما فى ذلك كهانة أبوللون نفسه وتذكر له أن كهان أبوللون كانوا قد أخبروا الملك لايوس بأنه سيموت مقتولا بيد ابنه الذى يولد منها ولكن الناس جميعا تؤكد أن لصوصا من الأجانب قد قتلوا الملك لايوس منذ زمن بعيد فى طريق ذى ثلاث شعب وما أن يسأل أوديبوس عن زمان ومكان وقوع الحادث وتعينه له يوكاستا حتى يضطرب ويسأل :

— : كيف كان لايوس ؟ ماهيئته وماذا كانت سنه ؟

يوكاستا : كان طويلا وخط الشيب رأسه وكانت فيه ملامحك .

— : ما أشقانى ... !!

أكان مسافرا فى جماعة صغيرة أم كان يتبعه حرس كبير ؟

— : كان معه خمسة لا غير بينهم مناد .

— : أواه ! الآن يتضح كل شىء ولكن من أنبأك بكل هذا ؟

— : خادم نجا وحده .

— : أهو فى القصر الآن ؟

فيطلب استدعاء هذا الخادم من المرعى ثم يحدث الملكة عن نفسه وعن حياته فى كورنثة ويذكر لها كل ما حدث له حتى وصل الى طيبة وأصبح ملكها كما يعبر عن قلقه وخوفه من أن يكون هو القاتل ولكنه يتعلق بأمل فى مقدم هذا الرجل الراعى فان أكد ما قالته الملكة الآن من أن القاتل كان جماعة ولم يكن فردا واحدا فقد نجا ثم يخرجان لتنشد الجوقة أنشودة أخرى تخفف من حدة التوتر تعود بعدها يوكاستا ومعها قرابين تقدمها للآلهة لتهدئة قلق أوديبوس عندئد يدخل رسول من كورنثة يحمل أنباء خلاصتها أن أهل كورنثة سيختارون أوديبوس ملكا عليهم لموت الملك بوليبوس فتطلب الملكة من احدى وصيفاتها استدعاء آوديبوس فيحضر واذ يعلم رغبة أهل كورنثة فى تنصيبه ملكا عليهم • يبدى قلقه وتخوفه فانه وان كان لم يقتل بوليبوس أباه على حد زعمه فربما تحققت النبوءة فى شطرها الثانى فالملكة ميروبى ــ التى يعتقد أنها أمه ــ لا تزال على قيد الحياة وهنا يكشف له الرسول عن حقيقة صلته بملك وملكة كورنثة فقد كان هذا الرسول هو نفس الراعى الذى أخذ أوديبوس وهو طفل وأهداه الى ملك كورنثة ثم يصل الرجل الذى كان قد نجا من القتل فاذا رأى أوديبوس ظهرت عليه علامات الفزع واذا رأى الرسول الكورنثى عرفه أيضا وجزع جزعا شديدا فقد كان هذا الرجل هو نفس الخادم الطيبى الذى سلم الطفل أوديبوس الى الراعى الكورنثى الذى هو الآن الرسول وبذلك تنكشف الحقيقة كاملة فتخرج الملكة يوكاستا لتنتحر ثم يتبعها أوديبوس ليسمل عينيه ، ويصل رسول من داخل القصر يحدثنا بما كان من أمر الملكة والملك فيقول :

ــ لقد عبرت (الملكة) البهو ذاهلة عن نفسها لما بها من سورة ، وكانت ماضية لا تلوى على شىء ويداها فوق رأسها تستأصل بهما شعرها وكأنهما سلاحان ماضيان فتنطلق الى حجرتهـــا حتى اذا دخلتها أغلقت الأبواب من خلفها فى عنف وهى تهتف باسم لايوس الذى مات منذ أمد بعيد كما كانت تعول وتنحب على هذا السرير الذى تلقى أزواجا من زوجها وأبناء من ابنها وبعد ذلك لا أدرى كيف استطاع الموت أن يجد سبيله اليها ، لأننا فوجئنا بأوديبوس وقد أقبل صارخا صاخبا فلم أعد أرى ما انتاب الملكة ... لقد اقتحم أوديبوس باب الغرفة المحكم الاغلاق فحطمه واقتلعه من جذوره ثم دخل الحجرة لقد كان أول ما شهدنا الملكة وقد شنقت نفسها ، وكانت لا تزال تتأرجح فى الأنشوطة كطائر ميت • فلا يكاد الشقى يرى هذا المشهد حتى تنبعث منه آهة يائسة ثم يندفع فيحل الأنشوطة التى كانت تشنقها فتسقط البائسة على الأرض آه • ما أبشع المنظر الذى تلا ذلك ! فان أوديبوس ينتزع المشابك الذهبية

التي تشبه اللهب ينزعها من صدرها ويدفع بها في عينيه صائحا : اخرجا ... اخرجا ... فلن ترياني بعد اليوم ولن تريا آلامي وآثامي ...

ثم يصل أوديبوس والدم يسيل من عينيه واذا بأفراد الجوقة يشيحون بوجوههم حتى لا يروا هذا المنظر المريع . لقد أصبح أوديبوس الآن كائنا ذليلا مهيض الجناح يتلمس طريقه في الظلام الأبدي مقطوع الأمل والرجاء في الدنيا والآخرة لاعنا الرجل الذي نجاه من الموت ليدفع به الى هذا الشقاء الذي يحيق به هو وبكل من له به صلة ثم يستصرخ الجوقة قائلا :

ـ أستحلفكم بحق الآلهة إن تسارعوا باخفائي عن الابصار قودوني الى مكان سحيق فاقتلوني أو ألقوا بي في اليم حيث لا يراني أحد أبد الدهر .

ثم يدخل كريون فيعتذر اليه أوديبوس وهو يبكي ثم يستعطفه ويوصيه خيرا ببنتيه فيتأثر كريون ويبدى نحوه عطفا شديدا ويواسيه ثم تدخل الفتاتان أنتجوني واسميني بناء على أمر من كريون واذ يسمع أوديبوس صوت بكائهما يقول :

ـ ألست أسمع بكاء ابنتي غير بعيد من هنا ؟ هل أشفق على كريون فبعث الى بأعز أبنائي وآثرهم عندي ؟ .... لتكافئك الآلهة اذ سمحت لي بلقائهما .... بنتي ! أين أنتما ؟ ادنوا مني ، تعاليا الى ذراعي أواه ! تعاليا الى ذراعي أخيكما .. اللتان حرمتا الضوء ـ بما صنعتا ـ عينا الرجل الذي أنجبكما .. الرجل الذي كان مغمض العينين لا يرى ولا يدرى كيف أخرجكما من الأحشاء التي خرج هو منها .. أي شقاء لم ينزله بكما أبوكما ؟ قتل أباه وتزوج من أمه ومنحكما الحياة من حيث استمدها ... أي كريون ... انت وحدك الآن والد هاتين الفتاتين إذ هلك أبواهما اللذان كانا يرعيانهما من قبل أتوسل اليك لا تدعهما ، لا تتخل عنهما .. انهما لا تزالان صغيرتين كما ترى .. وحيدتين من الأهل الا منك ... أعطني يدك وعاهدني .. واذ يخرج أوديبوس منهارا تقوده ابنتاه تتغنى الجوقة أنشودة الختام التي تلخص عادة مغزى المسرحية :

ـ أي أبناء الوطن العزيز ، انظروا الى أوديبوس الذي حل اللغز العجيب الذي أعجز غيره من البشر .. انظروا الى هذا الرجل القوى .

أهناك من لم يكن ينظر الى رخائه ويسره وسعادته في غير ما حسد ؟ انظروا الآن أي بحر هائل من الشقاء قذف به !

فعليكم أن تأخذوا حذركم وأن تتبصروا في عواقب أموركم ونهاية أيامكم اذ لا ينبغي أن نحكم على أحد من الناس بأنه سعيد الا اذا انقضت

الساعة الأخيرة من حياته وانتقل الى العالم الآخر من غير ألم وبلا وزر يحمله .



وهكذا تنتهى مسرحية أوديبوس ملكا لسوفوكليس التى تعتبر بحق أروع ما كتب سوفوكليس فأشعارها سهلة متدفقة تفيض بالعواطف المتأججة وحوارها يفوق الوصف من الناحية اللغوية والناحية الموسيقية ليس فيها سطر من غير ضرورة ، ولم تترك المسرحية أية فرصة لخلق التوتر العاطفى والنفسى ولخلق التشوف والتشويق لدى المشاهد الا انتهزتها ، كما أن المسرحية تعتبر النموذج الكامل للتراجيديا الاغريقية وذلك باجماع آراء النقاد القدماء والمحدثين وعلى رأسهم أرسطو الذى أشاد بمواضع الكمال فيها فى أكثر من موضع من كتابه المشهور فن الشعر فحال بطلها أوديبوس مثلا هى حال من ليس فى الذروة من الفضل والعدل ، ولكنها حال من يتردى فى هوة الشقاء لا للؤم فيه وخسة بل لخطأ ارتكبه وكان ممن ذهب سمعه بين الناس وترادفت عليه النعم ، وهذه فى رأى أرسطو حال البطل النموذجى للتراجيديا (فن الشعر ١٤٥٣ أ ، ١١) والمسرحية تثير الخوف والرحمة لا عن طريق المنظر المسرحى بل عن طريق البناء الدرامى وترتيب الأحداث التى ألفت على نحو يجعل كل من يسمعها يفزع منها وتأخذه الرحمة بصرعاها وان لم يشهدها وهذا من عمل فحول الشعراء (فن الشعر ١٤٥٣ ب ، ٧) والتعرف على الحقيقة فى هذه المسرحية هو أفضل أنواع التعرف وهو التعرف المصحوب بالتحول كما أنه من النوع الذى يستنتج من الوقائع نفسها حيث تقع الدهشة عن طريق أحداث محتملة الوقوع لا عن طريق أحداث مفاجئة غير محتملة الوقوع ، ففى المسرحية يأتى الرسول الكورنثى وفى تقديره أنه سيدخل السرور على نفس أوديبوس ويطمئنه من ناحية أمه فلما أظهر حقيقة نفسه أحدث عكس الأثر ، وتحقق التعرف على الحقيقة ، كما حدث فى نفس الوقت التحول من السعادة الى الشقاء (فن الشعر ١٤٥٢ أ ، ٢٤ ، ٣٣ ـ ١٤٥٥ أ ، ١٩) وليس فى أحداث المسرحية شىء غير معقول وحتى اذا اعتبرنا مثلا ان كون أوديبوس لا يعرف كيف مات لايوس أمر غير معقول فقد حدث هذا خارج المسرحية ولم يكن ضمن أحداثها الداخلية فى بنائها الدرامى (فن الشعر ١٤٥٤ ب ، ٨٠ ، ١٤٦٠ أ ، ٢٩) .

لقد شغلت مأساة أوديبوس كثيرا من كتاب المسرح فى كل العصور والأمصار وقد أحصى الناقد الفرنسى مارينياك ـ فى المقدمة التى كتبها للترجمة الفرنسية لمسرحية أوديب لتوفيق الحكيم ـ تسعة وعشرين مؤلفا من بين الفرنسيين قد حاولوا منذ عام ١٦١٧ الى عام ١٩٣٩ محاكاة

سوفوكليس ومعالجة موضوع أوديبوس كما ان توفيق الحكيم وعلى أحمد باكثير من الكتاب العرب قد عنيا أيضا بهذه المأساة ولكن يجب الاعتراف بأن الذين أرادوا محاكاة سوفوكليس لم يبلغوا ما بلغه من شأو في تحقيق الغرض من معالجة موضوع مأساة أوديبوس فلقد استطاع سوفوكليس بعبقريته الفذة أن يعالج الموضوع علاجا مركبا . فالمسرحية فى ظاهرها احدى مآسى القدر اذ تحققت نبوءة الآلهة رغم كل المحاولات التى بذلت للفرار من هذا القدر المحتوم ولكن شخصية أوديبوس - كما صورها سوفوكليس - هى السبب المباشر فى تحقيق هذه النبوءة ، اذ تتمثل فى شخصيته نقط الضعف الرئيسية وهى التهور وحدة المزاج التى دفعت بالأحداث أن تسير فى الطريق الذى رسمه القدر لذلك فأنت ترى أوديبوس يتحمل المسئولية كلها ولا يتنصل منها بالقاء التبعة على الآلهة التى لا مرد لقضائها !

الأنيـــادة

فـرجيـل

١٧ ق.م

حياة فرجيل .. أحب الرومان الى القلوب

ظهر أعظم شاعرين فى روما القديمة ، فرجيل وهوراس (١) . كما ظهر مشجعاهما أغسطس (٢) ومايكيناس الى عالم النور خلال سنوات قليلة جدا (٧٠ — ٦٣) (ق.م) وكان اغسطس اصغرهم وربما كان فرجيل أكبرهم وكانت شخصيته من أعظم الشخصيات التاريخية فى الغرب كله . فهو ينتسب الى مجموعة صغيرة جدا من الشعراء العالميين ، ها هو ذا يقف بين هوميروس ودانتى فليس هناك شعراء آخرون يتساوون معهم على الرغم من ان البرتغاليين قد يذكرون اسم كامويس والانجليز والبروتستانت ميلتون .

والعلاقة بين فرجيل وهوميروس متينة جدا لان الأول حاكى الثانى . فهذا مثل جديد ، بل هو أعظم مثل يبهر الالباب لاعتماد العبقرية الرومانية على العبقرية اليونانية : وكما شرح لوكريتيوس (٣) وشيشرون الفلسفة باللغة اللاتينية فكذلك أبدع فرجيل ملحمة لاتينية احتذى فيها النماذج اليونانية أعنى الالياذة والأوديسا . ولعل العلاقة بينهما كانت أعمق وأوثق . وأعجب القدماء بهوميروس أيما اعجاب وعرفوا أشعاره معرفة جيدة حتى ان الباحثين من الرومان ذهبوا الى ذلك الاعتقاد الخرافى وهو أن روما أسستها سلالة الملوك من الطرواديين ، فكانت الإنيادة أول تطور تام لهذه الخرافة وبالتالى كانت الالياذة مقدمة لا للتاريخ اليونانى فحسب بل وللتاريخ الرومانى أيضا .

ولد فرجيل فى منتصف شهر أكتوبر (١٥ من أكتوبر) سنة ٧٠ ق.م فى قرية بالقرب من مانتوا من أعمال فينيسيا شمال نهر البو . وكان أبوه مزارعا صغيرا كسب عيشه من تربية النحل وتوافر لديه مال يكفى لارسال ابنه — الذى لاحت عليه أمارات الذكاء — فى سن الثانية عشرة الى مدرسة جيدة فى كريمونا . ونجد فرجيل هناك وهو يحتفل بعيد ميلاده الخامس عشر (١٥ من أكتوبر ٥٥) بارتداء (التوجا) (عباءة الرومان) المعدة للرجال أعنى أنه أصبح يعتبر رجلا وهو فى الخامسة عشرة أقل بقليل من السن المعتادة . وقد ذهب فى السنة ذاتها الى ميلان لفترة

قصيرة ثم الى روما لاتمام دراسته وخاصة الريطوريقا ومن المحتمل انه درس علم الفلك والطب وبعد ذلك بقليل أصبح تلميذا لسيرو الابيقورى وبدأ اهتمامه بالشعر مبكرا جدا تحت تأثير شعراء الاسكندرية وكاتوللوس الذى حاكاهم ولوكريتيوس بوجه خاص ومن المحتمل انه كان فى روما قبل الفترة الممتدة من ٥٣ الى ٤٦ وأثناءها وبعدها ونستطيع ان نتخيل الاضطراب والارتباك الذى يصيب شابا مرهف الحس معتل الصـــحة كالغريق فى المدينة العظيمة مواجها لآلام الحرب الأهلية والفساد السياسى، وفى وسعنا ان نتخيل أيضا حنينه الى الأرض مسقط رأسه وقد عاد الى مانتوا حوالى سنة ٤٤ أو ٤٣ ·

ومن سوء الحظ أنه بعد قليل (سنة ٤٢) صودر ذلك الجزء من ايطاليا (وفيه مزرعة ابيه) ليوزع على قدماء المحاربين فى الحرب الأهلية فعاد فرجيل الى روما لينال بعضا من التعويض ·

وحاول اسنيوس بليو وحاكم غالة الايطالية ان يرد الضـــيعة الى مالكها ولكنه عجز فعوضه عن ذلك بأن تولى رعاية الشاب فرجيل وشجعه على الاستمرار فى كتابة (المختارات) وهى القصائد التى كان ينشئها فى ذلك الوقت ·

ولم يكد يحل عام ٣٧ حتى كان اسم فرجيل على كل لسان فى رومة ذلك أن المختارات نشرت قبيل ذلك الوقت وتقبلها أهل رومة بقبول حسن وكانت احدى الممثلات قد انشدت أبياتها على المسرح وصفق لها النظارة تصفيقا ملؤه الحماسة والاعجاب وموضوع القصائد هو وصف الرعى على نمط قصائد ثيوقريطس (٤) ونجد فيها أحيانا ألفاظها نفسها وهى جميلة الأسلوب والتوقيع وأنغامها أجمل الأنغام السداسية الأوزان التى استمعت لها رومة فى تاريخها كله وهى مليئة بالحنان التأملى والحب التخيلى · ذلك ان الشاب وان قضى شطرا كبيرا من حياته فى العاصمة قد انفصل عنها زمنا يكفى لأن يجعله يمجد حياة الريف ويعدها المثل الأعلى للحياة الحقة وكان من شعره أن أصبح كل انسان يسره أن يتخيل نفسه راعيا يسير مع قطعانه على سفوح الابنين صاعدا أو نازلا ويحطم قلبه بالحب وصد الحبيب ·

وكان أكثر واقعية من هذه الأشباح الثيوقراطية (٥) ما كان فى شعر فرجيل من وصف للمناظر الريفية · وقد مجد فرجيل هذه المناظر أيضا كما مجد مناظر الرعى واتخذها هى الأخرى مثلا أعلى للحياة ولكنه هنا لم يكن مقلدا فقد استمع من قبل الى أغانى الخطاب الشهوانية ، وشهد بعينيه النحل القلق يحوم حول الازهار وعرف يأس الزارع الخلي البال الذى

خسر أرضه كما خسر آلاف الناس أراضيهم فى تلك الأيام على أن أهم من هذا كله أنه كان شديد الاحساس بما كان يرتجيه ذلك العصر من القضاء على التحزب والحرب وكانت الكتب السبيلية قد تنبأت بأن عصر زحل الذهبى سيعود مرة أخرى بعد العصر الحديدى ، ولما أن ولد فى عام ٤٠ ق٠م ولد لاسينيوس بليو نصير فرجيل أعلن الشاعر فى الكتاب الرابع من المختارات أن مولده سيكون بداية المدينة الفاضلة فقال :

« والآن يعود العصر الأخير الذى (يبشر به) نشيد كومية (سبيل) ، وها هى ذى الأحقاب العظيمة المتعاقبة تولد من جديد وتعود العذراء ويعود حكم زحل وينزل من السماء العليا جيل جديد أى لوسينا الطاهرة العفيفة (ربة المواليد) ابتسمى للغلام الذى ولد منذ قليل والذى سيزول فى عهده لأول مرة جيل الحديد وينشأ فى العالم جيل الذهب٠وان الهك أبوللون قد أصبح الآن ملكا على الأرض » ٠

وتحققت هذه النبوءات بعد عشر سنين من ذلك الوقت فتخلص الناس من عدد الحرب الحديدية وسيطر على البلاد جيل جديد مسلح بالذهب ومفتون به ولم تشهد رومة في السنين القليلة الباقية من حياة فرجيل اضطرابات جديدة وعمها الرخاء والسعادة وحيا الناس أغسطس ولقبوه بالمنقذ وان لم يلقبوه أبلون ٠ ورحب بلاط الامبراطور — وان لم يكن فيه من مظاهر العظمة والأبهة الا نصف ما فى بلاط الملوك — بما فى شعر فرجيل من تفاؤل ، واستقدمه اليه ماسيناس وأحبه ورأى فيه اداة شعبية ينفذ بها اصلاحات اكتافيان ٠ وكان حكمه هذا دليلا على بعد نظره ذلك ان فرجيل — وكان فى الثالثة والثلاثين من عمره — كان يبدو رجلا ريفيا شديد الحياء الى حد يجعله يتلعثم اذا تكلم يتجنب الظهور فى أى مكان عام يمكن ان يعرفه الناس فيه ويشيروا اليه ، لا يطيق مجتمعات رومة الراقية الحديثة المهذارة المتطاولة ٠ وفوق هذا فقد كان فرجيل معتل الجسم كأغسطس بل أكثر منه اعتلالا يشكو شكوى مستمرة من الصداع وأمراض الحلق واضطرابات المعدة والبصاق الدموى الكثير ولم يتزوج فرجيل قط ٠ ويلوح أنه لم يكن أكثر احساسا بالحب العارم الطليق من بطله انياس ٠ ويبدو انه اتى عليه حين من الدهر كان يواسى نفسه فيه بالعطف على غلام من الرقيق أما فيما عدا هذا فقد كان معروفا فى تابلى باسم (العذراء) ٠

وكان ماسيناس كريما فى معاملة الشاعر الشاب فاقنع اكتافيان بأن يرد له ضيعته واقترح على الشاعر أن يكتب عدة قصائد يمجد الحياة الزراعية وكانت ايطاليا فى ذلك الوقت (٣٧ ق٠م) تجزى أشد الجزاء على تحويل كثير من أرضها الزراعية الى مراع وبساتين وكروم وكان

سكستسى بمبى يمنع عنها الطعام الذى يرد من صقلية وأفريقية ، ونقص القمح ينذرها بانفجار بركان الثورة من جديد وكانت حياة المدن توهن ما فى شباب ايطاليا من رجولة ٠ ولاح ان صحة الأمة من جميع نواحيها تتطلب العودة الى حياة الزرع فلما اقترح ماسيناس على فرجيل ان يكتب القصائد التى تمجد الزرع أجاب الشاعر الطلب من فوره فقد كان عليما بحياة الريف ، وكان أجدر الناس بتصوير ما فيها من جاذبية وجمال ، معتمدا على ما اختزنه فى ذاكرته من حب لها عظيم وان كان ضعف صحته فى ذلك الوقت يحول بينه وبين احتمال ما فيها من صعاب وخبأ الشاعر نفسه فى نابلى وبعد ان ظل يعمل سبع سنين خرج على العـالم بأعظم ما أنشأه من القصائد وهى القصيدة المعروفة باسم (العمل فى الأرض) وسر منها ماسيناس وجاء معه بفرجيل الى الجنوب ليقابل أكتافيان وكان وقتئذ (٢٩ ق٠م) عائدا من انتصاره على كليوباترة ٠ واستراح القائد المضنى فى بلدة أتلا الصغيرة وأخذ يستمع أربعة أيام كاملة لألفى بيت وهو مأخوذ بجمالها مفتتن بسحرها ٠ هذا الى أن القصائد تتفق مع سياسته اتفاقا يفوق كل ما كان يتوقعه ماسيناس فقد كان يعتزم الآن أن يسرح الجزء الأكبر من جيوشه الجرارة التى ساد بها العالم وان يعمل على ان يستقر جنوده المضرسون فى الأرض فيستطيع بذلك ان يهدىء بالهم وأن يطعم المدن الايطالية ويحفظ كيان الدولة ٠ كل ذلك بفلح الأرض فى الريف ٠ وأصبح فرجيل من ذلك الوقت حرا فى أن يفكر فى الشعر دون غيره ٠

فى هذه القصائد نرى فنانا عظيما يعالج أشرف الفنون بأجمعها ــ فن زراعة الأرض وفيها يأخذ فرجيل من هزيود وأراتس وكاتو وفارو ولكنه يحول نثرهم الخشن أو أبياتهم العرجاء الى شعر رقيق مصقول وهو يطرق جميع فروع الفلاحة ويوفيها حقها ــ فيتحدث عن أنواع التربة ووسائل علاجها وفصول الزرع والحصاد ويبحث فى غرس أشجار الزيتون والكروم وتربية الماشية والخيل والضأن والعناية بالنحل ويستهويه كل عمل من أعمال الزراعة ويثير اهتمـامه ويستحوذ على فكره حتى ليحتاج الى أن يحذر نفسه من الانهماك فى الموضوع الذى يتحدث عنه ونسيانه ما بعده فيقـــول :

« ولكن الوقت يمر مرا سريعا ، وما مر عنه لا يمكن ان يعود أبدا ، على حين أننا نحن يسحرنا حب (موضوعنا) فنطيل الوقوف عند كل دقيقة من دقائقه » ٠

أعمـــال فرجيـــل

وقبل ان نعرض أعمال « فرجيل » يجب أن نتذكر أن الشـــعر اللاتينى باستثناء الهجاء فيما يقال قد نهض أساسا على محاكاة النماذج الاغريقية بوجه عام وكان قراء الدوائر المثقفة التي كان فرجيل يكتب لها يتحولون عن كل قصيدة يعتمد كاتبها على فطرته فحسب ويرحبون باعادة انتاج الروائع الأفريقية • وقد وضع (هوراس) للشعراء القاعدة التى تحقق لهم النجاح في هذا المضمار •

(ادرسوا النماذج الاغريقية وتأملوها آناء الليل وأطراف النهار) •

ان (الرعويات) تمثل أول أشعار مؤكدة للشاعر (فرجيل) وهى تتألف من عشر قصائد قصيرة يطلق عليها أحيانا اسم (مختارات) • كان شعر مدرسة الاسكندرية أحب ألوان الشعر دراسة فى ذلك الوقت من تاريخ الأدب اللاتينى وكانت رعويات ثيوكريتوس ــ التى يطلق عليها اسم « ايديليا » ــ أكثر أشعار مدرسة الاسكندرية سحرا وجاذبية وكلمة (ايديليا) معناها صورة قصيرة تصور فى معظمها حياة الرعاة وحياة الريف وغالبا ما تأخذ شكل الحوار ويرجع أصلها فى الغالب الى حب الموسيقا والولع بالأغانى اللذين ساعد على تطورهما سـهولة وبساطة الحياة الرعوية فى الجنوب مما يشيع جوا من البهجة والسعادة كما يرجع أيضا الى عادة التنافس في الغناء والى الارتجال الذى كان شائعا فى الأعياد الريفية وعلى الأخص بين الدوريين الذين كانوا يشكلون جزءا كبيرا من المستعمرات فى صقلية حيث أمضى (ثيوكريتوس) معظم حياته رغم انه ولد فى جزيرة كوس ــ وأمضى بعض الوقت فى الاسكندرية •

ورغم ان رعويات (فيرجيل) من ناحية الشـــكل تعتبر محاكاة لرعويات (ثيوكريتوس) الا انها تختلف عنها فى الجوهر : فرعويات (ثيوكريتوس) مرتبطة بالطبيعة الحقة فالمناظر واقعية والرعاة حقيقيون من لحم ودم يتدفقون حيوية ، أما رعويات (فيرجيل) فيغلب عليها طابع الصـنعة والفن فهى صـور مثالية للحياة الريفية كتبت لتناسب الذوق الرفيع لقراء عاصمة العالم المثقفين وقد لاحظ (هوراس) أن أهم ما يميز هذه الرعويات هو الرقة والرشاقة ولكن لو تأملنا رعويات (فيرجيل) بامعان لأدركنا أن (ثيوكريتوس) لم يكن بأية حال النموذج الوحيد الذى احتذاه (فيرجيل) ، فمما لا شك فيه أن (فيرجيل) قد أحب (هيسود)

وتأثر به حتى قبل ان يقدم على كتابة الزراعيات كما انه لابد وان يكون قد وقع تحت تأثير شعراء روما السابقين عليه • وفى الرعوية السادسة المهداة الى (فاروس) تبدأ أغنية (سيلينوس) بقصة نشأة العالم على نهج (لوكريتيوس) بتعبيراته وانغامه •

ومهما قيل عن التناقض وغلبه الصنعة فى الرعويات لا يستطيع أحد أن ينكر اخـــلاص هذه الأشــــعار فى حبها للطبيعة واهتمامها بالجمال وتوفيقها فى توصيل هذه التأثيرات الى نفس القارىء ، فالشاعر يجعل أهل الريف يتغنون كما لم يتغن أهل الريف من قبل • ففى (أركاديا) التى صورها فيرجيل على نهج (ثيوكريتوس) وان كان قد زينها بحيث امتزجت فيها المناظر الايطالية بالمناظرالصقلية ، فى تناقض يشبه تناقض الأحلام يشدو الرعاة المثاليوو متغنين بحبهم لراعيات مثاليات ذاكرين آمالهم وأحوال يأسهم وهم يتبارون على نهج لا مثيل له بأبيات ينشدها كل بدوره •

وعلى كل فان رعويات (فيرجيل) كانت شيئا جديدا على الرومان فالى جانب جمالها ومواطن سحرها كانت متقنة من الناحية الفنية • فقد نجح (فيرجيل) فيما فشل فيه غيره ممن سبقوه فخلق من اللغة اللاتينية أنغاما وايقاعات رائعة لم يســـمعها الرومان من قبل ومن ثم فقد لاقت الرعويات نجاحا كبيرا بمجرد ظهورها حتى ليقال انها كانت تلقى على المسرح بحماس عظيم • وهذه الأشعار هى التى منحته فرصة الدخول فى بلاط (أوكتافيوس) والحصـــول على رعاية (مايكيناس) ومكنته من احتلال مكانه اللائق به كشاعر للطبيعة والحياة الريفية • وليس معنى ذلك ان (فيرجيل) قد بلغ ذروة الجمال فى هذه الأشعار فما زالت أمامه خطوات يخطوها نحو الكمال عندما يتناول موضوعات أسمى وأجل وهذا ما نراه فى عمله التالى (الزراعيات) •

و (الزراعيات) عبارة عن مقالة عن شئون الزراعة وما يتعلق بها وقد كتبها (فيرجيل) تلبية لرغبة (مايكيناس) كما أنها مهداة اليه • فمنذ نشر الرعويات وقد أصبح فيرجيل أحد رجال الأدب الذين تعتمد عليهم الدولة فى الدعاية لمشروعاتها ، وقد كان أحد المشروعات المهمة التى واجهت (أوكتافيوس) ووزيره (مايكيناس) صدالخطر الداهم الذى يهدد ايطاليا• خطر اهمال الأراضى والهجرة من الأرياف فليس بعجيب اذن أن يشير (مايكيناس) على (فيرجيل) بكتابة هذه المقالة عن (الزراعيات) كوسيلة من وسائل الدعاية بقلم شاعر أثبت مقدرة فائقة على التعبير عن مثل هذه الأمور فى الرعويات وذلك بمهارة لم يسبق لها نظير •

تتألف الزراعيات من أربعة كتب تحتوى فى جملتها على ٢١٨٨

بيتا ، وان أهم ما يميز (الزراعيات) هو احكام أصقلها فقد كتبت على مهل وبعناية فائقة فلو سلمنا بأنها كتبت فيما يقرب من سبع سنوات لكان متوسط ما كتبت فى اليوم الواحد أقل من بيت واحد ·

ومن ثم فقد صقل كل بيت صقلا تاما أو على حد قول (فيرجيل) نفسه فيما يقال : (كان يلمس أبيـاته ليعطيها شكلا كما تفعل الدبة بأولادها) · ولذلك فان الزراعيات تعتبر أحسن ما أنتج (فيرجيل) من ناحية المهارة الفنية ، بل أروع ما كتب باللاتينية فى الشعر التعليمى ·

الانيـــــادة

نأتى الآن الى بيت القصيد أعنى (الانيادة) : لقد بدأ (فيرجيل) فى كتابتها حوالى عام ٣٠ ق·م وهو فى سن الأربعين وقد عكف على كتابتها الاحدى عشرة سنة الأخيرة من حياته ومع ذلك فانه لم ينته من تنقيحها بحيث يرضى عن نشرها فقد كان بها كثير من أنصاف الأبيات التى لم تكتمل حتى لقد أراد (فيرجيل) ان يقوم بتدمير هذا العمل الضخم حين وافته المنية لولا ان تدخل الامبراطور (أوغسطس) وعمل على انقاذه فأمر (فاريوس) و (توكا) ان يقوما بنشر (الانيادة) على ان يحذفا الزيادات دون ان يضيفا شيئا من عندهما · وعلى هذا وبعد مرور عامين على وفاة (فيرجيل) أى حوالى عام ١٧ ق·م طلعت على العالم ملحمة (فيرجيل) الخالدة (الانيادة) التى تنبأ لها (بروبيرتيوس) بأنهـا ستكون (شيئا ما أعظم من الالياذة) ·

ويبدو ان (الانيادة) لم تكن أول محاولة يقوم بها (فيرجيل) لكتابة الملاحم فقد سبقتها بعض المحاولات التى لم يكتب لها النجاح ومع ذلك فان (فيرجيل) لم ييأس فقد أعلن فى الأبيات الافتتاحية من الجزء الثالث للزراعيات عن عزمه على محاولة الكتابة فى موضوع أكثر سموا حيث يقدم ملحمة عظيمة يكون (قيصر أوغسطس) الشخصية الرئيسية بها وقد وفق (فيرجيل) أكبر توفيق ، اذ اختار قصة (أينياس) لتكون الهيكل الذى يبنى عليه ملحمته ولم يحـــاول أن يكتب ملحمة تاريخية دقيقة فلم تكن الحروف التى شبت بين قتلة قيصر والحكومة الثلاثية لتمده بالمادة الغنية التى امدته بها قصة (أينياس) فهذا الاختيار مكنه من مزج الحقيقة التاريخية بالخيال الأسطورى ومن ثم جاءت (الانيادة) ملحمية قومية وطنية قصد بها ربط أصل الرومان وعلى الأخص الأسرة اليولية بالآلة والأبطال العظام ، كما قصد بها أيضا ولو بطريق غير مباشر تمجيد كثير من عادات وطقوس الرومان وذلك بربطها بعادات وطقوس

عصر الأبطال ، ثم ان « اينياس » وأتباعه باصرارهم على احراز النجاح رغم اعتمادهم على الآلهة فى حل جميع الصعوبات والمخاطر التى واجهتهم ، يمثلون خير تمثيل تلك الفضائل والمميزات التى عملت ببطء على تأسس الامبراطورية الرومانية وتدعيمها بينما (اينياس) نفسه باعتباره الحاكم الأبوى لشعبه : قائدهم فى المعركة وواضع تشريعاتهم فى وقت السلم وكاهنهم الأعظم فى كل ما يتعلق بالشئون الروحية والدينية يمثل بوضوح شخصية (أوغسطس) مؤسس الدولة الجديدة ٠

والانيادة تتألف من اثنى عشر كتابا تحتوى على ما يقرب من ٩٨٩٦ بيتا ٠ فهى عمل ضـــخم جدا حتى ان الامبراطـــور قد علق عليه بأن (فيرجيل) عندما بدأ هذا العمل كان ولابد فى حالة من حالات ذهاب العقل ٠ تصف الكتب الستة الأولى تجوال أينياس ومغامراته بينما تصف الكتب الستة الثانية حروبه ومعاركه فكأن الملحمة الرومانية اذن تمثل ملحمتى (هومر) الاوديسا والالياذة كما انها تسير على منوالهما فى معظم أجزائها ٠

لقد افتتح فيرجيل ملحمته بالأبيات التالية :

« انى أتغنى بالسلاح وبالرجل الذى قدر له أن يكون أول من يأتى من شواطىء طروادة ويصل الى ايطاليا وساحل لافينيوم رغم انه كتب عليه ان يكون طريدا لقد قاسى ذلك الرجل وتعذب فى البر والبحر بقوة من السماء ، وذلك ارضاء لغضب جونو الذى لا يهدأ ولا يلين ، كما تحمل الكثير من المعارك الحربية قبل ان يتمكن من تشييد مدينة وتدعيم آلهته فى اقليم لايتوم ، وقد اتى من صلبه العنصر اللاتينى وسادة آلبا وروما ذات الأسوار الشامخة » ٠

وكما فعل (هومر) فى (الاوديسا) فعل (فيرجيل) أيضا فى (الانيادة) فلم يبدأ الأحـــداث منذ ســـقوط طروادة وبداية مغامرات (اينياس) بل بدأها وقد أوشك (اينياس) ان يصل الى غايته فقد كانت ايطاليا على مرأى البصر لولا (جونو) عدوة الطرواديين منذ حكم (باريس) بالتفاحة الذهبية لفينوس فقد كانت تعلم ان نهاية قرطاجة وهى أحب مدينة لديها ستكون على يد رجال من طروادة بعد أن يؤسسوا لأنفسهم امبراطورية أخرى جديدة أشد وأعظم ومن ثم فان (جونو) قد استطاعت أن تستميل (ايولوس) اله الرياح فيرســـل عاصـــفة هوجاء تعصف بأسطوله الذى جرفه التيار قريبا من ساحل أفريقيا الخطر ، ولكن نيبتونوس اله البحار أحس العاصفة فأدركه برحمته فجعل المياه تهدأ والأمواج تخلد الى السكون لقد غمر اليم ثلاثا من سفن (اينياس) ولكن البقية الباقية وصلت الى مواقع مختلفة من الشـــاطىء وفى اليوم التالى

توغل (أينياس) داخل البلاد يصحبه تابعه المخلص (اخاتيس) حتى وصل الى مدينة قرطاجة ، وفى الطريق تقابله أمه الالهة (فينوس) وكانت قد اطلعت من (جوبيتير) على المصير الرائع الذى قدر لمدينة (روما) فتخبره بأن (ديدو) هى حاكمة هذا الموطن الجديد فقد هربت من موطنها الأصلى (تيرى) بعد مقتل زوجها السابق (سيخايوس) لقد استقبلت الملكة (ديدو) البطل (اينياس) أحسن استقبال وأكرمت وفادته وأرسلت (فينوس) (كيوبيد) ليجعل (ديدو) تهيم غراما بحب (اينياس) وذلك بايعاز من (جونو) التى كانت تهدف الى استبقاء (اينياس) بجوار (ديدو) وبذلك لا يتحقق له ما كان مقررا أن يقوم به · وأثناء الوليمة التى أقامتها (ديدو) فى تلك الليلة اكراما لضيفها العزيز تطلب منه أن يصف لها سقوط طروادة ويحدثها عن جولاته ومغامراته ·

وفى الكتاب الثانى يبدأ (أينياس) الرواية فيتحدث عن سقوط طروادة وقصة الحصان الخشبى وكيف أن أمه (فينوس) أمرته بالفرار بصحبة أبيه (انخيسيس) وابنه اسكانيوس وهو نفسه ايولوس الذى قدر أن يكون مؤسس الأسرة اليولية ، أما زوجته (كريوسا) فقد تاهت عنهم وبينما كان يبحث عنها يقابله شبحها فقد ماتت ويفضى اليه انه قدر عليه ان يستقر فى بلاد الغرب ·

وفى الكتاب الثالث يتابع (اينياس) حديثه عن تجواله منذ ذلك اليوم بحثا عن الوطن الموعود فيصل أولا الى طراقيا ومنها الى كريت وبعدها الى بيروس ثم الى صقلية حيث مات أبوه (انخيسيس) ·

أما الكتـــاب الرابع فيعرض فيه (فيرجيل) علاقة (ديدو) مع (اينياس) · لقد مكث أينياس فى (قرطاجة) عدة شـــهور تحوطه (ديدو) برعايتها وتضره بحبها لقد باحت (ديدو) لأختها (آنا) بأنها على الرغم من قسمها بألا تتزوج أبدا بعد موت زوجها الراحل ، الا أنها تنهار يوما بعد يوم منذ وقعت تحت تأثير سحر (اينياس) وذات يوم بينما كانا فى رحلة صيد أرغمتهما ريح عاصفة أن يحتميا فى كهف حيث نسيا نفسيهما وشربا كأس الحب حتى الثمالة وحدث بينهما ما ظنته (ديدو) زواجا ، حدث كل هذا بتدبير من (فينوس) وموافقة (جونو) على استمرار هذا الحب حتى تظل الآلهتان فى أمن وسلام ولكن (جوبيتير) يرسل رسوله (ميركوريوس) ليذكر (أينياس) بواجبه ، يحاول أينياس أن يدبر أمر رحيله سرا حتى لا يؤلم (ديدو) ولكنها تكتشف الأمر فتتوسل اليه ألا يتركها وحيدة ولكن بلا جدوى ، فقد كان عليه أن ينفذ

ما أمر به (جوبيتير) وفي لحظة من لحظات اليأس والألم التى تسببها لوعة الفراق تقتل ديدو نفسها •

ان مشهد اللقاء الأخير بين (ديدو) واينياس من أروع ما كتب فرجيل لهذا رأينا ترجمته كنموذج من (الانيادة) رغم ان الترجمة بالطبع ستفقد المشهد الكثير من روعته وجمال أسلوبه :

٣٠٤ وأخيرا هاجت اينياس بهذه الكلمات :

« أيها الخائن أكنت تأمل أيضا انك تستطيع اخفاء مثل هذا الجرم البشع وترحل عن بلادى سرا ؟ ألا يمكن لحبنا وايدينا التى تشابكت ذات يوم وديدو التى ستموت ميتة قاسية أن تستبقيك ؟ ••• •

٣١٥ أتفر منى ؟ بحق هذه الدموع وبحق يمناك اذ لم يبق لى شيء آخر غيرك • يالى من بائسة ! بحق تعانقنا وبحق طقوس عرسنا التى ما تزال فى البداية لو كنت أستحق منك أى معروف أو كان لمعزتى عندك أى تقدير أشفق على بيت يتداعى • واذا كان ما يزال للضراعة أى مكان فانى اضرع اليك ان تطرد هذه الفكرة من رأسك !

فبسببك كرهتنى قبائل ليبيا وزعماء النوميدين • وبسببك أصبح التيريون أعدائى وبسببك أيضا ضاع حيائى وتحطمت سمعتى السابقة التى كنت أستطيع بها فقط أن أصعد الى نجوم السماء • لمن تتركنى عرضة للهلاك ، أيهـا •• الضيف ؟ اذ أن كلمـة زوج أيضا قد تضاءلت وانكمشت الى أين أمضى ؟ ••••••

٣٢٧ لو أنى على الأقل أنجبت منك قبل رحيلك ذرية ما • لو كان لى اينياس صغير يلعب فى أبهاء قصرى فيجعلك على الأقل تعود الى فى المستقبل لما بدوت أمامك بأية حال على هذه الصورة الذليلة الكسيرة ! » •

كانت قد تكلمت بينما بقى الآخر محدقا بعينه بناء على تعليمات جوبيتير وهو يخفى بين جنبيه هما دفينا يعمل على كبح جماحه وأخيرا يرد ردا مختصرا : « لن أنكر قط • أيتها الملكة أى شيءمن أفضالك التى يمكن أن تعديها كثيرة جدا ، ولن أمل من تذكر اليسا ، طالما انى ذاكر لنفسى ، وطالما أن أنفاس الحياة تدب فى هذه الأعضاء •

لتكن كلماتى قليلة لتناسب المقام انى لم أفكر قط فى ان احيط هذا الرحيل بطى من الكتمان • لا تتصورى هذا كما أنى لم أعرض عليك أبدا مشاعر الزواج أو أتيت لمثل هذه الارتباطات لو ان الأقدار سمحت لى بأن أشكل حياتى وفق هواى وان أعمل على حل مشاكلى بمحض رغبتى وارادتى لكان أول ما يحظى باهتمامى مدينة طراودة ورفات أصدقائى الأعزاء ،

ولظلت منازل بريام الشامخة قائمة ، ولعملت بيدى هذه على استرداد برجام لأبنائهم المنهزمين . أما الآن فقد أمرنى أبوللو سيد جرينيوم بأن استحوذ على ايطاليا العظيمة . ايطاليا مقر النبوءات الليلية هذا هو حبى وهذا هو وطنى وأنت باعتبارك فينيقية لو ان قلاع قرطاجة ورؤية المدينة الليبية قد استولت على نفسك فأى ضيم فى أن يستقر التيوكريون فى أرض أوسونيا ؟ فمن حقنا نحن أيضا أن نبحث عن ممالك خارجية . ان طيف أبى انخيسيس ينذرنى فى أحلامى ويخيفنى بنظرته المضطربة كلما خيم الليل على العالم بظلاله الندية وكلما طلعت النجوم المتوهجة (كما ينذرنى أيضا) الفتى اسكانيوس والاضرار التى نزلت برأسه العزيز الذى أوهمته بحكم هيسبيريا وبالأراضى الموعودة . وان رسول السماء أيضا الذى أرسله زيوس بنفسه ، واستشهد على ذلك برأسينا ، قد حمل الى تعليمات خلال الهواء المنطلق وقد رأيت الاله فى وضح النهار وهو يدخل الأسوار والتقطت صوته بأذنى هاتين .

أقلعى عن احراق روحى وروحك بشكاياتك فانى لا أتجه الى ايطاليا بمحض ارادتى » .

لقد كانت تحملق فيه شزرا طوال الوقت وهو يتكلم على هذا النحو وهى تجيل بعينها هنا وهناك وترمقه كله بنظراتها الصامتة ثم انفجرت فى اشتعال وقالت ما يلى :

« لم تكن أمك الهة . ولم يكن داردانوس أيها الغادر مؤسس عنصرك ولكنك جبلت من صخر أصم . اذ انجبتك جبال القوقاز المريعة وأرضعتك نمرات هيركانيه .

فلماذا أخفى الحقيقة ؟ ولأى مصائب أجل أدخر نفسى ؟ فهل يمكن أن نتصور ما هو أكثر مهانة من ذلك ؟ والآن فقط لا تنظر جونو العظيمة ولا أبوها ساتورنوس الى هذه الأمور بنظرة متعادلة .

ان الاخلاص لا أمان له على الاطلاق . لقد رحبت به عندما جاء الى الشاطىء شريدا طريدا وجعلته فى لحظة جنون شريكا لى فى الملك .

كما انقذت أسطوله من الضياع وبحارته من الموت .

ويلاه ! انى أتقلب محترقة بنار من الغيظ . والآن فان ابوللو كاشف الغيب والنبوءات الليلية ورسول السماء الذى أرسله زيوس بنفسه يحمل الآن الأوامر الخطيرة خلال الهواء .

هذا بالطبع هو كل عمل آلهة السموات العلى ! وهذا هو الهم الذى يقلق راحتهم انى لن استبقيك ولن أرد على ادعاءاتك .

اذهب لتحملك الرياح الى ايطاليا ولتبحث عن الممالك وسط الأمواج ٠

وانى اتمنى فى الواقع ان تتجرع كأس الشقاء وسط صخور البحر ٠

آه لو تستطيع قوى الآلهة الطيبة ذلك وآن تهتف باسم ديدو مرارا وتكرارا ٠

ورغم بعدى عنك فانى سوف اقتفى أثرك بالنيران المريعة (نيران آلهات الغضب) ٠

وعندما ينزع الموت البارد الروح عن أعضائى فان طيفى سيلاحقك فى كل مكان ايها الناكر للجميل سوف ينزل بك العقاب ٠

وسوف أسمع ذلك اذ ستصل الى الرواية حتى ولو كنت فى أعماق العالم الآخر » ٠

قالت هذه الكلمات وقطعت الحديث من منتصفه وانطلقت بسرعة وكأن مرضا أصابها ونأت بنفسها عن ناظريه واندفعت الى الخارج تاركة اياه وقد انعقد لسانه بخوف شديد وان كان يود ان يقول الكثير ٠

أما هى فقد انهضتها الوصيفات وحملن أعضاءها المنهارة الى حجرتها المرمرية وأرقدنها على السرير ٠

ولكن اينياس الطيب رغم انه يتوق الى أن يخفف من آلامها بالتسرية عنها الى ان يزيح عنها الهموم بكلماته فانه يئن أنينا موجعا ويضغط على قلبه المعذب بحبه العظيم ٠

٣٩٦ ــ ويعود الى الأسطول تنفيذا لأمر السماء ٠

أما الكتاب الخامس فهو يمثل مرحلة انتقال تخفف من حدة مأساة « ديدو » وتمهد لغموض وروعة الكتاب السادس ، كما أنه يقدم فرصة يحاكى فيها « فيرجيل » بعض المشاهدين « هومر » فقد خصص معظم هذا الكتاب لعرض الألعاب التى أقامها « أينياس » بعد عودته الى صقلية احتفالا بمرور عام على وفاة أبيه ٠

وينتهى الكتاب بانقاذ بعض سفن « أينياس » بمعجزة من الحريق الذى اشتعل فى الأسطول بايعاز من « جونو » وبغرق بالبينوروس مرشد سفينة « أينياس » كفدية لسلامة الآخرين ٠

ويبدأ الكتاب السادس بوصول « أينياس » الى ساحل ايطاليا ٠ وما أن يصل حتى يأخذ فى البحث عن العرافة « سيبيلا » فى « كوماى » ٠ ان « فيرجيل » فى هذا الكتاب يبدو أكثر غنى وثراء وأكثر استقلالا وبعدا عن النقل والتقليد فقد جمع « فيرجيل » فى هذا الكتاب كل ثمار دراسته وثقافته واطلاعه عن الأساطير والنبوءات والطقوس وعن التاريخ والفلسفة ووضعها جميعا فى تلك الصورة الخيالية الرائعة التى صـــور بها رحلة « أينياس » الى العالم الآخر كشف بها عن أحداث المستقبل ، هذا رغما من التشابه الظاهرى بين رحلة اينياس الى العالم الآخر فى انيادة « فيرجيل » ورحلة « أودويسيوس » فى الكتاب الحادى عشر من أوديسا « هومر » ٠

يتابع « اينياس » سيره مع الكاهنة حتى يمرا بالأرض المنعزلة التى يكتظ بها من علت شهرتهم فى الحرب ومن هنا يرى « اينياس » أسوارا عالية يحوطها نهر « فليجيثون » المتأجج وهذه الأسوار كما أخبرته الكاهنة هى أسوار « تارتاروس » ســـجن من حكمت عليهم الآلهـــة بالعذاب الأبدى ٠

وأخيرا يصـــلون الى مقر الصـــالحين حيث يلتقى بروح أبيـــه « أنخيسيس » الذى يكشف له عن سير الأمور فى العالم وعن وسائل التطهر التى تمكن البشر من السماح لهم بدخول مقر الصالحين كما يخبره أبوه بأنه من هذه الأرض البهيجة سيعود الى العالم الدنيوى بعد ألف سنة بعض الرجال الذين قدر لهم أن يكونوا هم الرومان العظماء ٠ ومن بين هؤلاء الرجال أحفاد « أينياس » نفسه ٠ ويصف له مغامراتهم فى عرض لتاريخ روما متضمنـــا الامبراطـــور « أوغسطس » وابن أخته وريثـــه « ماركيللوس » الذى اختطفه الموت وهو فى ريعان الشباب عام ٢٣ ق٠م ٠

وفى الكتاب السابع يعود « اينياس » الى رفاقه ويتابعون رحلتهم الى مصب نهر التيبر ، فينزلون باقليم « لاتيوم » الذى كان يحكمـــه « لاتينوس » وكان لهذا الحاكم ابنة تسمى « لافينيا » وكانت مخطوبة لتورنوس ملك الروتوليين الذى يسكنون احدى المقاطعات فى نفس الاقاليم ولكن كانت هناء نبوءة تعلن أن الفتاة لابد وأن تتزوج من أمير أجنبى ٠ عندئذ يبعث « اينياس » بسفارة الى « لاتينوس » فيستقبلها بالترحاب اذ أيقن أن « اينياس » هو زوج ابنته المرتقب وتنشأ بين الطرفين علاقات ودية ، ولكن الالهة « جونو » كانت للطرواديين بالمرصاد فتثير « تورتوس » الذى يقوم بتسليح أهل لاتيوم الذين اتحدوا مع الروتوليين لمحـــاربة الغزاة الدخلاء تعاونه فى ذلك « أماتا » زوجة « لاتينوس » وأم « لافينيا » الأمر الذى يضطر معه « لاتينوس » أن يعلن سخطه عليهم جميعا ويغلق القصر على نفسه ٠

أما الكتاب الثامن فنرى فيه ان « البلتيبر » الأب قد زار « اينياس » فى المنام وأمره بالسعى فى طلب معونة « افاندر » حاكم مدينة باللانتيوم وفى الصباح أسرع أينياس الى « افاندر » الذى صحبه فى رحلة حول الأرض المقدسة حيث قامت « روما » فيما بعد كما أراه الغابة الكابتيولينية الكثيفة التى جعل منها « رومولوس » فيما بعد محرابا للآلهة • وقد اقترح « افاندر » على « اينياس » أن يطلب معونة الاترسكيين الذين ثاروا ضد حاكمهم الطاغية « ميزينتيوس » واضطروه الى الخروج من بلادهم فلجأ الى « تورنوس » فقبل « اينياس » الاقتراح وخرج الى معسكر الاترسكيين يصحبه « بالاس » ابن « افاندر » وفى تلك الاثناء استطاعت فينوس ان تقنع زوجها « فولكانوس » ان يصنع لاينياس عدة حربية تتضمن درعا محفورا عليه عرض لبعض المشاهد المستقبلة من تاريخ « روما » حتى معركة « آكتيوم » •

وفى الكتاب التاسع تمكن « جونو » من اقناع « ايريس » الهة النزاع ان تذهب لتثير « تورنوس » حتى يعمل على انتهاز فرصة غياب « أينياس » ويقوم بالهجوم على معسكر الطروادين ويشعل النار فى معسكرهم ولكن « نيبتونوس » يحول السفن الى حوريات من عرائس البحر • وبناء على تعليمات « اينياس » التى كان قد تركها لأتباعه قبل رحيله ، يظل الطرواديون خلف الأسوار وفى اليوم التالى بدأ « تورتوس » الهجوم على الطرواديين من جديد وتمكن من اقتحام استحكاماتهم ولكنهم قطعوا عليه الطريق حتى انه تمكن من التقهقر بكل صعوبة •

وفى الكتاب العاشر نرى مجلس الآلهة منعقدا وقد ثار به جدل حاد بين « جونو » و « فينوس » حول مصير الحرب ولكن « جوبيتير » قرر ترك الأمر للاقدار وعلى كل فان « اينياس » تمكن من عقد محالفة مع « تارخون » قائد الاترسكيين الذين اعتلوا ظهر أسطولهم حتى وصلوا قريبا من معسكر الطرواديين رغم مجابهة « تورنوس » لهم ونشبت بين الفريقين معركة حامية أبلى فيها « باللاس » ابن « افاندر » بلاء حسنا ولكنه قتل فى النهاية بيد « تورنوس » فيثور « اينياس » ويثأر لمقتله بالقضاء على عدد غير قليل من أبطال الأعداء ولكن « جونو » تمكن من انقاذ « تورنوس » بابعاده عن الميدان فينازل « اينياس » « ميزينتيوس » ويقتله •

ويبدأ الكتاب الحادى عشر بعقد هدنة يتم فيها دفن جثث القتلى واقامة الطقوس الجنائزية لهم ثم يعقد اللاتين مجلسا لمناقشة الموقف الحربى حيث يقترح أحدهم وضع حد لهذه الحرب بأن ينازل « تورنوس » « اينياس » فى مبارزة فردية ولكن هذا الاقتراح لم يلق التأييد الكامل

أمام نصيحة « تورنوس » بضرورة محاولة القيام بمعركة أخرى وعلى كل فان هذا المجلس ينفض على عجل ، اذ وصلته أنباء بأن الطرواديين يهاجمون المدينة فيهرع الجميع الى القتال وعلى رأسهم « تورنوس » وبعد معركة طويلة يتراجع اللاتين الى مدينتهم في فوضى واضطراب ٠

وفى الكتاب الأخير تعقد هدنة أخرى بين الطرفين يتم خلالهما انهاء الحرب بمنازلة « اينياس » لتورنوس ولكن احـــدى العرائس وهى « جوتورنا » أخت تورنوس حرضت الروتوليين على خرق الهدنة بالقـــاء سهم على « اينياس فأصابه بجرح عميق ولكن « فينوس » جعلت الجرح يندمل فى الحال بينما شنقت « أماتا » نفسها لاعتقادها أن تورنوس قد لقى مصرعه ٠ وبعد ان صالح « جوبتير » « جونو » بقراره الذى يتضمن اتحاد الطرواديين مع اللاتين فى أمة واحدة اشتبك البطلان « اينياس » « وتورنوس » فى القتال وسقط « تورنوس » ، واذ هو فى النزع الأخير يطلب فى رخـــاء واستعطاف ان يرد جثمـــانه الى أبيه العجوز ٠ وكان « اينياس » على وشـــك أن يرق قلبـــه لهذا الموقف لولا أن رأى حزام « باللاس » حول وسط « تورنوس » عندئذ يصرخ صرخة مدوية ويهوى بسيفه فيقضى عليه بضربة قاتلة ٠

الملحمة الخالدة

بهذا تنتهى ملحمة « فيرجيل » الخالدة « الانيـــادة » التى ظلت تعتبر لقرون عديدة وعلى الأخص فى القرون الوسطى أعظم عمل أنتجته عبقرية انسان ولم تحظ أى أشعار أخرى على الأقل فى العالم الغربى بمثل ما حظيت به هذه الملحمة من شهرة واسعة واهتمام بالغ من رجال اللغة والأدب ٠ والواقع ان الانيادة والأشعار الهومرية رغم ما بينهما من تشابه كبير من ناحية الشكل يغرى دائما بعقد المقارنات بينها ، تختلف عن بعضها اختلافا كبيرا فى الروح والطبع حتى انه لا ينبغى كما اقترح أحد النقاد عقد المقارنات بينها ٠ فالأشعار الهومرية ثمرة نتاج عبقرية فطرية نظمها الشاعر ليتغنى بها أثناء الأعياد والاحتفالات التى كانت تقام فى العصور الأولى تمجيدا للأبطال العظام ، وهى تصف أناسا يعيشون تقريبا بنفس الطريقة التى كان يعيش بها من كتبت الأشعار فى عصرهم ٠ أما « الانيادة » فهى خلق فنى كتبها شاعر ينتظر الرعاية من الامبراطور ويتوقع النقد من « مايكنياس » وجماعته الأدبية ، وهى تحاول أن تضفى الروح على أشباح الماضى البعيد بحيث تبدو مقبولة لدى أناس يختلفون عنهم تمام الاختلاف فى كل شىء ٠ ومن ثم فان أهم ما يهـــم « هومر » ومستمعيه هو القصة والأحداث ويأتى الشكل الفنى فى المرتبة الثانية أما بالنسبة لفيرجيل وقرائه ، فان الصورة الفنية والأدبية فى المقام الأول وتأتى بعدها حقيقة أحداث القصة ٠٠

واذا شئنا أن نفهم الانيادة على حقيقتها ونقدرها التقدير الذى هى جديرة به كان علينا ان نتذكر فى كل قسم من أقسامها أن فيرجيل لم يكن يكتب رواية خيالية ، بل كان يكتب لروما كتابا مقدسا • وليس ذلك لأنه يقـدم لها شريعة دينية واضحة فان الآلهة التى تسـير الحـوادث فى تمثيليته من وراء الستار لا تقـل خبثـا من آلهـة هومر وان لم تكن قريبة من البشر الفكهين قرب هؤلاء بل ان لا نعدو الحقيقة اذا قلنا ان كل ما فى القصة من شر وشقاء ليس منشؤه من فيها من رجال ونساء بل منشؤه الآلهة أنفسها ، وأكبر الظن أن فيرجيل لم يكن يرى فى أولئك الأرباب الا أنها أدوات لشعره ورموز للظروف الظالمة المستبدة والحادثات المفاجئة التى تخل بسير العالم المنتظر الرتيب وهو على العموم يتذبذب بين جوف رب الأرباب وبين القدر اللا شخصى فهذا يسيطر على الكائنات تارة وذلك يسيطر عليها تارة أخرى ، وآلهة القرية والحقل أحب اليه من آلهة أوليس فهو لا يترك فرصة تتاح له الا مجد الأولى ووصف طقوسها ومراسمها وتمنى لو استطاع الناس أن يعودوا الى ما كانوا عليه من حب الآباء والوطن والآلهـة وهو الحب الذى كانت تغذيه العقيدة الريفيـة البدائية : « أسفى على تقوى الأقدمين وايمانهم » غير انه لا يؤمن بالفكرة القديمة عن الجحيم حيث يحشر الموتى جميعا الصالح منهم والطالح ، بل تخالجه أفكار أرفية (٦) فيثاغورية عن تجسيد الأرواح بعد الموت وعن الحياة فى الدار الآخرة وهو يوضح الى أقصى حد يستطيعه فكرة الثواب فى الجنة والمطهر والعقاب فى الجحيم •

لكن الحقيقى فى الانيادة هو دين الوطنية ، والهها الأعظم هو روما فمصير روما هو المحرك لحبكة القصة وكل ما فى القصة من محن وشدائد انما يرجع الى « الواجب المضنى واجب بعث الشعب الرومانى والشاعر فخور بالامبراطورية فخرا يمنعه أن يحسد اليونان على تفوقهم فى الثقافة ويقول فى ذلك : « فلتحول الشعوب الأخرى الرخام والبرنز الى شخوص حية لترسم مسارات النجوم » •

« أما أنت يا ابن روما فواجبك ان تحكم العالم وستكون فنونك أن تعلم الناس طرائق السلم وأن تشفق على الذليـل وتذل الفخور » •

وفيرجيل لا يأسف على موت الجمهورية وهو يدرك أن حرب الطبقات هى التى قضت عليها ولم يقض عليها قيصر وهو فى كل جزء من أجزاء قصيدته يبشر بأن حكم أغسطس سيعيدها سيرتها الأولى ويرحب به ويصفه بأنه حكم زحل قد عاد الى الأرض ويعده بأنه سيجزى على عمله بأن يحشر فى زمرة الأرباب • وقصارى القول أن أحدا من الناس لم يوف بما ألقى على كاهله من واجب أدبى بأكمل مما وفى به فرجيل •

ويبقى بعد ذلك أن نسأل : لم نحتفظ بحبنا الشديد لهذه الدعاوي للتقى وصالح الأخلاق وحب الوطن والنعرة الإمبراطورية ؟ ان من أسباب هذا الحب مانجده في كل صفحة من ورقة روح الشاعر وظرفه ، وأنا نشعر بأن عطفه قد امتد من ايطاليا بلاده الجميلة الى جميع بني الانسان بل الى جميع الكائنات الحية فهو يدرك آلام الطبقات العليا والدنيا ويعرف أهوال الحرب وما يصحبها من فحش ورذيلة ولا ينسى أن أنبل الناس أقصرهم آجالا وأن ما في الحياة من أحزان وآلام وما في « الأشياء من دموع » تذهب ببهجة الأيام تارة وتزيدهـــا تارة أخرى · وهو حين يكتب عن « العندليب الذي يبكي في الظلام شجرة الحور فقد صغاره التي أبصرها الحرات فانتزعها من عشها قبل أن يكسوها الريش فيقضي الليل كله ينتحب ثم يجثم على فنن ويعيد أغنيته الحزينة ويملأ الغابة بها وبعويله » نقول انه حين يفصل هذا لا يقلد لكريشيوس فحسب وان الذي يجذبنا نحو فرجيل مرارا وتكرارا هو ما في حديثه من جمال لاينقطع أبدا ولم يكن عبثـــا منه ان ينكب على كل سطر من سطوره « فيلعقه بلسانه ليسويه ويصقله كما تلعق الدبة ديسمها » · ولن يستطيع أحد غير القارىء الذي حاول الكتابة أن يتصور ما عاناه الشاعر من التعب حتى أكسب قصته ما فيها من نعومة وسلاسة وزينها بكثير من الفقرات ذات الأنغام القوية الرنانة التي تطالعنا في كل صفحتين من الكتاب وتغرى القلم باقتباسها واللسان بالنطق بها ولعل القصيدة مفرطة في جمالها المتناسق المتماثل لأن جمال اللفظ نفسه يمل اذا أفرطت فصاحته في الطول · وفي فرجيل ســـحر نسائي ولكننا لانطالع فيه قط ما نجده في شعر لكريشيوس من رجولة وقوة التفكير كما لانجد فيه تلك الأمواج الصاخبة التي نراها في ذلك « البحر المتلاطم العجاج » المسمى هومر · ونحن نبدأ نفهم ما يعزى الى فرجيل من حزن واكتئاب حين نتصوره يدعو الى عقائد لم يكن في وسعه قط ان يستعيدها في نفسه ويقضي عشر سنين في ما يحتاج اليه الفن المصطنع من جهود ثم يموت والأفكار تساوره بأنه عجز عن تحقيق غرضه وأن خياله لم ينره وميض من الابداع والابتكار وأنه لم يبعث في أشخاصه نسمة الحيـــاة · ولكن أحدا لايجادل في ان الشـــاعر قد انتصر نصرا مؤزرا على أداته ان لم يكن قد نال هذا النصر نفسه على موضـــوعه · وقلما بلغت الصناعة ذلك الحد الأعلى من الاعجاز الذي بلغته في شعر فرجيل ·

وبعد عامين من وفاته أخرج منفذو وصيته قصيدته الى العالم وقام بعضهم يعيبها ويسفهها : فنشر أحد النقاد ثبتا طويلا بعيوبها ، ونشر غيره ثبتا آخر بما فيها من سرقات وأصدر ثمانية مجلدات محتوية على ما بين شعر فرجيل والشعر القديم من شبه ولكن روما سرعان ما نسيت

هذه الشيوعية الأدبية فوضع هورانس فرجيل فى مستوى هومر ونشأت مدارس أدبية بدأت بها قرون تسعة عشر ، وظل الناس فيهما يحفظون الانياذة عن ظهر قلب وظل الناس جميعهم خاصتهم وعامتهم يهتفون باسمه والصناع والتجار يقتبسون من شعره وشواهد القبور والجدران تنقش عليها عبارته ومتنبئو الهياكل يجيبون السائلين بعبارات غامضة يقتطعونها من أبيات ملحمته وبدأت من ذلك الوقت تلك العادة التى لم تنقطع الى عصر النهضة عادة فتح ملحمة فرجيل فتحا عشوائيا للبحث عن نصيحة أو نبوءة فى أول فقرة تقع عليها عين الفاتح • وانتشر صيته حتى كان يعد فى العصور الوسطى من السحرة والقديسين • كيف لا وهو الذى تنبأ فى النشيد الرابع بمجيء المنقذ ووصف روما فى الانيادة بالمدينة المقدسة التى ستخرج منها قوة الدين وتنتشل العالم مما يتخبط فيه ؟ ألم يصور فى الكتاب السادس الرهيب يوم الحشر وعذاب المذنبين وتطهيرهم فى نار المطهر ونعيم الصالحين فى الجنة ؟ لقد كان فرجيل أيضا كما كان أفلاطون ذا روح دينية طبيعية رغم آلهته الوثنية وكان دانتى يعجب بعذوبة شعره ولم يكن يسترشد به فى وصف الجحيم والمطهر فحسب بل كان يسترشد به أيضا فى تدفق فنه القصصى وجمال حديثه ، وكان ملتون يفكر فيه وهو يكتب الفردوس المفقود وخطب الشياطين والآدميين الطنانة الرنانة ، وكان فولتير – وهو الذى كنا نتوقع أن يكون أقسى مما كان فى الحكم على فرجيل – يصف الانيادة بأنها أجمل ما خلفه لنا الأقدمون من تراث أدبى •

الموطأ

مالك بن أنس

٧٨٥م

انطـلاق الفـــكر

كان العرب والمسلمون من المجلين في ميدان العلوم الفقهية ، وقد امتازوا بغزارة الانتاج فى هذه العلوم وبالتعمق فى التحليل وبالمقدرة على الاستنتاج والاستقراء والتخريج والتفرغ • فبنوا بذلك بناء متينا كاملا من التشريع وتراثا ثمينا شاملا من القواعد الكلية والضوابط العامة والأحكام الفرعية التفصيلية •

وقد ساعدهم على ذلك أمور أهمها تعدد الأدلة التشريعية وتعدد القضايا الطارئة وتأثير قواعد الدين والأخـــلاق ، فالأدلة الشرعيـــة التى أعدها الفقهاء من أدلة نقلية مبنية على نص القرآن الكريم أو الســـنة الشريفة الى أدلة عقليـــة مبنية على القياس والاجمـــاع والاستحسان والاستصلاح والاستدلال ، كلها وسائل مرنة للبحث العلمى وللاجتهـاد المنتج • وكذلك ساعد الفقهاء تعدد القضايا الطارئة التى نجمت عن توسع الدولة بالفتوحات وعن تغيير الأحـــوال والعوائد والحاجـات • أما تأثير قواعد الدين والأخلاق فناتج عن شمول علم الفقـــه للعبادات والمعاملات جميعا فقد اقترنت من جراء ذلك فكرة العدالة بفكرة الاحسان واتصف القضـــاء بالرحمة والتيسير وبنزاهة الايمان ونصـــفه الخـير المطلق ، وهكذا جاءت الشريعة الاسلامية شريعة انسانية خالدة مرنة تساير حاجات الزمان وضرورات الحياة الاجتماعية •

وقد استتبعت هذه الأمور تعددا فى العلوم الفقهية وفى المذاهب والمؤلفات والمؤلفين فالعلوم الفقهية شـــملت علم التفسير وعلم مصطلح الحديث وعلم الفروع ، وشمل علم الفروع والعبادات والأحكام القانونية ثم انقسمت هذه الأحكام الى معاملات وعقوبات ومناكحات ومخاصـــمات وسير وأحكام سلطانية •

وكذلك تعددت المذاهب وانقسمت الى مذاهب سنية ومذاهب شيعية ثم انقسمت الأولى الى مذاهب أهل الحديث ومذاهب أهل الرأى ومذاهب متوســـطة بين هذه وتلك • فاشـــتهر منهـــا المذهب الحنفى والمالكى والشافعى والحنبلى • ثم تعـــدد العلماء والفقهاء من أتبـــاع هذه المذاهب

وكثرت تآليفهم كثرة تكاد تفوق الحصر وبقيت كنزا يحوى من الجواهر الفكرية ما يستحق ان يعد من مفاخر العرب والمسلمين وأن يخلد ذكرهم على مر الدهور ٠

كان الداخل الى المسجد النبوى فى منتصف القرن الثانى الهجرى يرى رجلا طويلا مسنون اللحية أشقر الوجه جميل الثياب جليل المنظر فيه مهابة وله وقار ولعينيه بريق ينفذ الى القلوب ، يجلس فى أكبر حلقة علمية فى ذلك التاريخ ، ذلك الرجل هو مالك بن أنس رضى الله عنه قد أتاه الله تعالى بسطة فى العلوم والجسم والخلق وقد اختار ان يكون درسه فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ثالث المساجد التى تشد اليها الرحال ، واختار ان يكون موضع جلوسه فى المكان الذى يجلس فيه عمر بن الخطاب فى قضائه وتدبيره شئون الدولة وفتاويه للناس ٠ وكان أيضا مجلس شـــوراه الخاصـــة الذى يتشاور فيه مع على بن أبى طالب وعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وعبد اللـــه ابن مسعود وزيد بن ثابت ومعاذ بن جبل وغيرهم من فقهاء الصحابة وذوى الرأى منهـــم ٠

مالك ٠٠ ومكانته ومهابته

وقد تحدث أهل المدائن والأمصار باسم مالك وكانت فتاويه تنشر وتذاكر فى مصر والشام وبلاد المغرب كلها ، وكان فى الأندلس الامام الذى لا يذكر بجواره امام حتى كان أهل الأندلس يستسقون بقلنسوته اذ يتخذونها بركة ويضرعون الى الله أن تمطر السماء وهم حاملون لها ٠ وقد كان له سلطان فى المدينة يصل الى سلطان الولاة بها ، وان لم تكن له ولاية ٠ ولقد قال بعض الشعراء فى وصفه :

يأبى الجواب فما يراجع هيبـــة والسائلون نواكس الأذقـــــان

أدب الوقار وعز سلطان التقى فهو المطـــاع وليس ذا سلطـان

ان تلك المكانة ما جاءته عفوا بل لها أسباب من نشأته ومن جهوده ومن شيوخه ومن شخصه ثم ما أفاض على الناس من علم غزير واستنباط فقهى سليم وادراك لمصالح الناس وعلم بالقرآن والسنة وتنقيح الرواية ونقدها بدراية عميقة مدركة ٠ وقد عاش فى عصر ماجت فيه فتن كموج البحر وكان هو يركب سفينة النجاة ولا يخوض فيهـــا ، ويستنقذ العلم والفقه والدين بشخصه القوى الذى لا يفرض عليه أمر الا ما كان من أمر الله ونهيه ٠

من بيت على بالحديث والفتاية !!

لقد ولد امام دار الهجرة على أرجح الروايات سنة ٩٣ ــ بعد أن استتب الأمر لبنى مروان · وهو ينتمى الى ذوى أصبح ، وهم قوم من اليمن وقد أسلم قومه فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وكان أهل بيته يعنون بالحديث واستطلاع أخبار الصحابة وفتاويهم ، وقد توارثوا الفتاية بذلك خلفا عن سلف فجده مالك بن أبى عامر كان من كبار التابعين ، روى عن عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وأم المؤمنين عائشة ، وقد روى عنه بنوه ومنهم أنس أبو الامام ولكن أنسا هذا لم يشتهر بالرواية كما اشتهر عماه ربيع ونافع المكنى بأبى سهيل ·

وبهذا يتبين أن مالكا رضى الله عنه قد ولد فى أسرة اشتهرت بالرواية ونشأ بين رواة محدثين وكان الفقه الى ذلك الابان مختلطا بالحديث فلم يكن قد تميز عنه فالرواة يروون فتاوى الصحابة ويطبقونها على الحوادث التى تقع بين ظهرانيهم ويستفتون فيها ·

ولذلك اتجه الامام مالك بعد أن حفظ القرآن كشأن كثيرين من المؤمنين وبعد ان تفصح بالعربية الى طلب علم الرواية ، ومع علم الرواية الفقه ·

مدينة العلم والرواية

وقد كانت البيئة العامة كبيئتة الخاصة توجهه نحو المعرفة وطلب الرواية فقد ولد وعاش بمدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومهاجره الذى هاجر اليه ومنزل الشرع الاسلامي ومعقد حكم الاسلام الأول ، اذ كانت قصبة الدولة الاسلامية فى عهد أبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم أجمعين ·

وقد كان بها فى عهد الفاروق عمر رضى الله عنه كل فقهاء الصحابة أو جلهم أبقاهم بجواره ليتعرف الرأى القويم من آرائهم وجعل من كبارهم شوراه الخاصة وقد خرج بعضهم منها بعده ولكنهم عادوا اليها بعد أن كانت الفتن والحروب بين المسلمين اذ وجدوا فيها الموئل والمثابة والأمن ·

وكذلك قصدها التابعون الذين كانـــوا يريدون فقه الصحابة الذين لم يجاوزوا حدود المدينة أو آبوا اليها بعد أن خرجوا منها ·

ولقد كانت للمدينة تلك المنزلة العلمية فى العهد الأموى وكانت مهد السنن والفتاوى المأثورة حتى لقد كان الحاكم العادل عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه يكتب الى الأمصار يعلمهم السنن والفقـــه ويكتب الى أهل المدينة يسألهم عما مضى ويعمل بما عندهم وكتب الى أبى بكر بن حزم من علماء التابعين بالمدينة أن يجمع له السنن ويكتب بها اليه ولكنه توفى قبل أن يتم له ما أراد وهو تعميم فقه التابعين بالمدينة فى كل الأمصار ·

هذه هى البيئة التى عاش فى ظلها مالك وتلك أسرته وكلتاهما تنمى فيه النزوح الى العلم والاتجاه اليه · ولقد كان له بجوار هاتين البيئتين هاد مرشد يدفع ويسدد ولكنه لايظهر فى كثير من الأحوال ، وهو أمه فقد كانت ذات رأى صائب وفكر مستقيم ، وكانت تشرف على توجيه مالك حتى شب عن الطوق · بل انهـا كانت تختار له شيوخه وترشده الى ما يأخذه من كل واحد منهم لينال من كل شيخ ما عنده فكانت تقول له وهو يذهب الى ربيعة الرأى أحد شيوخه : « اذهب الى ربيعة فتعلم من علمه قبل أدبه » ! وقد كان ربيعة فقيها ذا رأى عميق واستنباط دقيق وله لسان فصيح ، ولعلها رضى الله عنها كانت ترى فى لسانه بعض النبوءات كشأن كثيرين من ذوى الفصاحة فحذرت ولدها فى عبارة رقيقة من أدبه ·

وبهذا التوجيه الكريم والبيئة الخاصة الهادية والبيئة العامة التى تمكن طالب العلم من أن يرد موارده انصرف مالك الناشىء الى العلم وذهب الى مصادره من التابعين رواة أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقضيه الصحابة وفتاويهم وأقبل على ذلك باخلاص وجد ودأب ·· كان يذهب الى شيوخه فى كل وقت لايمنعه حـــر ولا برد ولقد روى عنـــه انه قال :

« كنت آتى نافعا (مولى عبد الله بن عمر) نصف النهار تظللنى شجرة من الشمس أتحين خروجه فاذا خرج أدعه ساعة كأنى لم أره ثم أتعرض له فأسلم عليه وأدعه حتى اذا دخل أقول له كيف قال ابن عمر فى كذا كذا فيجيبنى ثم احبس عنه ، وكان فيه حدة » ·

ولقد كان ينتهز كل فرصة ليخلو الى الشيخ الذى يريده حيث لا ضجة لا صخب ولنتركه يتحدث الينا عن قصته فى تتبع الزهرى الذى كان يسميه (بحر العلوم) فهو يقول :

« شهدت العيد فقلت هذا يوم يخلو فيه ابن شهاب فانصرفت من المصلى حتى جلست على بابه فسمعته يقول لجارته : انظرى من بالباب

فسمعتها تقول : مولاك الأشقر مالك قال : أدخليه فدخلت فقال : ما أراك انصرفت بعد الى منزلك !! قلت : لا · قال : هلا أكلت شيئا ؟ قلت : لا · قال : فما تريد ؟ قلت : تحدثني · قال : هات فأخرجت ألواحي فحدثني بأربعين حديثا فقلت : زدني ، قال : حسبك ، ان كنت رويت هذه الأحاديث فأنت من الحفاظ · قلت : قد رويتهـا فجبذ الألواح من يدي ثم قال : حدث ، فحدثته بهـا ، فردها الى وقال : « قم فأنت من أوعية العلم » ·

شباب يافع ·· لكنه وقور !

اتجه هذا الاتجاه الى طلب العلم مع صفة لازمته من وقت ان كان غلاما الى ان صار اماما ، وهي حبه للوقار والاتزان ، وقد مر وهو يافع بأحد شيوخه هو أبو الزناد ، فوجده يحدث في مزدحـم وكان المكان ضيقا فلم يجلس ولم يستمع ولما التقى به من بعد قال له الشيخ عاتبا : ما منعك أن تجلس الى ؟ فقال الشاب الوقور الذى يجل السنة : « كان المكان ضيقا فكرهت ان أكتب حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا قائم » ·

وقد تلقى من شيوخ كثيرين فقد كان في مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي معـدن العلم ، واليها أوى التابعون أو جلهم في عهـد الأمويين والذين اختاروا غيرها مقاما كانوا يجيئون اليها الوقت بعد الآخر لزيارة الروضة الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم ·

وكان في هذا يتلقى أحاديث الرسول من أصحابه الذين شاهدوا وعاينوا وتلقوا التنزيل وتفسيره من صاحب الرسالة عليه السلام · وكان ينتقى الثقات من أهل الرواية وأهل الدراية وهو يقول : « ان هذا العلم دين ، فانظروا عمن تأخذون منه · لقد أدركت سبعين ممن يقولون قال رسول الله ، عند هذه الأساطين » وأشار الى المسجد ، « فما أخذت عنهم شيئا · وان أحدهم لو أؤتمن على بيت مال لكان أمينا ، الا أنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن » ·

وبعد أن وعى مالك القوى الفكر والخلق والدين ، ما أدركه من علم أهل عصره ، اتجه عند نضجه في السن والعقل الى الدرس واختار ان يكون مجلس درســه هو المجلس الذى كان يجلس فيه الامام عمر رضى الله عنه وكان من حسن الاختيار انه كان يسكن في المنزل الذى كان ينزل فيه عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فالعلم كان يظل فكره في المكان ، كما كان يظله في كل أعماله وكل الأزمان ·

وعندما جلس للدرس ، قسم درسه قسمين أحدهما لرواية الحديث والثانى للفقه ، ويسميه المسائل لأنه ما كان يتكلم فى الفقه الا فيما يسأل عنه من وقائع تقع ·

وكان فى درســـه يبتعد عن الغلو ، مع أنه لم تكن فيه جفوة ولا خشونة · وقد قال بعض تلاميذه كان اذا جلس معنا كأنه واحد منا ، يتبسط معنا فى الحديث ، وهو أشد تطامنا منا له ، فاذا أخذ فى حديث رسول الله تهيبنا كلامه كأننا ماعرفناه ولا عرفنا !!

ومع انه كان المهيب فى عامة أحواله ، فانه فى درسه كان يخص الحديث بسمت خاص يلتزمه ، فكان اذا حدث توضأ وتهيـــأ ، ولبس أحسن ثيابه ··

ولما مرض انتقل درسه الى بيته ومع ذلك كان للدرس سمته ووقاره · يحكى أحد تلاميذه أنه عندما انتقل درسه الى داره : « كان اذا أتاه الناس خرجت اليهم الجارية ، فتقول لهم : أتريدن الحديث أم المسائل ؟ فان قالوا المســائل خرج اليهم فأفتاهم · وان قالوا الحديث قالت لهم : اجلسوا ودخل مغتسلة فاغتسل وتطيب ولبس ثيابا جددا وتعمم · وتلقى له المنصة ولم يكن يجلس على المنصة الا اذا حدث ·

الموطأ وتصنيفه

فى الكتاب مجموعة من الحديث النبوى وأقوال الصحابة وفتاوى التابعين ومن بعدهم تمس شئون الحياة ونظمها حتى منتصف القرن الثانى الهجرى ــ أواسط القرن الثامن الميلادى ·

ويبدو أن تسمية « الموطأ » كانت تعبيرا عن الحاجة العلمية والعملية الى مؤلفات ميسرة سهلة يجد فيها الناس حاجتهم من الأحكام القانونية العامة والخاصة التى يطمئنون الى مطابقتها للتوجيه الدينى الذى يقدم القرآن خطوطه الكبرى ويتولى الرســـول عليه الســلام بيــانه ويحتفظ أصحابه منه بما رأوا وسمعوا وتلقوا ·

ولهذا سميت مجموعات متعددة باســـم « الموطـأ » ونازعت مالكا رحمه الله أولية هذا الصنف من التدوين كما شاركته فى الاسم أيضـا فقيل مثلا : ان أبا الوليد عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج فقيه مكة المتوفى سنة ١٥٠ هـ هو صاحب أول كتاب صنف فى الاسلام كما كان لابراهيم بن أبى يحيى معاصر مالك ومنافسه المتوفى سنة ١٨٤ هـ موطأ أضعاف موطأ مالك لكن موطأ مالك من بينها هو الذى كتب له البقاء وصار

أساسا لبناء مدرسة فقهية عاشت حتى اليوم وذلك لأسباب دينية وعاطية واجتماعية ·

ولو أجمعنا القول في ذلك لقلنا : ان الموطأ يحتوى ما انتهى الى مالك مما كان يسمى لعهده « العلم » ويرد فى عبارته وعبارات معاصريه بلفظ العلم وهو علم نقلى مروى طريقه تلقى الخالف عن السالف · ويبدو ان هذا العلم النقلى الدينى كان فى ذلك العهد جملة متصلة الأجزاء متداخلة الأقسام لم تتميز فروعها بالأسماء التى عرفت بعد ذلك من علم الحديث وعلم التفسير وعلم الفقه والكلام والتصوف وكذلك احتوى « الموطأ » من ذلك ما لو نظرت اليه على ضوء التقسيم الأخير لكان فنونا مختلفة قد يكون الطابع الفقهى أبرزها والمحتكم فى جمعها وفى ترتيبها كذلك ·

وقد صنف الموطأ أبوابا هى أبواب الفقه الأخيرة أو أقرب ما تكون اليها بعناوينها وبترتيبها كثيرا أو مع شيء من المخالفة ففيه الأبواب التى ترى أخيرا فى كتب الفقه تحت عنوان « العبادات » مع شيء من مغايرة الترتيب اذ بدأ الموطأ بكتاب « وقوت الصلاة » على حين تبدأ كتب الفقه بعد ذلك بكتاب الطهارة ·

وفى الموطأ بعد ذلك أبواب الفقه الأخرى غالبا ، من المعاملات والحدود والفرائض ـ المواريث ـ والأقضية وما الى ذلك ، وان اختلف ترتيب هذه الأبواب عما استقر بعد في كتب الفقه التي جعلت تلتمس النكت والمناسبات لترتيب تلك الأبواب ، كما تختلف تلك الأبواب توزيعا فى الموطأ عما فى كتب الفقه التالية أيضا ·

فتجمع ما يكون قد فرقه مالك فى أكثر من باب أو تتوسع فى بعض الأبواب ·

ويلى تلك الأبواب أو الكتب كتاب عنوانه « كتاب الجامع » يستهلك نحو ١١٪ من صفحات الموطأ : وفيه فنون من الأعمال والمعارف المختلفة من اجتماعية عملية الى خلقية سلوكية بينها كلامية اعتقادية مما يتحقق به من ان العلم فى ذلك العصر كان يؤلف تلك المجموعة المتداخلة التى لما تتميز حدود أقسامها ·

وهناك علوم اسلامية قد ظهرت بعد ذلك بفعل الزمن واتصال الثقافة الاسلامية بثقافات الأمم السالفة فكانت تلك العلوم مظهر نمو وتقدم نحو مستوى عقلى خاص كعلم أصول الفقه ، فانك لا تجد فى الموطأ الصورة الواضحة لهذا العلم مثلا ·· لكنك تجد ملامح مقررات له قد أخذت صورة القواعد بعد ذلك فقاعدتهم « ان الضرورات تبحن المحظورات » تجدها فى

الموطأ بقول مالك : واذا كانت الضرورة فان دين الله يسر ـ الموطأ بشرح السيوطى المسمى تنوير الحوالك ج ١٢ ص ١١٢ ـ كما ترى قاعدة « لا ضرر ولا ضرار » أكثر من مرة بلفظها ـ المرجع السابق ٢ : ٢١٨ و ٣ : ٢٨ ٠

وما يتقرر بعد تفصيل من سد الذرائع نرى نواته فى مثل قول مالك : لأنه ذريعة الى الربا وتخوف ان يدار ذلك على هذا الوجه ـ المرجع نفسه ٢ : ١٦٤ ـ وهكذا يقف الموطأ فى تاريخ العلم الدينى موقفا تمثل فيه أتم التمثيل صورة العلم الدينى بالحجاز فى تلك الفترة التى ظهر فيها من عقود القرن الثانى الهجرى ٠

مادة الموطـــأ :

وفى هذا تجد ان الحديث بمعناه الخاص من قول أو فعل أو تقرير هو العنصر المتميز فى مادة الكتاب والطابع الظاهر الذى يسلك الموطأ من أجله فى كتب السنة والمجموعات الحديثية ٠ والحديث هو الذى يصدر به الباب المعنون بتلك العناوين التى ظلت تحملها كتب الفقه لكن مع الحديث أو السنة أو الأثر ـ على اختلاف الاصطلاح فى ذلك ـ مواد اخرى من فتاوى الصحابة وعملهم وقولهم ، ومن فتاوى التابعين وعملهم كذلك ٠ والى جانب ذلك فتاوى مالك فيما سئل فيه وقوله فيما يفهم من الحديث وما يعلق به على المنقول من القول أو الفعل وأحب مايكون من ذلك اليه وأعجبه عنده وأحسنه لديه ٠ وهو بهذا الوضع مطابق للخطة التى روى : أن مالكا رسمها حينما أتى بما ألفه معاصره عبد العزيز بن عبد الله بن أبى سلمة الماجشون الفقيه المدنى ـ المتوفى سنة ١٦٦ هـ ـ وقد عنى الماجشون فى تأليفه بما اجتمع عليه أهل المدينة وذكره بغير حديث فقـــال مالك : « ما أحسن ما عمل ، ولو كنت أنا الذى عملت ابتدأت بالآثار ، ثم شددت ذلك بالكلام » ، وكذلك رأيناه فعل فيما عرضنا من المثل السابق وكانت عنايته بالآثار سبب احتساب الموطأ فى أصول السنة حتى الآن مع منزلته الفقهية وصفته الواضحة فى ذلك ٠

وفيما ألم به الموطأ من شئون الحياة فى عصره وقبل ذلك العصر فى حياة الرسول عليه السلام وحياة الصحابة ، بل فيما عرض له من أحداث الحياة فى الجاهلية وما أحدث فيها الاسلام من تغيير واصلاح ٠٠ وفى كل ذلك ما يجعل للموطأ مكانا واضحا وأثرا بارزا فى فروع من الثقـــافة الاسلامية غير الفروع الدينية البحتة وهو ما نقف هنا وقفة خاصة لبيان مكان الموطأ فى تلك الفروع مع ما عرفنا له من مكانتـــــه فى الاسلاميات بخاص معناها ، من شريعة ، وخلق ، وعقيدة ، فنتحدث عن :

الموطأ .. فى اللغة والأدب :

ويختلف الرأى فى الاحتجاج على اللغة بالحديث فقوم يجيزون ذلك وآخرون يمنعون وقوم يتوسطون فيجيزون شيئا ويمنعون شيئا لكن اذا ذكر « الموطأ » بالذات حق على من يمنع الاحتجاج للغة بالحديث أن يقدر فى « الموطأ » أشياء :

منها : انه نص ظهر فى حدود العصر الذى يحد به زمن الاحتجاج وهو منتصف القرن الثانى الهجرى .

ومنها : انه فى ميدان الحديث طليعة مبكرة ، تهيأ لها مع تقدم الزمن ، بيئة خاصة حجازية ، قد تكون اللغة فيها ذات تأثر بالبيئة التى فيها بقية من السلف المقدر لما يقول ويعلم ، وجها من التقدير على رغم تغير الحال .

ومنها : انه نص قد نقل متحريا ، الى حد كبير وعلى قدر ما احتملت دقة المنهج النقلى لعهده وقد يدعو ذلك الى شىء من الحرص فى التعبير حتى حينما تكون الرواية بالمعنى .

ولكل أولئك وغيره ، من أمر هذا « الموطأ » يتريث من ينكر الاحتجاج بالحديث فى تعميم هذا الانكار على الموطأ أيضا ، ثم يجىء مع ذلك ما لمالك صاحب الموطأ من شأن فقد تختلف الرواية عن مدى فصاحته هو نفسه فينقل انه كان يلحن ، وأن الأصمعى لذلك قال : « ما هبت عالما قط ما هبت مالكا حتى لحن فذهبت هيبته من قلبى » ، لكن الأصمعى عينه يثبت لمالك عليه مشيخة لغوية حين يقول : « أخبرنى مالك أن الاستجمار هو الاستطابة ولم أسمعه من غير مالك » .. وصاحب الموطأ ينبغى مع كل اعتبار أن تقدر فى مدى فصاحته أشياء :

منها : أنه من أهل هذا العصر المتقدم الذى عرف لرجال العلم الدينى فيه شأن لغوى وأدبى ، فالشافعى هو من هو فى الميدان اللغوى وهو تلميذ مالك والأوزاعى له شأن فى الحياة الأدبية وهو معاصر مالك ونظيره فى الشام ، فروح العصر العامة التى اعتبرته عصر احتجاج لغوى بوجه ما ، والروح الخاصة التى جعلت لرجال الحديث هذه المشاركة مما ينبغى تقديره عند الحديث عن الموطأ واللغة ، ثم يؤازر ذلك ما يروى ــ ولو كان من المناقب ــ أن مالكا أول من تكلم فى غريب الحديث لأن هذا الكلام عناية لغوية فى نشاط أصحاب الحديث ومالك فوق كل ذلك مجتهد لابد له من العلم باللغة علما يهيىء له استثمار الأحكام من النصوص ــ كما يقولون ــ .

ولكل ذلك من أمر الموطأ ومؤلفه نقدر ما للموطأ من أثر فى الثقافة اللغوية وان نصوصه فى هذا الميدان تثبت وتنفى أو ترجح وتؤيد على أقل تقدير ·

وانه ينبغى أن ينظر فيه من هذه الناحية نظرا أكثر اهتماما من النظر الى ما تأخر عنه من مجموعات الحديث أو كتب الفقه فسيرى الناظر فيه من اللغويات أشياء مثل :

اشباع تاء المخاطبة حتى تنشأ من ذلك الاشباع ياء واضحة على نحو ما نقول الآن فى لغة الحياة ، ويتكرر ذلك فى مواضع من الموطأ منها :

حديث مالك عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم فيما لايجوز من النحل — أى الاعطاء بلا عوض — وأن أبا بكر الصديق كان نحلها جاد عشرين وسقا من ماله بالغابة فلما حضرته الوفاة كان مما قال لها بشأن هذا النحل « فلو كنت جددتيه واخترتيه كان لك » فتشبع التاء على ما ترى من الفعلين حتى يكون بعدها ياء وترسم هكذا واضحة فى نسخ الكتاب ·

ومن ذلك أيضا حديث مالك فى باب ما جاء فى أكل الضب من كلام الرسول عليه السلام فى بيت ميمونة بنت الحارث وقوله لها من حوار طويل ما عبارته : « أرأيتك جاريتك التى كنت استأمرتينى فى عتقها أعطيتها أختك وصلى بها رحمك » باثبات تلك الياء التى أشرنا اليها فهذه النصوص الحديثة — ولاسيما فى الموطأ على ما نبين — تسند حكاية يونس عن ان اثبات هذه الياء لغة وتهز انكار الأصمعى لهذه اللغة وتؤيد جعل هذه الياء فى كلامنا اليوم من صحيح العامية على ما ذكره ابن الحنبلى فى كتابه بحر العلوم فيما أصاب فيه العوام ، واحتج له بحديث آخر وهذان الحديثان يزيدان الحجة تأييدا ·

وهكذا يجد الدارس اللغوى فى الموطأ مثل تعبير : « لا هاء الله اذن » ومعناه ، واختلافات أهل العربية بشأنه ووصفهم عمل رواة الحديث فيه وتفسير معانيه وبيان أوجه اعرابه ووقوف من وقف من اللغويين الى جانب رواة الحديث وهو ما لانجد المكان للخوض فى شىء منه وانما نسوقه مثلا لما للموطأ ، بما هو نص له زمان ومكان وظروف خاصة تجعله فى البحث اللغوى شيئا متميزا عما بعده من مراجع حديثية متأخرة عن عصر الاحتجاج ·

واذا ما جاوزنا اللغة بمتنها ونحوها وما يتصل بذلك الى الأدب وأساليبه وثروته من النصوص الفصيحة وقفنا عند الموطأ وقفة كتلك الوقفة فى المجال اللغوى اذ نشعر أن الموطأ بجامعه ، وعصره ، وبيئته ،

وعمله فى الفهم والتخريج يكون بكل أولئك مادة لصاحب الدرس الأدبى يجد فيها من النصوص الأدبية ما يجد من خطب وكتب وعبارات حوار وصيغ تقرير يظفر فيها من الطابع العربى الخالص بما يحفظه ويأنس به كما يجد فى ثنايا هذه النصوص من أعلام الأشخاص والأماكن والوقائع ما يتكامل مع سائر مراجع الأدب فى ذلك · ومن الخير لدارس الأدب فى هذا العصر أن يعرج على هذا الموطأ بما هو نص نثرى منقول نقلا دقيقا يمثل ضربا من الاسلوب الأدبى تلتمس فيه خصائص الأســـاليب فى ذلك الوقت المبكر وتقرر به الصلة التى هدى اليها البحث فيما بين أصحاب هذا العلم الدينى وأصحاب القلم والنثر الأدبى الخاص فى هذا العهد ·· ولا مجال هنا لأكثر من هذه الاشارة اللافتة التى يتولى اتمامها صاحب الدرس الأدبى مستفيدا من الرجوع الى هذا الموطأ فائدة ليست بقليلة ·

الموطأ فى التاريخ والسيرة :

واذا ما نظرنا الى التاريخ فى أول صورته حين بدأ عند القوم نوعا من الحديث وسدادا لما أعوزت اليه الحاجة الماسة ، من معرفة سيرة الرسول عليه السلام وتتبع أحواله استقصاء للسنة بما هى مصدر التشريع ومأخذ الأحكام · ففى هذه الحال يكون الموطأ وثيق الصلة بالتاريخ وبالسيرة لأنه ليس الا مجموعة مبكرة لحديث الرسول وأقوال الصحابة ·· الخ ومن هنا تجد فيه فصولا من السيرة مثل ما جاء فى سائر أبواب الكتاب من قول للرسول وفعل ليس الا شيئا من تاريخه وسيرته يرجع اليه من يريد استيفاء تلك السيرة ·

ولكن مكان الموطأ فى التاريخ والسيرة لايتحدد بهذا المفهوم الأول للتاريخ ، والقصد الأول من السيرة بل حين تتطور النظرة الى التاريخ والسيرة حتى تبلغ المستوى الحالى الآن من العمق والدقة واتخاذ المنهج المحرر المحقق الملائم لمستوى المعرفة اليوم فيظل للموطأ مكانه بين المصادر التى يرجع اليها المؤرخ الدارس بمعنى الكلمة بل نحتاج الى ان نلفت ذلك الدارس الحق الى قيمة هذا المرجع المهم فيما يقصد اليه من درس الحياة العربية قبل الاسلام فى كيانها الداخلى ونظامها الاجتماعى الذى يعنى به المؤرخ الجدير بهذا الاسم وتعوزه المصادر فيه · كما يفيده ذلك الموطأ فى فهم الصلات الخارجية لهؤلاء العرب بمن حولهم من الأمم وهى صلات نادرة المصادر ·· فاذا كان الاسلام وصـــدره الأول ففى الموطأ بأسبقيته وأقدميته مجموعة قيمة فى وصف تلك الحياة فى ميادينهـــا المختلفة من دينية وعلمية وسياسية واقتصادية وغيرها ، فأما السيرة فتلك المجموعة من أقوال الرسول وأفعاله مصدر مباشر تفصيلى لهذه السيرة يمتاز عما سواه من مصادرها الأخرى ·

الموطأ .. والمذهب المالكى

لما حج المنصور اجتمع بالامام مالك وأشار اليه بأن يدون فى كتاب ما ثبت عنده من مسائل العلم فألف كتاب الموطأ فى الحديث والفقه . فلما جاء المهدى حاجا سمعه منه وأمر له بخمسة آلاف دينار ثم رحل اليه الرشيد مع أولاده وسمعه منه وأغدق عليه الخير الكثير . ويظهر أن الموطأ وقع من نفس الرشيد موقع الاعجاب ولهذا حاول ان يعلقه فى الكعبة ويحمل الناس على ما فيه لولا أن راجعه فى ذلك الامام مالك .

روى أبو نعيم فى الحلية عن مالك ابن أنس قال : « شاورنى هارون الرشيد فى ان يعلق الموطأ فى الكعبة ويحمل الناس على ما فيه فقلت : لا تفعل فان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اختلفوا فى الفروع وتفرقوا فى البلدان ، وكل مصيب فقال : وفقك الله يا أبا عبد الله » .

وقد روى الموطأ عن مالك كثير من العلماء ورواه عنه محمد بن ادريس الشافعى ومحمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة . ومن أجل أصحابه الذين تفقهوا عليه ورووه عنه عبد الله بن وهب وعبد الرحمن بن القاسم وقد صحبه كل منهما نحو عشرين سنة وقد دونا مذهبه مع غيرهما من أصحابه ونقلوه الى أمصار الاسلام ثم نقله عنهم غيرهم ممن تلقاه عنهم من العلماء ، وهكذا أخذ ينتشر حتى غلب على مصر وأفريقيا والأندلس والمغرب الأقصى فى الغرب كما غلب على البصرة وبغداد وغيرها من بلاد المشرق .

وبنى الامام مذهبه على الأصول الأربعة : الكتاب والسنة والاجماع والقياس .

وذكر ابن خلدون انه اختص بمدرك آخر للاحكام ، وهو عمل أهل المدينة لأنه رأى أنهم فيما ينفسون عليه من فعل أو ترك متابعون لمن قبلهم ضرورة لدينهم واقتدائهم ، وهكذا الى الجيل المباشرين لفعل النبى صلى الله عليه وسلم الآخذين ذلك عنه .

وأول من أدخل فقه مالك الى مصر عثمان بن الحكم الجزامى من أصحاب مالك المصريين ، وعبد الرحيم بن خالد بن يزيد بن يحيى مولى جمح ، وكان فقيها روى عنه الليث بن سعد وابن وهب ورشيد بن سعد وتوفى بالاسكندرية سنة ١٦٣ هـ . ثم نشره بمصر عبد الرحمن بن القاسم وأشهب بن عبد العزيز وابن عبد الحكم والحارث بن مسكين ومن فى

طبقتهم فاشتهر بها أكثر من مذهب أبي حنيفة لتوافر أصحاب مالك بها .

ولم يزل مذهب مالك مشتهرا بمصر حتى قدم اليها محمد بن ادريس الشافعي ونشر مذهبه بها فشارك مذهب مالك في الشهرة والذيوع وصارت المذاهب الثلاثة - الحنفي والمالكي والشافعي - تتداول القضاء بمصر حتى غلب الفاطميون عليها ، فأبطلوا العمل بمذاهب أهل السنة . وفي زمن الدولة الايوبية عاد مذهب مالك الى الظهور وبنيت لفقهائه المدارس .. ففي سنة ٥٦٦ هـ بنى لهم صلاح الدين المدرسة القمحية وفي سنة ٦٤١ هـ رتب الصالح نجم الدين أيوب في مدرسته الصالحية بالقاهرة دروسا أربعة للمذاهب الأربعة .

ثم كثر هذا النوع من المدارس بعد ذلك . ثم في دولة المماليك البحرية جعل الظاهر بيبرس القضاة أربعة بعد ان كان القضاء مقصورا على الشافعية في الدولة الايوبية ومن ثم عاد القضاء للمذهب المالكي .

ومع ان القضاء قصر على الحنفية في الدولة العثمانية ، فان مذهب مالك بقي حافظا مركزه في الشهرة والذيوع الى الآن وأكثر انتشاره في الصعيد .

وكان أهل الأندلس ملتزمين مذهب الأوزاعي ، أدخله بها صعصعة بن سلام لما انتقل اليها وبقي مذهبه غالبا بها حتى أدخل مذهب مالك الى الأندلس زياد بن عبد الرحمن القرطبي الملقب بشبطون بعد أن لقي الامام مالكا وأخذ عنه فقهه وذلك في زمن هشام بن عبد الرحمن (١٧١ - ١٨٠ هـ) فمن ثم أخذ مذهب مالك في الانتشار والتغلب على مذهب الأوزاعي .

وشبطون أول من أدخل الموطأ الى الأندلس مكملا متقنا ، وقد تلقاه عنه يحيى بن يحيى بن كثير وبعد أن أخذه عنه حج وسمعه من الامام مالك الا أبوابا منه ثم أخذ عن ابن وهب وابن القاسم وغيرهما كثيرا من العلم وعاد الى الأندلس فاشتهر أمره وتفقه عليه كثير من أهل الأندلس واختص به الحكم بن هشام الملقب بالمنتصر (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) ، فنال من الرياسة والسلطان ما لم ينله غيره .

وصارت الفتيا اليه فكان لا يقلد قاض في جميع أعمال الأندلس الا باشارته واعتنائه ، ولا يقلد الا من كان على مذهب مالك فاتبع الناس مذهبه وتركوا مذهب الأوزاعي ولم تنته المائة الثانية من الهجرة حتى أخذ مذهب الأوزاعي في الزوال ثم لم يلبث أن تقلص ظله بالأندلس وساد المذهب المالكي .

ويظهر أن ثلاثة أسباب اجتمعت فكان لها أكبر اثر في انتشار مذهب مالك بالأندلس وسيادته في أرجائها :

الأول : ما ذكر في نفح الطيب وغيره من ان الأمير هشام بن عبدالرحمن قد نقل اليه ما عليه الامام مالك من سعة العلم وجلالة القدر والتقوى ، وانه عندما سمع بسيرته من بعض الأندلسيين قال لهم : « نسأل الله ان يزين حرمنا بملككم » فأحب مالكا ومذهبه وحمل الناس على اتباعه ·

الثاني : ما حصل في زمن الحكم بن هشام من تمكن يحيى بن يحيى منه ، وجعله القضاء والافتاء في الأندلس مقصورين على المالكية · فقد جعل هذا الناس يتفقهون على مذهب مالك رغبة فيما عند السلطان من الوظائف وحرصا على طلب الدنيا ·

لأنه ما كان يتولى الفتيا أو القضاء في المدن والقرى الا من تسمى بالفقه على مذهب مالك · وقد جرى العامة اثر الخاصة في ذلك اتباعا لأحكام القضاة وفتاوى العلماء ·

والثالث : أن أهل الأندلس كانت تغلب عليهم البداوة وأهل الحجاز كانوا كذلك · ولما كان مذهب مالك قد نشأ في وسط الحجاز ولم يأخذه تنقيح الحضارة وتهذيبها كان أوفق لطبيعة الأندلسيين ومزاجهم الفطري·

وكان الغالب في أهل أفريقيا المذهب الحنفي الى ان ولي سحنون بن سعيد التنوخي قضاء أفريقيا بعد أسد بن الفرات فنشر فيها مذهب مالك وصار القضاء في أصحابه · ولما تولى المعز بن باديس على أفريقيا عام ٤٠٧ هـ حمل أهلها وأهل ما ولاها من بلاد المغرب على المذهب المالكي وترك ما عداه من المذاهب الأخرى فاستمرت له الغلبة على أفريقيا وعلى سائر بلاد المغرب ·

وفي زمن دولة بني تاشفين بالمغرب الأقصى والأندلس ، كان علي بن يوسف بن تاشفين — ثاني أمرائهم (٥٠٠ — ٥٣٥) يقدم أهل الفقه ويؤثرهم على غيرهم ، ولم يكن يقرب منهم ويحظى عندهم الا من كان عنده علم مذهب مالك · وكان لا يقطع أمرا في جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء بألا يبتوا حكومة في صغير الأمور وكبيرها الا بمحضر أربعة من الفقهاء ، فنفقت في زمنه كتب مذهب مالك وعمل بمقتضاها ونبذ ما سواها·

وفي زمن دولة الموحدين بالمغرب جمع الناس على مذهب مالك في الفروع عبد المؤمن بن علي ثاني خلفائهم (٥٢٤ — ٥٥٨ هـ) · ولكن في زمن حفيده يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن (٥٨٠ — ٥٩٥ هـ) انقطع علم الفروع وأمر باحراق كتب مذهب مالك بعد أن جرد ما فيها من القرآن والحديث ، فأحرق منها جملة في كافة البلاد ، كمدونة سحنون ، وكتاب

ابن يونس ، ونادر بن أبي زيد ومختصره ، والتهذيب للبرادعي . وواضحة ابن حبيب ، وغير ذلك من الكتب ، وأمر بجمع أحاديث من الصحيحين والترمذي والموطأ وسنن أبي داود والنسائي والبزار والدارقطني والبيهقي ومسند ابن أبي شيبة في الصلاة وما يتعلق بها · فكان يملي هذا المجموع بنفسه على الناس ويأخذهم لحفظه ويجعل لمن يحفظه الجعل السني من الكسى والأموال ·

وكان على مذهب أهل الظاهر ، ولهذا عظم أمر الظاهرية في مدته بالمغرب ولكنهم كانوا معمورين بالمالكية ·

وعلى الرغم مما حصل فان مذهب المالكية بقى غالبا في بلاد المغرب الأقصى ولايزال كذلك الى اليوم وهو الغالب أيضا على الجزائر وتونس وطرابلس ·

هذا ما كان من شأن مذهب مالك في المغرب · أما في المشرق ، فقد نقل الى بغداد وظهر بها ظهورا واضحا وزاحم فيها مذهب أبي حنيفة · ولكن أنصاره صاروا قلة بعد القرن الرابع ، ونقل أيضا الى البصرة وبقى بها الى القرن الخامس ثم ضعف شأنه بها ، ولايزال له بقية من مقلديه في بلاد العراق الى الآن · كذلك مقلدوه على قلة اليوم في أرض الحجاز · وقد انتشر باليمن ثم تلاشى ·· وهو المذهب الغالب الآن في أرض الكويت وقطر والبحرين وأكثر أهل السنة في الاحساء مالكية وحنابلة ·

أما في مصر فيغلب على أهل الصعيد ، كما انه غالب على أهل السودان ·

ويقرر الأقدمون جيلا بعد جيل ، أن مالكا لم يشتهر عنه غير الموطأ ، فهو الذي واظب على اسماعه وروايته ، وحذفه منه ، وتلخيصه له ، شيئا بعد شيء حتى آخر حياته ·

وقد كانت العناية به منذ القرن الثاني الى اليوم تناسب هذا الاشتهار ، فبدأ ذلك بروايته وتلقيه وتعددت لذلك نسخه حتى بلغت أربعة عشر أصلا في الأقاليم المختلفة ، يمثل كل أصل رواية ناقل خاص عنه ، وكان من هؤلاء الناقلين من له شأن في مدرسة فقهية أخرى كمحمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة المعروف ·· وروى الموطأ عن مالك رواة لم ينفردوا بنسخ خاصة وقد بلغ عدد هؤلاء كثرة كاثرة ، وفي ذلك كله دلالة على الاهتمام ·

وتلا هذا التلقي النشط اجتهاد حافل بدراسات منوعة في الموطأ استمرت الى عصرنا من شروح كثيرة الى شروح لشيء منه كالشواهد ، الى عناية خاصة برجاله وحالهم الى تتبع لاختلاف الموطئات الى كذا وكذا

مما لو حاولنا سرد شيء منه لاستغرق صفحات ، وقد ضاع من ذلك ما ضاع وبقى منه كثير وصلنا .

وقد طبع من تلك الدراسات ما طبع فى المشرق والمغرب ولايزال يطبع منه جديد وجديد .

ومما قيل شعرا فى مدح « الموطأ » هذه الأبيات لسعدون الوارجينى :

اذا أحببت أن تدعى لدى الناس عالما ... فلا تعد ما تحوى من العلم «يثرب»
أتترك دارا كان بين بيوتها ... يروح ويغدو وجبرئيل المقرب ؟
ومات رسول الله فيها ، وبعده ... بسنته أصحابه قد تأدبوا
وفرق شمل العلم فى تابعيهم ... فكل امرىء منهم له فيه مذهب
فخلصه بالسبك للناس « مالك » ... ومنه صحيح فى المجس وأجرب
فبادر موطأ مالك قبل موته ... فما بعده ان فات للحق مطلب
ودع للموطأ كل علم تريده ... فان الموطأ الشمس ، والغير كوكب
ومن لم يكن كتب الموطأ ببيته ... فذاك من التوفيق بيت مخيب
جزى الله عنا فى موطأه مالكا ... بأفضل مايجرى اللبيب المهذب
لقد فاق أهل العلم حيا وميتا ... فصارت به الأمثال فى الناس تضرب

العقد الفريد

ابن عبد ربه

٩٣٠ م

احمد بن عبد ربه والعقد الفريد

ان أحمد بن محمد بن عبد ربه عاش نيفا وثمانين عاما فى الأندلس بمدينة قرطبة مولدا ووفاة بين عامى ٢٤٦ ــ ٣٢٨ هـ أى انه عاش النصف الأخير من القرن الثالث وأكثر قليلا من الربع الأول من القرن الرابع ، فقد عاش اذن فى الفترة التى كانت الأندلس تبنى فيها شخصيتها العربية الاسلامية ، وذلك بالاقبال على العلم والدرس والتحصيل اعتمادا على العلوم والمؤلفات الوافدة بكثرة ووفرة من المشرق العربى والاسلامى .

ولقد عاش أحمد بن عبد ربه ناسكا فى محراب العلم عاكفا على أسباب الثقافة متحلية بالخلق والدين والورع بحيث أجمع كل من أرخ له انه كان أهل علم وأدب ورياسة وشهرة مع ديانة وصيانة وكان موضعا لاحترام الملوك الأندلسيين الكبار .

وقد كان ملوك الأندلس جميعا وبغير استثناء يحترمون العلماء ويضعونهم موضعهم من الاجلال والتقدير والاحترام ، ذلك لأنهم كانوا ملوكا مثقفين على علم وأدب ، وفى نفس الوقت كان العلماء متحلين بأخلاق العلم لابسين ثوب الحشمة والوقار غير متهافتين على المناصب ولا مترخصين فى سلوكهم ولا متهاونين فى كراماتهم ، الأمر الذى جعل الملوك يحترمونهم ويخشون نقدهم ويتحاشون جانب الاعتداء عليهم بل انهم كانوا يستمعون منهم الى النقد العنيف اذا ماندت بدوة من ملك أو سقطة من سلطان فلا يملك هذا الملك أو ذاك على جليل ملكه ورفعة شأنه الا الطاعة للعالم والامتثال لنصائحه .

ان أحمد بن عبد ربه عاش فى هذا المحيط ونال التكريم من ثلاثة ملوك كبار عاصرهم وعايشهم ومدح مواطن المدح فيهم وهم : المنذر بن محمد ابن عبد الرحمن الأوسط الذى قال عنه المؤرخون انه لم يكن أحد من الخلفاء قبله فى شجاعته وصرامته وحزمه وعزمه ، وعبد الله بن محمد ابن عبد الرحمن الأوسط الشجاع الأديب الباطش الشديد التواضع ، وعبد الرحمن الناصر أشهر ملوك الدنيا وأسعدهم حظا وأطولهم فترة حكم .

لقد مدح ابن عبد ربه هؤلاء الملوك الثلاثة بل لقد ضمن كتابه « العقد الفريد » شعرا طويلا فى التأريخ لانتصارات الناصر لدين الله ، ومن ثم فقد كان الرجل على ولاء شديد واعجاب أشد بهؤلاء الملوك الذين تحلوا بالأدب واتصفوا بالشجاعة وتجملوا باحترام العلم واجلال العلماء ٠

وابن عبد ربه يبدو شخصية واضحة المعالم من ناحية علمه وأدبه وخلقه وسلوكه فى آثاره الأدبية والعلمية التى تركها بين يدى الدارسين والمؤرخين والمتأدبين وهذه الآثار تتمثل فى شعره وفى كتابه « العقد الفريد » ٠

فأما ابن عبد ربه الشاعر فان مكانته بين شعراء الأندلس تأتى فى الصدارة رغم ان الدارسين المحدثين لم يعنوا بذلك وربما كان السبب فى ذلك هو ضياع شعر الأديب الكبير الذى كان مجموعه فيما يذكر الحميدى نيفا وعشرين جزءا هى جملة ما جمعه الأدباء من شعره للحكم المستنصر الذى فتن بالكتب فأنشأ مكتبة كبيرة فريدة فى ترتيبها وتنسيقها بين مكتبات ذلك الزمان ٠

على ان المهم فى شعر ابن عبد ربه ليس الكم والعدد ولكنه الكيف والفن والتجديد فقد تواترت الأخبار الأدبية وبخاصة عند ابن بسام صاحب « الذخيرة » ان أحمد بن عبد ربه هو أول من أنشأ « الموشحات » ٠

ان أحمد بن عبد ربه يعتبر على كل حال – فى نطاق الخبر الذى أورده عنه ابن بسام واحدا من رواد الابداع والتجديد فى الشعر الأندلسى بل ان ابن سعيد وهو من هو فى تاريخ أدب الأندلس يقول عنه انه : « امام أهل المائة الرابعة وفرسان شعرائها فى المغرب كله » ٠

عقول الناس مدونة فى أطراف أقلامهم !!

فاذا ما عرضنا لكتاب ابن عبد ربه من عنوانه وجدناه صورة من صاحبه فالتسمية تسمية ناعمة « العقد الفريد » جمعت الى خيال الشاعر واقع الأدب وقد قصد المؤلف الى هذه التسمية قصدا فهو قد تصور كل باب من أبواب الكتاب جوهرة من جواهر العقد فى جيد الحسناء ، وعقد الحسناء يتكون من خمس وعشرين حبة ثمينة لكل واحدة منها اسم فى اللغة والعرف وأثمنها عادة هى الحبة الوسطى التى يكون عن يمينها اثنتا عشرة حبة وعن يسارها مثلها ٠ والحبة الوسطى تسمى الواسطة ومن هنا شبه كل شىء نفيس بين أقرانه بواسطة العقد أى الأفضل بينهم فاذا تصورنا عقدا فى جيد حسناء فان أثمن حبة هى الواسطة وكل حبة عن

اليمين أو اليسار هي على الترتيب : المجنبة ، ثم المسجدة ، ثم اليتيمة ، ثم الدرة ، ثم الزمردة ، ثم الجوهرة ، ثم الياقوتة ، ثم المرجانة ، ثم الجمانة ، ثم الزبرجدة ، ثم الفريدة ، ثم اللؤلؤة وعلى هذا النسق اذا أردنا أن نتصور العقد بشكل أوضح تكون كل من الحبتين الأوليين في طرفي العقد اللؤلؤة والحبتين اللتين تليانهما الفريدة وهكذا حتى نصل الى الواسطة ٠

وابن عبد ربه كصاحب مؤلف ضخم قضى في تأليفه وجمعه وتنسيقه وتبويبه سنوات طوالا لم يفته شأن كل مؤلف عربي نابه ان يقدم لقارئه منهاج كتابه وهو منهج يخضعه صاحبه للمنطق العلمي ويقنع به القارىء ويتلمس لذلك الأسباب من قول الحكماء والبلغاء ضاربا المثل بأقوال لجعفر البرمكي الأديب وكلثوم بن عمرو العتابي الحكيم البليغ ويورد ابن عبد ربه أخباره ورواياته بدون اسناد في أكثر الأحيان ويتوقع ان ذلك النهج سوف يثير تساؤلات القارىء اللبيب الحصيف لأن العرب قد ألفوا أن يردوا كل حديث الى مصدره وكل خبر الى منبعه عن طريق الاسناد الصحيح فيعد المؤلف اجابة بارعة التعليل على هذا التساؤل المتوقع وهكذا نلمس في الرجل منهج العالم وذكاء الأديب فلنستمع اليه يقدم كتابه وموضوعاته على النهج الذى رسمه والوضع الذى اختاره والنسق الذى تصوره :

« وقد ألفت هذا الكتاب وتخيرت جواهره من متخير جواهر الآداب ومحصول جوامع البيان ، فكان جوهر الجوهر ولباب اللباب ، وانما لى فيه تأليف الأخبار ، وفضل الاختيار ، وفرش في صدر كل كتاب ، وما سواه فمأخوذ من أفواه العلماء ، ومأثور عن الحكماء والأدباء ، واختيار الكلام الصعب من تأليفه ٠ وقد قالوا : اختيار الرجل وافد عقله ٠

وقال الشاعر :

قد عرفناك باختيارك اذ كا ن دليلا على اللبيب اختياره

وقال أفلاطون : « عقول الناس مدونة في أطراف أقلامهم ، وظاهرة في حسن اختيارهم » ٠

فتطلبت نظائر الكلام وأشكال المعاني وجواهر الحكم وضروب الأدب ونوادر الأمثال ثم قرنت كل جنس منها الى جنسه فجعلته بابا على حدته ، ليستدل الطالب للخبر على موضعه من الكتاب ونظيره في كل باب ٠

وقصدت من جملة الأخبار وفنون الآثار أشرفها جوهرا وأظهرها رونقا وألطفها معنى وأجزلها لفظا وأحسنها ديباجة وأكثرها طلاوة وحلاوة آخذا بقول الله تبارك وتعالى : « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » ٠

وقال يحيى بن خالد : الناس يكتبون أحسن ما يسمعون ويحفظون أحسن ما يكتبون ويتحدثون أحسن ما يحفظون ٠

وقال ابن سيرين : العلم أكثر من أن يحاط به فخذوا من كل شيء أحسنه ٠

وفيما بين ذلك سقط الرأى وزلل القول ولكل عالم هفوة ولكل جواد كبوة ولكل صارم نبوة ٠

وفى بعض الكتب : انفرد الله تعالى بالكمال ولم يبرأ أحـد من النقصان ٠ وقيل للعتابى هل تعلم أحدا لا عيب فيه ؟ قال : ان الذى لا عيب فيه لا يموت أبدا ولا سبيل الى السلامة من ألسنة العامة ٠
وقال العتابى : من قرض شعرا أو وضع كتابا فقد استهدف للخصوم واستشرق للألسن الا عند من نظر فيه بعين العدل وحـكم بغير الهوى وقليل ما هم ٠

وحذفت الأسانيد من أكثر الأخبار طلبا للاستخفاف والايجاز وهربا من التثقيل والتطويل لأنها أخبار ممتعة وحكم ونوادر لا ينفعها الاسناد باتصاله ولا يضرها ما حذف منها ٠

وقد كان بعضهم يحذف أسانيد الحديث من سـنة متبعة وشريعة مفروضة فكيف لا نحذفه من نادرة شاردة ومثل سائر وخبر مستطرف وحديث يذهب نوره اذا طال وكثر ٠

سأل حفص بن غياث الأعمش عن اسناد الحديث فأخذ بحلقه واسنده الى حائط وقال هذا اسناده !

وحدث ابن السماك بحديث فقيل له ما اسـناده ؟ فقال : هو من المرسلات عرفا ٠

وروى الأصمعى خبرا فسئل عن اسـناده فقال : هو من الآيات المحكمات التى لا تحتاج الى دليل وحجة ٠

وحدث الحسن البصرى بحديث فقيل له : يا أبا سعيد عمن ؟ قال : وما تصنع بعمن يابن أخى ؟ أما أنت فنالتك موعظة وقامت عليك حجته ٠

وقد نظرت فى بعض الكتب الموضوعة فوجدتها غير متصرفة فى فنون الأخبار ولا جامعة لجمل الآثار فجعلت هذا الكتاب كافيا شافيا جامعا لأكثر المعانى التى تجرى على أفواه العامة والخاصـة وتدور على ألسنة الملوك والسوقة ٠ وحليت كل كتاب منها بشواهد من الشعر تجانس الأخبار فى معانيها وتوافقها فى مذاهبها ، وقرنت بها غرائب من شعرى ليعلن الناظر

في كتابنا هذا ان لمغربنا على قاصيته وبلدنا على انقطاعه حظا من المنظوم والمنثور .

وسميته كتاب (العقد الفريد) لما فيه من مختلف جواهر الكلام مع دقة السلك وحسن النظام وجزأته على خمسة وعشرين كتابا كل كتاب منها جزآن فتلك خمسون جزءا فى خمسة وعشرين كتابا قد انفرد كل كتاب منها باسم جوهرة من جواهر العقد فأولها :

كتاب اللؤلؤة فى السلطان .

ثم كتاب الفريدة فى الحروب ومدار أمرها .

ثم كتاب الزبرجدة في الأجواد والأصفاد .

ثم كتاب الجمانة فى الوفود .

ثم كتاب المرجانة فى مخاطبة الملوك .

ثم كتاب الياقوتة فى العلم والأدب .

ثم كتاب الجوهرة فى الأمثال .

ثم كتاب الزمردة في المواعظ والزهد .

ثم كتاب الدرة فى التعازى والمراثى .

ثم كتاب اليتيمة فى النسب وفضائل العرب .

ثم كتاب العسجدة فى كلام الأعراب .

ثم كتاب المجنبة فى الأجوبة .

ثم كتاب الواسطة فى الخطب .

ثم كتاب المجنبة الثانية فى التوقيعات والفصول والصدور وأخبار الكتبة .

ثم كتاب العسجدة الثانية فى الخلفاء وتواريخهم وأيامهم .

ثم كتاب اليتيمة الثانية فى أخبار زياد والحجاج والطالبيين والبرامكة .

ثم كتاب الدرة الثانية فى أيام العرب ووقائعهم .

ثم كتاب الزمردة الثانية فى فضائل الشعر ومقاطعه ومخارجه .

ثم كتاب الجوهرة الثانية فى أعاريض الشعر وعلل القوافى .

ثم كتاب الياقوتة الثانية في علم الألحان واختلاف الناس فيه ·

ثم كتاب المرجانة الثانية فى النساء وصفاتهن ·

ثم كتاب الجمـــانة الثانيـــة فى المتنبئين والممرورين والبخـــلاء والطفيليين ·

ثم كتاب الزبرجدة الثانية فى بيان طبائع الانسان وسائر الحيوان وتفاضل البلدان ·

ثم كتاب الفريدة الثانية فى الطعام والشراب ·

ثم كتاب اللؤلؤة الثانية فى النتف والهدايا والفكاهات والملح » ·



تأليف مقسم على عدة فنون فى خمسة وعشرين كتـابا انفرد كل كتاب باسم جوهرة من جواهر العقد ، بحيث ان كلا منها سميت باسم التى تقابلها من الجانب الآخر وبذلك تكون أولى جواهر العقد وأخراه على اسم واحد : ففى العقد لؤلؤتان وزبرجدتان وياقوتتان وجمانتان وهلم جرا · ولعل من الخير أن نذكر جدولا كاملا بها ·

١ ـ اللؤلؤة فى السلطان ·

٢ ـ الفريدة فى الحروب ·

٣ ـ الزبرجدة فى الأجواد ·

٤ ـ الجمانة فى الوفود ·

٥ ـ المرجانة فى مخاطبة الملوك ·

٦ ـ الياقوتة فى العلم والأدب ·

٧ ـ الجوهرة فى الأمثال ·

٨ ـ الزمردة فى المواعظ والزهد ·

٩ ـ الدرة فى التعازى والمراثى ·

١٠ ـ اليتيمة فى النسب وفضائل العرب ·

١١ ـ العسجدة فى كلام الأعراب ·

١٢ ـ المجنبة فى الأجوبة ·

١٣ ـ الواسطة فى الخطب ·

١٤ ـ المجنبة الثانية فى التوقيعات والفصول ·

١٥ ـ العسجدة الثانية فى الخلفاء وتواريخهم ٠
١٦ ـ اليتيمة الثانية فى أخبار زياد والحجاج ٠
١٧ ـ الدرة الثانية فى أيام العرب ٠
١٨ ـ الزمردة الثانية فى فضائل الشعر ٠
١٩ ـ الجوهرة الثانية فى أعاريض الشعر ٠
٢٠ ـ الياقوتة الثانية فى الألحان ٠
٢١ ـ المرجانة الثانية فى النساء وصفاتهن ٠
٢٢ ـ الجمانة الثانية فى المتنبئين والموسومين ٠
٢٣ ـ الزبرجدة الثانية فى طبائع الانسان ٠
٢٤ ـ الفريدة الثانية فى الطعام والشراب ٠
٢٥ ـ اللؤلؤة الثانية فى الفكاهات والملح ٠

يتبين من عناوين الكتب التى يضمها العقد شىء من الأبحاث التى تدور عليها ، فهو يبحث فى السلطان وسياسته والحروب ومدار أمرها والأمثال والمواعظ والتعازى والمراثى وكلام الأعراب وخطبهم وأنسابهم وعملهم وأدبهم ومخاطبة الملوك وأخبار الوفود وأخبار الخلفاء وتاريخهم والنساء وصفاتهن وطبائع الانسان والطعام والشراب وأعاريض الشعر وعلل القوافى وغير ذلك ٠ وفى كتاب السلطان مثلا يذكر ابن عبد ربه أخبارا عن اختيار السلطان لأهل عمله وحسن السياسة واقامة المملكة وبسط العدالة ورد المظالم وصلاح الرعية وحزم السلطان وعزمه والتعرض له والرد عليه وحلمه وغضبه وحجابه وقضاته الخ ٠ ويذكر مع هذا أخبارا تاريخية فيستشهد مثلا بقصص عن عمر بن الخطاب ومعاوية ومروان ابن عبد العزيز وأبى جعفر المنصور من الخلفاء ، وزياد والحجاج وغيرهما من القواد والأمراء ، وكذلك شأنه فى كل الكتب التى يضمها العقد فهو ينثر فيها فوائد تاريخية ثمينة نقلها عن المتقدمين ٠ كما أن العقد مجموعة أدبية قيمة فقهية ومنتخبات من الخطب والرسائل والأمثال وفيه أشعار لعدد كبير من الشعراء ، وفيه أخبار عن بعضهم قد لا نجدها فى غيره من المصادر ٠

نمـــاذج العقـــد

لو أردنا استقصاء أنماط الموضوعات فى العقد حتى نأتى لكل منها بنموذج واحد ممثلة لاحتجنا الى عشرات الصفحات ولذلك ، نكتفى بهذا القدر القليل للدلالة على بعض معالم العقد من حيث محتوياته ومصادره ومنهجه ٠

ـــ تفرق الخـــوارج :

تحت عنوان « باب من أخبــار الأزارقة » أورد مؤلفنــا بدء ظهور الخوارج في عهــد الامام علي وحربهم معــه ثم حروبهم مع أوائل الأمراء الأمويين وأبطالهم وأخبارهم حتى هزمهم المهلب بن أبي صـــفرة وكان اختلافهم من أسباب هزيمتهم وختم الباب ــ وهو آخر « كتاب الفريدة في الحروب » ــ بذكر تفرقهم على النحو التالي فقال :

« وتفرقت مقالة الخوارج على أربعــة أحزاب فقال نافع بن الأزرق باستعراض النــاس والبراءة من عثمان وعلي وطلحة والزبير واستحلال الأمانة وقتل الأطفال وقال أبو بهس هيصم بن جابر الضبعي : ان أعداءنا كأعداء الرسول (صلى الله عليه وسلم) يحل لنا المقــام فيهم كما أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقام المسلمون بين المشركين وأقول : ان مناكحتهم ومواريثهم تجوز لأنهم منافقون يظهرون الاسلام ، وان حكمهم عند الله حكم المشركين ، وقال عبد الله بن اباض : لا نقول فيمن خالفنا انه مشرك لأن معهم التوحيد والاقرار بالكتاب والرسول ، انما هم كفار للنعم ومواريثهم ومناكيحهم والاقامة معهم حل ودعوة الاسلام تجمعهم .

وقالت الصفيرة بقول عبد الله بن اباض ورأت القعود ، حتى صارت عامتهم قعدا وانما سموا صفرية لاصفرار وجوههم وقيل : لأنه أصحاب ابن الصفار » .

ـــ ترجمة هشام بن عبد الرحمن الداخل :

(ثم ولي هشام بن عبد الرحمن لسبع خلون من جمادى الآخرة سنة اثنتين وسبعين ومائة ومات في صفر ســـنة ثمانين ومائة وكانت ولايته سبع سنين وعشرة أشهر ومات وهو ابن احدى وثلاثين سنة وهو أحسن الناس وجها وأشرفهم نفسا الكامل المروءة ، الحاكم بالكتاب والسنة الذي أخذ الزكاة على حلها ووضعها في حقها لم يعرف منه هفوة في حداثته ولا زلة في أيام صباه ورآه يوما أبوه وهو مقبل ممتلئا شبابا فأعجبه فقال: ياليت نساء بني هاشم أبصرته حتى يعدن فوارك . وكان هشام يصر الصرر بالأموال في ليالي المطر والظلمة ويبعث بها الى المساجد فيعطي من وجد فيها ، يريد بذلك عمارة المساجد وأوصى رجل في زمن هشام بمال في فك سبية من أرض العــدو فطلبت فلم توجد احتراســا منه للثغر واستنقاذا لأهل السبي) .

ـــ خطبة للحجاج عند موت عبد الملك بن مروان وتولية ابنه الوليد :

(قام خطيبا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أيها الناس ان الله ــ تبارك وتعالى نعى نبيكم صلى الله عليه وسلم الى نفسه فقال : انك ميت

وهم ميتون وقال : « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم » ؟ فمات رسول الله صلى الله عليه وسلم ومات الخلفاء الراشدون المهتدون منهم أبو بكر ثم عثمان الشهيد المظلوم ثم تبعهم معاوية ثم وليكم البازل الذكر الذى جربته الأمور وأحكمته التجارب مع الفقه وقراءة القرآن والمروءة الظاهرة واللين لأهل الحق والوطء لأهل الزيغ فكان رابعا من الولاة المهديين الراشدين فاختار الله له مما عنده وألحقه بهم وعهد الى شبهه في العقل والمروءة والحزم والقيام بأمر الله وخلافته فاسمعوا وأطيعوا ·

أيها الناس اياكم والزيغ فان الزيغ لا يحيق الا بأهله وقد رأيتم سيرتى فيكم وعرفت خلافكم وطيبكم على معرفتى بكم ولو علمت ان أحدا أقوى عليكم منى وأعرف بكم ما وليتكم فاياى واياكم ، من تكلم قتلناه ومن سكت مات بدائه غما » ثم نزل) ·

— نموذج من شعره ومباهاته به :

(ومن قولنا فى رقة التشبيب وحسن التشبيه :

كم سوسن لطف الحيـــاء بلونه
فأصـــار وردا على وجناتــــــه

ومثله :

يا لؤلؤا يسبى العقول أنيقـــا
ورشا بتقطيع القلوب رقيقـــا

ما ان رأيت ولا سمعت بمثله
درا يعـــود من الحيـــاء عقيقـــا

ونظير هذا من قولنا فى رقة التشبيب وحسن التشبيه والبديع الذى لا نظير له والغريب الذى لم يسبق اليه :

حوراء راعتهـــا النوى فى حور
حكمت لواحظهـــا على المقـــدور

نظـــرت الى بمقلة ادمانـــــــه
وتلفتت بســـــوالف اليعفـــور

فكأنما غلط الأسى بجفونهـــــا
حتى أتـــاك بلؤلؤ منثـــــور

ونظير هذا من قولنا ··· ومثله ···) ·

— شروط الأديب :

تحت عنوان « باب من مقاطع الشعر ومخارجه » أورد مؤلفنا أمثلة من أخطاء الشعراء في الأساليب ثم أورد توجيهات سديدة في النقد والأدب ومنها في شروط الأديب قوله :

واعلم أنه لا يصلح لك شيء من المنثور والمنظوم الا أن يجري منه على عرف وان يتمسك منه بسبب فأما ان كان غير مناسب لطبيعتك وغير ملائم لقريحتك فلا تنض مطيتك في الناس ولا تتعب نفسك الى انبعاثه باستعارتك ألفاظ الناس وكلامهم فان ذلك غير مثمر لك ولا مجد عليك ما لم تكن الصناعة ممازجة لذهنك وملتحمة بطبعك واعلم ان من كان مرجعه اغتصاب نظم من تقدمه واستضاءته بكوكب من سبقه وسحب ذيل حله غيره ، ولم تكن معه أداة تولد من بنات ذهنه ونتائج فكرة الكلام الحزم والمعنى الجزل — لم يكن من الصــنعة في عير ولا نفير ولا ورد ولا صدر على أن كلام الفصحاء المطبوعين ودرس وسائل الشعر من المتقدمين هو — على كل حال — مما يفتق اللسان ويقوى البيان ويحد الذهن ويستحد الطبع ان كان فيه بقية وهناك خبية) ·



واذا غضضنا النظر عن الدرر والجواهر التى جعل المؤلف من كل واحدة منها عنوانا لموضوع من موضوعات كتابه ، فاننا يمكن أن ننتهى الى القول بأن الكتاب موسوعة ثقافية عربية كبيرة تشــمل الفنون الأدبية والفكرية على النحو التالي :

أولا : الشعر بمختلف موضوعاته : كل قصيدة أو مقطوعة يذكرها المؤلف حسب الغرض الذى استهدفه من التمثل بها · وهو يختار نماذجه بعناية فائقة يعمل فيها ذوقه الفنى كشاعر صاحب اجادة وامتياز · هذا وكثير من فصول الكتاب يكاد الشعر يكون العنصر الأساسى فى تكوينها كما هو الحال فى « كتاب الفريدة » الذى خصصه للحرب وهى مجال رحيب للتمثل بشعر الحماسة والمواقع الحربية · ولا يكتفى ابن عبد ربه فى هذا المجال بالنماذج الكثيرة التى يوردها لكبار الشعراء وانما يتمثل بشعره أيضا قائلا : « ومن قولنا فى وصف الرمح » أو « ومن قولنا فى وصف الفرس » وغير ذلك من الموضوعات التى كتب فيها بحيث جعل من كتابه بستانا نثر فى جنباته أزاهير شعره وأبكارها بل انه يخص الشعر بأكثر من دراسة فى أكثر من باب ويبدو ذلك واضحا فى كتاب الزمردة الثانية الذى جعله فى فضائل الشعر ومقاطعه ومخارجه وكتاب الجوهرة الثانية الذى جعله فى أعاريض الشعر وعلله وقوافيه فالمؤلف والحال كذلك لم يجعل من الشعر وسيلة استشهاد وأداة تمثل ، وغاية اطراف وحسب ، وانما قدم عنه دراسة نقدية فنية عروضية ·

ثانيا : الخطابة وهى تتمشى فى كيان الكتاب وجوهره وفى مواضع كثيرة كل فى مكانها من فصول الكتاب هذا فضلا عن الحشد الكبير من الخطب التى زين بها ابن عبد ربه أعطاف عقده وركز عليها فى « واسطة » العقد ، فخصص الواسطة كلها للخطب • لقد استهله بخطبة الوداع للرسول صلى الله عليه وسلم ثم ثنى بعدد من خطب الخليفة أبى بكر الصديق وقدر مماثل لها للفاروق عمر وخطبة واحدة قصيرة للخليفة عثمان ـ اذ لم يكن له كبير مشاركة فى الخطابة ـ ثم أورد عددا كبيرا من خطب الامام على بن أبى طالب وخطبا كثيرة لكل واحد من ملوك بنى أمية وقوادهم • وأخرى كثيرة لملوك بنى العباسى ثم عرج على خطب من عرفوا بالفصاحة والابانة من العرب والمسلمين فتمثل لكل منهم بخطبة أو أكثر مثل أم المؤمنين عائشة وعبد الله بن الزبير ومصعب بن الزبير وجعل فصلا من « الواسطة » لخطب أوردها من أخبار حول أحداث اجتماعية وجوانب شعبية لم نألف التعرف عليها الا عند القلة من صفوة المؤرخين العرب •

وعلى الرغم من أن الكتاب اهتم بالمشرق اهتماما كليا فانه لم يهمل تاريخ الأمراء الأمويين بالأندلس ابتداء من عبد الرحمن بن معاوية الذى لقب بالداخل وانتهاء بعبد الرحمن بن محمد الذى عرف بعبد الرحمن الناصر •

وهو الملك الذى مات المؤلف ابان حكمة بل انه زاد على ذلك بأن أرخ لعبد الرحمن الناصر وحروبه ووقائعه ومغازيه حتى سنة ٣٢٢ هـ فى أرجوزة مفرطة الطول زادت على الأربعمائة والخمسين بيتا •

ثالثا : اهتم الكتاب بالعرب وأنسابهم وأمثالهم وهما العدة الأولى لمن يريد أن يلج باب الدراسات العربية من مدخله الصحيح فعقد بابا كاملا هو كتاب الجوهرة وخصصه للأمثال • وليس المقصود بالأمثال هنا تلك الأمثال التى تضرب للأمر فى المناسبات بعينها وانما هناك التمثيل للمعانى والقيم • وهذا الباب بما جمع من شعر وبلاغة من الثراء والنفاسة بمكان • وباب آخر كاملا هو كتاب اليتيمة وخصصة لنسب العرب وفضائلهم وقد ذكر فى هذا الباب أكثر من مائتين من أسماء القبائل والبطون والأفخاذ والرهوط والبيوتات فى سعة وافاضة ، كما اهتم بكلام العرب فى باب كامل طريف هو كتاب العسجدة وجعله فى كلام الأعراب ويمكن أن ندرج تحت هذا الموضوع بابا هو كتاب الدرة الثانية فى أيام العرب ووقائعهم ومن ثم فان للعرب نسبا وأياما وثقافة ولهجات موضوعا رحيبا فى العقد الفريد •

رابعا : نالت الأخلاق والزهد والتدين نصيبا لا بأس به فى العقد ففى كتاب الأمثال فصل نفيس عن الأمثال فى مكارم الأخلاق والأمثال فى

القربى ، وان فصل الزهد بأكمله يدعو الى التدين ومعرفة الله ملىء بالأدعية الصالحة وهو بعيد كل البعد عن التشجيع على ترك الدنيا تماما وانما يضع المعايير الطيبة للحياة الصالحة مع قدر من المعرفة بالزهد وحياة بعض الزهاد • هذا والفصل الخاص بالتعازى من كتاب التعازى والمراثى لما يؤنس وحشة المحزون ويرد الجزوع الى رحاب الهدوء والسلو والاطمئنان ، كما ان كلا من باب الأجواد وباب مخاطبة الملوك يحتوى على كثير من نماذج نقاء السلوك والاريحية وحسن التعامل مع الناس والمجتمع •

خامسا : لم يهمل صاحب العقد الامتاع النفسى والتسرية عن القارىء الذى ينشد القراءة الخفيفة لسلوى ينشدها أو هم يزيحه فأنشا ثلاثة أبواب لطيفة أحدها فى الألحان وهو كتاب الياقوتة الثانية عرض فيه للألحان وأعذبها ورأى الدين فيها كما عرض لنوادر المغنين وبعض المغرمين بالسماع وأخبار القيان وأعذب ما تغنى به من الشعر • والكتاب الفكه الثانى هو كتاب الجمانة الثانية جعله المؤلف عن المجانين والبخلاء والطفيليين وأخبارهم وسلوكهم وحوداثهم وظرفهم وهى صفحات تدفع الكثير من الهموم عن نفس قارئها •

ولم ينس ابن عبد ربه أن يضمن هذا الباب أشهر رسالة كتبت فى البخل وهى رسالة سهل بن هارون التى أنشأها مكيدة فى العرب الذين اشتهروا بالكرم فدفعت به شعوبيته وحقده عليهم الى كتابة رسالة فى تمجيد البخل •

والباب الثالث فى الفكاهة هو آخر كتاب فى لآلىء العقد انه كتاب اللؤلؤة الثانية وقد جمع فيه ابن عبد ربه أشتاتا من الفكاهات والأخبار المضحكة والنوادر الطريفة وأكثرها حدث لاعلام معروفين أو جرى لهم ، ولا ينسى ابن عبد ربه انه يطرز حواشى هذا الكتاب كما يفعل دائما كلما سنحت له الفرصة أو ساعده المنهج بالأبيات اللطيفة والمقطوعات الطريفة من عذب الشعر ومختاره •

سادسا : وهذه الفقرة من تقيمنا للعقد الفريد تتصل بالثقافة العامة التى استهدفها صاحب الكتاب فى بعض أبوابه والحق انه لا يخلو باب من أبواب الكتاب الخمسة والعشرين وما يتفرع عن كل باب من فصول من كل لون من ألوان الثقافة العامة رغم العمد الى التخصص الدقيق فى الموضوع نفسه • غير ان هناك أكثر من باب من أبواب الكتاب يمكن أن ننسب الى المؤلف انه حين كتبها كان يقصد الى ما يمكن ان يسمى الثقافة الاجتماعية أكثر مما يقصد الى الثقافة الموضوعية فمن ذلك النسق مثلا الباب الذى كتبه فى طباع الانسان وسائر الحيوان وتفاضل البلدان وهو

الذى أطلق عليه « كتاب الزبرجدة الثانية » . انه يتحدث فيه عن النفس والدار واللباس والتزين والتطيب والمشى والركوب ويتحدث عن الحيوان من خيل وبغال وحمير عن السباع والطير والأنعام ويتحدث عن مصايد الطير ومصايد السباع وينحو منحى جغرافيا وتاريخيا حين يتحدث عن بعض الأقطار مثل العراق والشام والجزيرة ومصر وفارس ويتحدث عن المسجد الحرام ومسجد الرسول صلى الله عليه وسلم والمسجد الأقصى ثم ينتقل فجأة الى الحديث عن الطب والحجامة والتعويذ والرقى والسم والسحر والعين والحسد . ومن أبواب الثقافة الاجتماعية فى « العقد » كتاب « الفريدة الثانية » فى الطعام والشراب وهذا الباب على طرافة عرضه ومحتواه يكاد يكون كتابا فى « الصحة العامة » بلغة دراسة الطب فى عصرنا الحاضر مع عرض لبعض أنواع الأطعمة التى يقبل عليها من يهتمون بالأكل ويغرمون بلذيذ الطعام . وما دام الشراب يشكل قسما من هذا الباب فان المؤلف يتحدث عن الخمر وبعض الأخبار عمن حد من الأشراف فى شربها والفرق بين الخمر والنبيذ ـ حسب رأيه ورأى غيره ـ ومناقضة ابن قتيبة قوله فى الأشربة ويعارض أقواله من خلال منطق النقاش أكثر منه من خلال التحليل والتحريم ويكاد يقصر ابن عبد ربه حديثه هذا الذى يختص بالشراب على النبيذ ومن حلل شربه وحجته ، ومن حرم شربه وحجته . ويورد رسالة عمر بن عبد العزيز الى أهل الأمصار فى الأنبذة .

ويمكن أن نعد كتاب « المرجانة الثانية » فى النساء واحدا من أبواب الثقافة الاجتماعية فقد ضم الكثير من أخبارهن وصفاتهن ومكرهن وغدرهن والسرية والهجناء وان كان هذا الباب قد ضم أيضا من فحش القول ما كان يجمل برجل كابن عبد ربه ان يترفع عن ذكره .

قيمة العقد التاريخية

يعد العقد مصدرا من المصادر الأولية المهمة التى يرجع اليها الباحثون فى تاريخ العرب السياسى والاجتماعى والأدبى وقد امتاز عن كثير من الكتب القديمة بتبويبه وحسن ترتيبه واختياره ، كما أنه يذكر لنا بعض روايات الأقدمين كالأصمعى وأبى عبيدة والعتبى والشيبانى وغيرهم ممن لم يترك لنا الزمن من آثارهم التاريخية والأدبية شيئا كثيرا مجموعا فى كتب مستقلة ولذلك فذكر العقد لرواياتهم يفيد من يود الرجوع اليها أو من يرغب فى مقابلة بعضها فى المصادر المختلفة بما هى عليه فى العقد .

ويذكر العقد أخبارا كثيرة عن رجال الاسلام الأول من خلفاء وأمراء وقواد فى عصر الراشدين والأمويين وعن أيام العرب الأولى واختلاف أمرهم

في العصر الأموي ، لابد للباحث في تاريخهم من الوقوف عليها . كما أنه يذكر في بعض كتب العقد كثيرا من الفوائد التاريخية مما يتعلق بالسياسة والاقتصاد والاجتماع والأدب وغيرها . واذا قرأت خبر وفود عبد الله ابن جعفر مثلا على عبد الملك بن مروان رأيت في هذا الخبر فوائد عن حالة القوم الاقتصادية والاجتماعية وفهمت شيئا من تلك العلاقات بين بني أمية في الشام من ناحية وبين بعض هذا النفر الارستقراطي في الحجاز من ناحية أخرى كذلك نرى في كتاب السلطان مثلا أخبارا ذات شأن عن سياسة عمر كما فهمها أهل ذلك العصر ومحاسبته للعمال وعن حياة الأمراء وبلاط الخلفاء وعن نزعة أهل ذلك الجيل الجديد الذي تلا عصر الصحابة الأول الى البذخ والترف وميلهم الى اقتناء المال وامتلاك المزارع وبناء الدور الجديدة واتباعهم سبل المرح واللهو فنقرأ مثلا « كتب عمر الى أحد عماله : وقد بلغ أمير المؤمنين انه فشت لك ولأهل بيتك هيئة في لباسك ومطعمك ومركبك ليس للمسلمين مثلها » ، أو مثلا : « قال أبو هريرة لمروان أتظل عند ابنة فلان تروحك بالمراوح وتسقيك الماء البارد وأبناء المهاجرين والأنصار يصهرون من الحر » . وكذلك قل عن كتاب الحروب ففيه بعض الفوائد عن تاريخ العرب السياسي وفيه نتف من أخبار الخوارج ، وقد ذكر في كتاب النسب أخبارا دقيقة لها علاقة في بعض الأمور التاريخية كأن يورد مثلا في كلامه عن قريش تسمية من انتهى اليه الشرف من قريش في الجاهلية فوصله بالاسلام ، ويشرح المكارم التي كانت لهم في الجاهلية من سقاية ورفادة وسدانة وحجابة الخ .. وذكر في كتاب آخر من العقد أسماء من كتب للنبي ، ولبعض الخلفاء والأمراء من بعده ويروى في بعض الأحيان أخبارا لها أهميتها لمن يريد التخصص في درس بعض الشخصيات الاسلامية ، فقد ذكر مثلا عن عثمان بن عفان انه كان يعتني في ثيابه ويتنظف وأنه وهم يبنون المسجد بالمدينة زمن النبي يحمل اللبنة ويجافيها عنه بحيث لا تمس ثيابه فاذا وضعها نفض كفيه ونظر الى ثوبه فاذا أصابه شيء من التراب نفضه عنه فنظر اليه علي وأنشد :

لا يستوي من يعمر المساجدا — يدأب فيها راكعا وساجدا
وقائما طورا ، وطورا قاعدا ، — ومن يرى عن التراب حائدا

وكتب عن الحجاج فصلا في نحو ٢٠ صفحة في اليتيمة الثانية عدا عما نثره عنه في أكثر كتب العقد .

كذلك نرى في العقد كثيرا من الفوائد عن حالة العرب الاجتماعية من سماعهم للغناء ومجالسهم حوله وطرق معيشتهم ولباسهم وطعامهم

وشرابهم ورأيهم فى الخمر والنبيذ وذكر الشاربين ومن حد منهم ، ونظر الأئمة لبعض هذا اللهو الذى فشا بعد احتكاكهم بالأمم الأخرى وتساهل البعض فى أمره وشدة البعض الآخر واختلاف الأقطار بالنسبة الى آراء أهلها وأئمتها فى الغناء والشراب مثلا ، وما الى هذه الأمور ٠

وللعقد قيمة تاريخية من حيث الرجوع اليه عند نشر بعض الكتب التى أخذ عنها صاحبه ، أو التى أخذت عن رواة استند اليهم ابن عبد ربه أيضا ٠ وقد ألحقت لجنة دار الكتب فى القاهرة عند نشرها كتاب « عيون الأخبار » زيادات كثيرة فى متنه نقلتهـــا عن العقد وصححت كثيرا من الأغلاط التى عثرت عليها فى النسخ الخطية من « عيون الأخبار » عنـــد مقابلتها بالعقد ٠

ويجب ألا ننسى أن العقد من المصادر القديمة ، فصاحبه قريب عهد بكثير من الأمور التى وقع ذكرها فى كتابه ٠ كمـــا أن بالعقد كتابا كبيرا قصره لتاريخ الخلفاء يمتاز عن كثير من كتب التاريخ القديمة من حيث الاختيار والاختصار اللذين قصد اليهما مؤلفه فقد حشد فى نحو ١٣٣ صفحة فوائد كثيرة عن الخلفاء فى الشرق والأندلس حتى زمنه كتبت بأسلوب سهل واضح جذاب وروعى فيها الترتيب والتبويب ٠

وربما من الخير هنا أن نذكر هنا رأى الأستاذ جرجى زيدان من حيث قيمة العقد التاريخية قال فى كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » :

« ان فى بعض أبوابه فصولا لا تجد مثلها فى كتب التاريخ فأخبار زياد والحجاج والطالبين فيها حقائق يعز العثور عليها فى كتاب آخر ٠ وناهيك بأيام العرب وأعاريض الشـــعر وما هناك من أخبـــار الخوارج والأزارقة فضلا عن كثير من الأقوال المأثورة عن عظماء الملوك نقلا عن كتب ضاعت أصولها » ٠

الكوميديا الإلهية

دانــــتي

١٤٧٢م

يعد دانتي اليجيري واحدا من العباقرة الأربعين أو الخمسين الأوائل في تاريخ البشرية ٠ وهو يجد العناية والاقبال والدرس في الجامعات والمعاهد والجمعيات الأدبية ولدى كثير من الناس في أنحاء العالم المتحضر من اليابان شرقا الى الولايات المتحدة الأمريكية غربا ، وقد عكف كثير من الباحثين منذ القرن الرابع عشر حتى اليوم - على دراسته وترجمته والكتابة عنه ٠

ومن الأمثلة على ضخامة التراث الدانتي ان نسخ « الكوميديا الالهية » المخطوطة في العالم يتراوح عددها بين ٥٠٠ ، ٦٠٠ نسخة ! ومن الأمثلة على ذلك أيضا ان توفر كثيرون على تحقيق نصوص مؤلفاته الايطالية واللاتينية وانه قد كتبت الآلاف من الشروح والتعليقات الخاصة بها ووضعت المعاجم والفهارس وألفت الكتب التفصيلية والعامة ونشرت الدوريات الدانتية المختلفة وترجمت مؤلفاته الى اللغات الأجنبية عشرات المرات في لغات بعينها أحيانا ومثال ذلك اننا نجد الكوميديا قد ترجمت الى الانجليزية حوالي ٤٥ ترجمة كاملة وترجمت الى الفرنسية حوالى ٣٢ ترجمة كاملة وترجمت كاملة الى الألمانية في حوالي هذا العدد ٠ وذلك عدا الترجمات الجزئية لها في كل هذه اللغات ، كما أن هناك ترجمات كاملة للكوميديا في لغات أخرى عديدة كالأسبانية والبرتغالية والسويدية والبولندية والروسية والرومانية والمجرية والعبرية والتركية واليابانية والعربيـــة ٠

وعلى هذا فقد اكتظت دور الكتب بالآلاف المؤلفة عن التراث الدانتي في عشرات من اللغات الحية في كثير من أنحاء العالم مثل مكتبات الفاتيكان وفلورنسا ونابلي وبولونيا والبندقية وفيرونا وميلانو ٠٠٠ في ايطاليا ومثل مكتبات باريس واستراسبورج ونيس في فرنسا ومثل مكتبة المتحف البريطاني ومكتبات جامعات لندن واكسفورد وكمبريدج وادنبرة ٠٠٠ وفي انجلترا ومثل مكتبات جامعات هارفارد وبوسطون وكورنيل ٠٠٠ في الولايات المتحدة الأمريكية وتبلغ محتويات المجموعة الدانتية في جامعة كورنيل - مثلا - حوالي ١١٠٠٠ (أحد عشر ألف) مجلد كما أحصيت في خريف ١٩٦٢ ! وربما كانت هذه هي أكبر مجموعة من الكتب الدانتية في العالم توجد في مكان واحد ٠

ومن العلماء والأدباء الاعلام في الدراسات الدانتية نجد باسكولي

وكاردوتشي ودى ســـانكتس ودوفيديو وزنجاريلى ودل لونجو وفانديلى وباربى وبيتروبونو وبابينى من الايطاليين وبارلو ومور وتوينبى وجاردنر سايزر من الانجليز ولونجفلو ونورتون ولوويل وهوايت وويلكس وشاردى من الأمريكيين واوزانام واوفيت ولونيون وججيبه وماسيرون ورينوتشى من الفرنسيين وبلاثيوس الاسبانى وسكارتاتزينى السويسرى ٠

وكذلك وجد دانتى عناية كبيرة من جانب رجال الفنون التشكيلية وفنون الموسيقا الذين وضعوا رسوما كروكية أو صورا ملونة أو غير ملونة وصنعوا التماثيل والفوا الألحان الموسيقية التى تعبر عن بعض ما جال فى ذهن دانتى أو جرى به قلمه ومن هؤلاء جوتو وستيوريلى وبوتتشلى وميكلانجلو من الايطاليين ورودان ودوريه وديلاكروا من الفرنسيين وبليك وستمانكوت وروستى من الانجليز وسالفادور دالى الأسبانى وذلك فى مجال الفنون التشكيلية ونجد روسينى الايطالى وليست المجرى وفاجنر الألمانى وتشايكوفســـكى وراحمانينــوف الروســـيين فى مجال الفنون الموسيقية ٠

وفضلا عن ذلك فان دانتى ثروة انسانية هائلة اذ مهد للخروج من العصور الوسطى الى عصر النهضة والعصر الحديث وهو ينشر العلم ويربى الذوق ويعلم السياســـة ويؤيد العدالة والحرية ويقوى الروح المعنوية يدعو الى التضحية والوطنية ويغرس الايمان والصفاء والأمل ويحلق فى أجواء من السعادة الروحية ويخلق فنا لا يكاد يدانيه فيه انسان ٠

ترجمة حياة دانتى

ولد دانتى فى فلورنسا بايطاليا فى ١٤ مايو سنة ١٢٦٥ م من عائلة رفيعة الجانب يقال لها عائلة اليجيرى وسمى عند ولادته دروانتى ثم نحت اسمه بالاستعمال فصار دانتى ، وتوفى والده وهو لا يزال غلاما فربى فى حوزة بعض ذوى قرابته فتلقن كل العلوم الرائجة فى تلك الأعصر وأشهرها التعاليم الدينية ومنطق أرسطو وبعض الكتب اللاتينية المعتمد عليها فى مدارس تلك الأيام ٠ وكان حاد الذهن فلم يحتج فى اكتسابها الى كبير مشقة أو طويل زمن ، لكنه لم يكتف بها فاخذ يطالع كل علوم تلك العصور على صعوبة الوصول اليها قبل اختراع الطباعة ولذلك فقد ظن بعضهم انه تثقف فى مدرسة بولونيا الشهيرة ٠

ولم يكد يفتح عينيه فى عالم العمل حتى الم به حادث انطبع على أخلاقه وأطواره ورافقه الى آخر نسمة من حياته وذلك انه علق بفتاة من

الأشراف اسمها بياتريس بورتيناري وكانا صغيرين لا يتجاوز احدهما التاسعة من العمر • ومن الغريب انه تمكن حبها من قلبه حتى شغله عن كل شاغل وهو لم يرها الا قليلا ولا تجاسر أن يبثها ما في فؤاده ولا خطر بباله أن يخاطبها بأمر الزواج لشعوره بترفعها عنه فهي لم تكن تعلم شيئا عن منزلتها عنده غير ما قد تلحظه النساء الجميلات الساميات المقام من حركات قلوب الشبان الواقفين بين أيديهن ولو كانوا صامتين •

فكان حب دانتي لبياتريس حبا عذريا حقيقيا منزها عن كل شائبة • أما هي فتزوجت باحد أعيان الايطاليين فلم يغير ذلك شيئا من عواطف دانتي نحوها وهو لا يطمع بغير النظر اليها عند سنوح الفرصة • ثم توفيت الفتاة فأثرت وفاتها فيه تأثيرا شديدا فأصبح كيفما توجه تخيل شبحها أمام عينيه واشتهر ذلك عنه حتى تحدث به الخاص والعام •

وكان قبل وفاتها قد نظم فيها قصيدة طويلة سماها « الحياة الجديدة » كلها عواطف وفلسفة ، وهي أول قصيدة نظمها مندفعا بثورة الغرام وما زال ذلك التأثير ظاهرا فيه يتراءى في خلال أعماله الى آخر أيامه •

ولابد لاستيعاب ترجمة حياة هذا الشاعر العظيم من بسط حالة ايطاليا فى أيامه ، فقد كان فى ايطاليا اذ ذاك حزبان سياسيان كبيران يسمى احدهما جيلف والآخر جيبلين نشأ في القرن الثاني عشر أولهما وهم الجيلف يقاومون العائلة المالكة وثانيهما وهم الجيبلين ينتصرون لها • وما انفكت الحروب والمخاصمات قائمة بينهما حتى أقلقت راحة ايطاليا ففي سنة ١٢٦٧ طرد الجيبلين من ايطاليا كلها بايعاز البابا واستقام الأمر للحزب الآخر ولم يكن في فلورنسا من حزب الجيبلين أحد • على أن كلا من هذين الحزبين لم يكن يخلو من تخاصم بين عائلاته وربما استعان بعض عائلات هذا الحزب على البعض الآخر بالحزب المغلوب وقد تحدث فترة صلح بين الحزبين ثم لا يلبثون أن يعودوا الى الخصام ، وقد يتفق أن يكون هذا الحزب فائزا في هذه المدينة وذاك فى تلك ففي سنة ١٢٨٠ م حصلت واقعة بين جيلف فلورنسا وجيبلين اريتسو ففاز حزب الجيلف وكان دانتي في جملتهم وهي أول واقعة ظهر فيها فلما عاد من الواقعة تزوج بفتاة من كبراء ذلك الحزب اسمها « جما دوناتي » ولكنها كانت سببا لتعاسته ولم يهدأ له بال ولا اطمأن له قلب منذ تزوجها •

على انه أصبح بعد ذلك الاقتران مرشحا للمناصب الملكية فى مصالح الحكومة وكان أهل فلورنسا اذ ذاك ثلاثة صفوف (١) الأشراف والعظماء (٢) التجار والأغنياء (٣) العامة • وكان الصفان الأخيران فى شقاء دائم لانتمائهما الى الأحزاب السياسية ، ثم قام فيهما رجل مصلح اسمه

دينوكومباني سن قانونا جديدا سنة ١٢٨٢ م جعل فى أهل فلورنسا صفوفا تمتاز بعضها عن بعض بما تعلمه من المهن أو التجارة وجعل لهذه الصفوف مجلسا أشبه شيء بمجلس النواب مؤلفا من ستة أعضاء ينوب كل منهم عن حى من أحياء المدينة وهذا المجلس يتولى ادارة شئون أصحاب تلك المهن والقضاء فيما قد يعرض بينهم على أن يتجدد انتخابه كل شهرين ولا يجوز انتخاب غير المندرجة أسماؤهم فى قوائم أصحاب المهن والتجارات وكان اسم دانتى فى قائمة الأطباء والصيادلة مع انه لم يتعلم الطب ولا الصيدلة قط ٠

ولكن هذا الترتيب لم يمنع نفوذ الأحزاب السياسية وانحياز أعضاء ذلك المجلس الى احدها فلم يمكث ذلك النظام الا بضع عشرة سنة ثم عادت الأمور الى مجراها الأول مع بعض التحوير فنشأ فى فلورنسا حزبان شبيهان بالأولين اسم احدهما الأسود (نيرو) وأصلهم من الجيلف والثانى الأبيض (بيانكى) وأصلهم من الجيبلين ٠

وكان دانتى جيلفيا كما قدمنا وتزوج بامرأة من زعماء الحزب الأسود فازدادت علاقاته مع الجيلفيين متانة ، ولكنه كان من الجهة الأخرى مرتبطا ببعض كبراء الحزب الأبيض برباط الصداقة أو لعله كان يشعر بارتباطه معهم برباط العدالة لاعتقاده بصواب دعواهم ٠

وفى يونيو سنة ١٣٠٠ انتخب دانتى مندوبا فى المجلس المتقدم ذكره ٠ وفى عهده حكم على الحزبين الأسود والأبيض بالنفى الى فلورنسا ثم تساهل هو مع بعض زعماء الحزب الأبيض فأرجعهم اليها فشق ذلك على الحزب الأسود فساروا الى رومية والتجأوا الى البابا بونيفاشيوش الثامن فنصرهم وبعث معهم شارل دى فالوا مندوبا من قبله ولقبه « صانع السلام » فوصل شارل الى فلورنسا فى نوفمبر سنة ١٣٠١ ومعه جند فأعاد الحزب الأسود اليها وحل المجلس وألف مجلسا آخر من حزبهم فارتفع شأن الحزب الأسود وضعف الحزب الأبيض فحكم المجلس على الحزب الأبيض بالنفى والقتل وأخذوا فى تعذيبهم وقتلهم فى الشوارع أو المنازل وسلب أمتعتهم وأموالهم وحرق منازلهم بغير شفقة ٠ وكان شارل اذا رأى نارا يتصاعد دخانها فى بعض أطراف المدينة وسأل ما هذه النار أجابوه هى زريبة حقيرة لا تستدعى اهتماما وقد تكون قصرا عظيما وكان فى جملة المنازل التى لعبت بها النار ونهبتها الأيدى منزل دانتى وكان دانتى اذ ذاك فى رومية ذهب اليها بايعاز الحزب الأبيض لمخابرة البابا بشأن ما يقاسونه من الاضطهاد والظلم فلما علم بالحكم الصادر بالنفى غادرها وسار الى منفى أصدقائه فى اريتسو ٠

وفى يناير سنة ١٣٠٢ صدر عليه الحكم الخاص بالنفى سنتين

وبغرامة قدرها ثمانية آلاف فلورين وانه اذا تأخر عن دفع الغرامة وقع الحجز على أملاكه • ثم صدر عليه حكم آخر بالاحراق حيا بدعوى انه مرتش وسارق ومراب فلم ير بدا من مهاجرة الوطن • وقد تمكنت علاقاته مع الحزب الأبيض فجعل يطوف البلاد يحرض الجيبلين على مقاومة أعدائهم الجيلف فسار الى فيرونا ثم الى توسكانا •

وفي سبتمبر سنة ١٣٠٣ م توفى البابا بونيفاشيوش وخلفه البابا بنيديكتس فحاول هذا اصلاح ذات البين بين الحزبين فذهب سعيه عبثا ، فظلت فلورنسا محط رجال الثورة فأصابها حريق هائل صحبه هجوم الحزب الأبيض ومن والاهم وتعاظم الخطب حتى كاد يقضي على المدينة •

وكان دانتي لا يزال يجول في ايطاليا ينتظر فرصة تسنح له للرجوع الى وطنه فذهب انتظاره ادراج الرياح • فلما تولى هنرى السابع (٧) كرسي مملكة جرمانيا تجدد أمله وكان هنرى قد عزم على القدوم الى ايطاليا للمطالبة بحقوق أسلافه عليها وحزب الجيبلين يستعد للأخذ بناصره فكتب دانتي منشورا سـنة ١٣١٠ م الى الملوك والدوكات وشيوخ رومية والى شعوب ايطاليا يبشرهم بالسـعادة المنتظر نيلهـا على يد هنرى ووزرائه فجاء الامبراطور هنرى في تلك السنة الى ايطاليا وتتوج في ميلان ملكا على لومبارديا وكان دانتي ينتظر قدومه الى توسكانا بفارغ الصبر لقمع الجيلف واخماد الفتنة فكاتبه بهذا المعنى فجاء هنرى الى توسكانا ولكنه لم يفز منها بطائل فسار الى رومية حيث توجه وفيما هو عائد مات بغتة سنة ١٣١٣ م فكانت وفاته صدمة قوية على دانتي فالتجأ الى فيرونا ثم الى غيرها • وأخيرا سار الى رافنا باقي حياته في حمى جيدو دا بولنتا عظيم تلك المدينة وكان جيدو شاعرا محبا للعلم آخذا بناصر العلماء فسر بنزول دانتي عليه على ان دانتي كان يجول في البلاد مرة بعد أخرى ينظم القصائد ويؤلف الروايات ونفسه تشتاق الى وطنه ولكنه لم يستطع الرجوع اليه فتوفي في رافنا سنة ١٣٢١ م حزينا كئيبا • وأحرق عظامه انتقاما منه على هرطقته • ثم لم تمض على هذه الأحكام عشر سنين حتى شعر الشعب الايطالي بمنزلة هذا الرجل ففي سنة ١٣٥٠ قررت جمهورية فلورنسا ان تدفع مبلغا من النقود الى ابنة له راهبة (واسمها بيتريس) وفي سنة ١٣٩٦ قررت أن يبنى له ضريح ويقام له تذكار في فلورنسا •

أعمـــاله الأدبيـــة

نظرا لاستحالة الوصول الى تواريخ دقيقة لانتاج « دانتي » يحسن ان نقسم حياته الى ثلاث مراحل تمثل تطوره الروحي وان تنسب الى كل مرحلة أقرب المؤلفات اليها •

وتمتد المرحلة الأولى بين سنتي ١٢٨٣ و ١٢٩٠ وقد سادتها حمية الشباب والاتجاه الدينى الذى حوله اليه غرامه العظيم ببياتريس مما صوره في سياق « الحياة الجديدة » ٠

أما المرحلة الثانية فتبدأ بوفاة حبيبته مما بث الأسى واليأس والشك فى حياته وأدى الى تغلب العقل على العقيدة فترة من الزمن انصرف فيها الى الفلسفة والعلم والصراع السياسى العنيف والبغضاء والتآمر ومن الممكن ان نعزو الى هذه الفترة من مؤلفاته « الندماء » و « الملكية » و « الرسائل »٠

وقد انتهت هذه المرحلة فى سنة ١٣١٣ بوفاة الامبراطور هنرى السابع الذى كان دانتى قد عقد عليه آماله ٠٠٠ وبدلا من أن يقضى انهيار هذه الآمال على عزيمته وروحه المعنوية فقد رده الى الناحية الروحية وأعاد اليه الايمان الذى كان فى صباه وحمله على التعبد متخذا من « بياتريس » — بعد ان خلع عليها القداسة فى خياله — رمزا للخير مما تشهد به كل قصيدة فى « الكوميديا الالهية » ٠

ولقد جمع « دانتى » قصائده الغنائية الأولى وربط بينها بتفسيرات نثرية وشروح فلسفية مطولة فى كتابيه الكبيرين « الحياة الجديدة » و « الندماء » الذى يسمى أحيانا « المأدبة » أو « مادبة الحب » وتنم لهجة « دانتى » فى تفسير أغانيه وأناشيده فى الحب عن تدرجه فى الانتقال الى تغليب العقل على العقيدة ٠

وكثيرا ما توصف « الحياة الجديدة » بأنها أول قصة توغل فى التحليل النفسى الذى يكشف عن أعماق مشاعر الشاعر وفيها يروى « دانتى » — بخليط من النثر الروائى والشعر الغنائى والتعليقات المسهبة على القصائد — كيف التقى ببياتريس أول مرة فى عام ١٢٧٤ فكان هذا اللقاء بداية حياة جديدة له ويتحدث عن جمالها ولطفها وعن أمله واعجابه وعن عذابه وحزنه البالغ لوفاتها وتساميه تدريجيا من الحب الدنيوى الى الحب القدسى — فأصبح — لاسيما بعد موت بياتريس — يمعن فى رفعها الى مصاف القداسة حتى لم تعد مثالا للمرأة وانما أصبحت طيفا ذا قدسية دينية ٠

أما الخلط بين دراسته الدنيوية والدراسات الفلسفية العميقة الذى أدى به — فيما بعد — الى شك مستيئس وهو يتخبط فى الحيرة بين الصورة الرمزية التى رسمها لبياتريس والغرور والسخط الدنيويين ٠٠٠ هذا الخلط يتبدى فى خير صورة فى (الندماء) فقد جعل أربعة من أناشيده تفسيرا فلسفيا بليغا مليئا بالاستعارة والكناية لحاله تلك فى أسلوب

جرى فيه على نسق الدراسات العلمية في القرون الوسطى ولو انه أكمل هذا الكتاب لجاء موسوعة رائعة لفلسفة القرون الوسطى وأخلاقياتها ٠

ومن العسير أن يتبين المرء فى أى المواقع من هذين الكتابين كانت « بياتريس » امرأة ذات طهر ملائكي وفي أيها أصبحت رمزا فلسفيا أو تصوفيا ٠٠ فان علاقته في الحالين بفتاته (لم يكن قد التقى بها سوى مرات متباعدة وعلى غير اتفـاق) لم تكن حبا عاديا وانما كانت تمجيدا وسموا بقيمة الخير والايمان الذين كان لا يلبث ان يرتد اليهما — بين آن وآخر —بالرغم من الصراع والاضطرابات التى كانت تدور في نفسه ٠

والواقع انه فى آخر سطور « الحياة الجديدة » استطاع أن يتمثل ما وراء الحيـاة ولكنه لم يستطع أن يسجل فورا الصورة التى تجلت لبصيرته والتى قدر لبياتريس — التى هدته وانتزعته من عقم الفلسفة الدنيوية — أن تكون محورها ومركزها ٠٠٠ بل لقد اضطر الى أن يقضى سنوات في الدرس والتفكير والتأمل قبل أن يصبح قادرا على أن يرسم تلك الصورة فى « الكوميديا الالهية » وأن يصف « بياتريس » بما لم توصف به امرأة على الاطلاق ٠

أما مؤلفـاته التى كتبهـا باللاتينية فى تلك الفترة فكان أهمها « الملكية » ، الذى يشرح فيه نظرية الامبراطورية المسيحية — كنظام الهى ضرورى — ويدعو فيه الى الفصل بين الكنيسة والدولة وأن يقتصر سلطان البابا على الأمور الروحية ٠

وقد عرض هذا الكتـاب للصراع السياسى الذى كان دائر الرحى والذى ساهم هو نفسه فيه وتجلى فى سياقه انتقاد « دانتى » لتوسع الكنيسة فى بسط نفوذها الدنيوى وهو انتقاد زاد من قوته وأثره أن « دانتى » كان من أخلص أبناء الكنيسة الرومانية ٠

وقد تكرر الانتقاد فى « الرسائل » التى دعا فيها الى توحيد الدول الأوربية تحت تاج الامبراطور هنرى السابع الألمانى لتكوين الامبراطورية المسيحية ٠

الى أى العصور ينتمى ؟!

ومن العسير الجزم بما اذا كان « دانتى » ينتمى الى القرون الوسطى أو الى عصر النهضة فان أشعاره المتعددة الألوان والتأويلات تبدو متضمنة العصرين فى بعض الأحيان وفى كثير من النواحي يبدو كمن جمع كل مقومات الأدب والفكر فى القرون الوسطى دون أن يتجاوزها الى التبشير بفجر عهد النهضة وبدلا من أن يبدو متقدما عن معاصريه نجده — فى

ضوء كثير من الاعتبارات ـ متخلفا عنهم متشبثا بأحلام وآمال كانت تزداد عقمـا واندثارا بمضى الزمن ... أحـلام توحيد أوروبا فى امبراطورية مسيحية .

وما أوسع الهوة التى تفصل بينه وبين غيره من شعراء القرن الرابع عشر مثل (بوكاشيو) الذى كان يصور نساءه صورة جسدية حسية بعيدة عن الأطياف الروحية والذى كان يمثل الرجل المادى الذى تفتق عنه عصر النهضة ، ومع ذلك فلابد أن شعراء النهضة قد شعروا بأنه كان جزءا من عصرهم مع انصرافهم عن النزعات التصوفية والخيال القائم على المعتقدات الدينية ... ذلك ان دانتى إبتكر اسلوبا تعبيريا واضحا وأفلح فى أن يكسو ما كان يتمثله من رؤى خيالية لما وراء الحياة الدنيا ثوبا من شعر رائع الأوزان ومن أسلوب لغوى مرن مرونة عجيبة .

كذلك ينتمى « دانتى » الى العصر الحديث بما أوتى من طاقة عاطفية عارمة خارقة للمألوف . فقد كان فى وسعه أن يحب ويكره وأن يقاتل ويزدرى فى عنف لا يقل عن عنف أولئك الذين أعقبوه فى القرن السادس عشر وكان يضرب بسهم فى كافة نواحى النشاط فكان جنديا وشاعرا وراهبا ودبلوماسيا وسياسيا وعاشقا ... ولم يكن به أثر من محو الذات الذى اتسمت به القرون الوسطى بل انه أوتى كبرياء وزهوا وترفعا لا تكون الا لرجل واثق من نفسه متفرد فى حياته وكفاحه ومع ذلك فانه جمع الى هذه الصـفات نظاما روحيا قاسيا كان يروض نفسه عليه ، وزهدا دينيا تصوفيا مما كبح جماح نشاطه ومشاعره فلم يسف فيما أسف فيه شعراء النهضة .

أثـره الخالـد

أعظم أعمال « دانتى » الأدبية وأرفع تحف الأدب المسيحى فى القرون الوسطى . ولا سبيل الى ادراك قيمتها ومغزاها الا فى ضـوء التجارب المريرة التى اجتازها المؤلف بعد وفاة حبيبته « بياتريس » حين نبذ الحب الحقيقى الصادق وهام متخبطا فى ميدان الفلسفة العقيمة ومضمار التآمر السياسى الى أن قدر له أن يعود الى الايمان والالهام اللذين كانا يلازمانه فى صباه .

فلقد شاء « دانتى » أن يبين لنفسه ولمن أعقبهم ممن أضلهم الاثم وأرهقهم الصراع عن جهل أن ثمة مخرجا من هذا الضيق وأن فى وسع الانسان أن ينجو من متاهة الحياة اذا هو استنار بالالهام الالهى واستعان بفضل من السماء واتبع نظاما روحيا قاسيا لترويض نفسه ... وهذا هو

المعنى العميق الذى قامت عليه القصة والذى أثبته « دانتى » بما تصوره من رؤى خيالية لما وراء الحياة مستمدا بعض خطوطه مما ترك « هوميروس » و « فرجيل » و « شيشيرون » ٠

وتجارب « دانتى » فى العوالم الثلاثة التى رسمها فيما بعد الحياة الدنيوية ــ وهى « الجحيم » و « المطهر » و « الفردوس » ــ والتى تصور انه اجتازها فى عشرة أيام تالية ليوم الجمعة اليتيمة من عام ١٣٠٠ ليست سوى تصوير لسعى الانســـان الى خالقه ورجوعه اليه وظفره بالخلاص والتوبة والمغفرة ٠

ومع ما كان فى تصويره لما بعد الحياة من اجتراء فى زمنه الا أن قصته الشعرية كتبت بحساب وتخطيط دقيقين ٠٠٠ فلم يخرج فيها عن تعاليم الدين بل انه أورد آراءه التصوفية ومعتقداته المستمدة من تعاليم القديس « أوجستين » كعناصر فى بناء العالم والروح على أساس التثليث (الأب والابن والروح القدس اله واحد) ٠

أقســـام الكتـــاب

ويتألف الكتاب من ثلاث قصـــائد كبيرة « الجحيم » و « المطهر » و « الفردوس » والأولى تعد بمثابة مقدمة وتضـم الثـلاث مجتمعة مائة أنشودة كما تصور ثلاثة عوالم فيما وراء الحياة أو فى الآخرة ، يتكون كل منها من عشرة أقسام ٠٠٠ فالجحيم يتكون من دهليز وتسع دوائر و « المطهر » من تسع مناطق و « جنة عدن » أو « الفردوس » من تسع مناطق ممثلة فى الكواكب « القمر وعطارد والزهرة وهكذا » وأعلى عليين أو « سدرة المنتهى » حيث الله ذاته ٠

وكان يقود « دانتى » فى رحلته فى العوالم الثلاثة ثلاثة أدلاء فقاده « فرجيل » و « ستاتيوس » ــ وقد اتخذهما رمزا للعقل الذى غلبه على الايمان فى تخبطه ــ عبر « الجحيم » والى قمة جبل « المطهر » ثم قادته « بياتريس » ــ وقد اتخذها رمزا للايمان ــ الذى أيقن انه العون الأوحد للخلاص من محنه ــ فى « الفردوس » ٠

واختياره عدد العوالم ثم عدد الأدلاء المرشدين لم يكن اعتباطا وانما هو استطراد لقاعدة التثليث مما يؤكد دقة حسابه وتخطيطه فى بنـاء القصة ومما يدل على ايمانه بأن التثليث هو قاعدة وجود الانسان ومصدر الوحى الذى تلهمه به السماء ٠

وقد تخيل « دانتي » — في خريطة ما وراء الحياة — أن « الجحيم » يقع في منتصف الأرض أو نقطة الوسط تماما وان جبل « المطهر » يبرز خلال سطح الأرض في موقع يقابل « بيت المقدس » تماما ، وان « جنة عدن » فوق ذروته العليا ومنها بدأ يرقى مع « بياتريس » الى السماء ٠ ويجدر بنا الآن بعد هذا التحليل السريع أن نلخص الكوميديا ٠

١ — الجحيم :

تاه دانتي وهو في الخامسة والثلاثين من عمره في غابة مظلمة فحاول الخروج منها بتسلقه أحد تلالها الشمسية ولكن اعترض طريقه فهد وأسد وذئبة وبينما هو يقف مرتعدا من الخوف لمح شبحا فطلب منه النجدة فاذا هو الشاعر اللاتيني « فرجيليو » الذي يهدىء من روعه ويخبره بأن « بياترتشى » هي التي أوفدته اليه لينقذه وليصحبه الى الجحيم والمطهر ثم تصحبه هي الى الجنة ٠ يصل دانتي الى الجحيم فيرى مكتوبا على بابها بحروف داكنة هذه العبارة :

« الطريق الى حيث القوم المجرمون فأنا عدالة الخلاق العظيم صنعتني يد القدرة الالهية والحكمة السامية والحب الأزلي لم يسبق وجودي غير الكائنات السرمدية ولقد كتب على الخلود فيا أيها الداخلون من بابي اتركوا كل أمل » ٠

يدخل دانتي بصحبة مرشده هذا الباب فيجدان نفسيهما في واد فيه أناس يصرخون من لسع النحل وحشرات أخرى : هم أرواح الذين عاشوا على الأرض دون ارتكاب اثم أو عمل خير وأرواح الجبناء والسلبيين ثم يجلس دانتي وفرجيليو في زورق ويسيران به في النهر الموصل الى طبقات جهنم ودوائره على حد تعبيره فينام دانتي نوما عميقا أثناء هذه الرحلة النهرية ثم يستيقظ ليقص أهوال الجحيم ويصف « طوبوغرافيتها » على الوجه الآتي : عندما نزل غضب الله على ابليس قذف به الى الأرض فأحدث ثقل جسمه الضخم فجوة هائلة على شكل مخروط رأسه في جوف الأرض ينقسم الى تسع طبقات أو دوائر يتناقص حجمها كلما اقتربت من رأس المخروط يسكنها الآثمون ٠٠ فالدائرة الأولى وتسمى « وادي الزفرات » تقيم فيها أرواح الأولاد الذين ماتوا دون « تعميد » والعلماء والفلاسفة والشعراء الذين عاشوا في عصور الوثنية ولم تدركهم المسيحية ولكنهم عملوا الصالحات في حياتهم الدنيوية ويتلخص عذاب هؤلاء في حرمانهم من رؤية الله ٠

وتضم الدائرة الثانية أرواح أهل الهوى الآثمين الذين تعصف بهم زوبعة هوجاء تجعلهم يدورون على أنفسهم دوران الخذروف (٨) ٠

وخصصت الدائرة الثالثة لأرواح النهمين الشرهين المفرطين في الأكل والطفيليين ويتلخص عذابهم في تساقط البرد عليهم وقطع الجليد ويمزق كلب ضخم جلودهم بمخالبه ٠

وتقبع في الدائرة الرابعة أرواح المسرفين والبخلاء حيث يدفع كل منهم بصدره صخرة ثقيلة ثم تدور كل طائفة منهما في اتجاه متعارض لاتجاه أختها ثم يتصادم أهل كل فئة بعنف ويتكرر هذا المنظر دون هوادة أو انقطاع ٠

ثم يصل دانتي وصاحبه الى مستنقع ملىء بالطين — هو الدائرة الخامسة — تغوص فيه أرواح مرتكبي الخطايا بدافع ثورات الغضب ومن بينهم أعداء دانتي من أهل فلورنسا ٠

وبعد اجتياز دانتي ومرشده هذا المستنقع في زورق يدخلان مدينة اللهب الكائنة في الدائرة السادسة وهي مثوى أرواح أهل البدع والهرطقة حيث ترقد توابيت من نار ٠

ثم ينزل الزائران بمشقة الى الدرك السابع من الجحيم وهو ينقسم الى ثلاث دوائر اختصت الأولى بالمتهورين واللصوص والثانية بالمنتحرين والمغتالين والثالثة بالعابثين في الذات الالهية ومرتكبي الشذوذ الجنسي وتنزل عليهم شواظ من نار دون انقطاع بينما هم يرقدون على رمال محرقة في أوضاع مختلفة ، ويجد دانتي في هذه الدائرة أستاذه «برونيتي» وقد شوهت النار وجهه ٠

أما الدائرة الثامنة فتتوسطها بئر عميقة تحيط بها عشر حفريات مستديرة تتصل فيما بينها بجسر من الحجارة ويضع فيها دانتي أرواح المرائين وهي تضرب بالسياط ثم تغمس في بحيرة من الغائط وأرواح الرهبان الذين باعوا الغفران للناس بالمال وقد دست رؤوسهم في جوف الأرض بينما اشتعلت أقدامهم نارا وأرواح المنجمين والعرافين وهي تسير القهقرى محرومة من النظر الى الأمام ، لأنها حاولت خداع الناس بادعائها كشف حجب الغيب وأرواح المرتشين من رجال القضاء وهي تغمس في قطران آن ، وأرواح المنافقين وقد غطت رؤوسها بقلانس من رصاص مصهور وقطاع الطرق وتلدغهم الأفاعي فيشتعلون نارا ثم يتحولون رمادا ثم يعادون الى الحياة وهلم جرا ، والمختالين والمغتابين وقد تقرحت جلودهم بعد اصابتها بالبرص والجرب ومزيفي النقود وقد أصيبوا بمرض الاستسقاء ٠

وأخيرا يصل الرجلان الى الدائرة التاسعة وهي قاع الجحيم وهي تنقسم الى أربع دوائر يتعذب في كل منها صنف من الخونة ففيها خائنو

الرابطة الزوجية وأواصر القرابة والمبادىء السياسية والوطن ويفترسهم ابليس بأنياب حداد .

وفيها أيضا ابليس وقد غمرته حتى صدره بحيرة من جليد ودموع الدم تنساب من مآقيه ، بينما يمضغ بين فكيه « يهودا » الذى خان المسيح « وبروتوس » و « كاسيوس » اللذين خانا يوليوس قيصر ولى نعمتهما .

٢ ــ المطهـر :

يتجه دانتى وفرجيليو بعد ذلك الى المطهر تاركين أهل الشمال فى العذاب المهين متجهين الى أهل اليمين وعندما وصلا الى المطهر شعرا بالهدوء التام وبدآ يستنشقان الهواء النقى تحت زرقة السماء الصافية وبينما يتطهر دانتى فى مياه بحر بجوارهما يقترب منهما زورق يتلألأ نورا يدير دفته ملك ثم تنزل من هذا الزورق أرواح كثيرة تستحم فى مياه ذلك البحر تطهر من الذنوب قبل دخولها الجنة .

ويتكون هذا المطهر من سبع دوائر تختص كل واحدة منها بخطيئة من الخطايا السبع الكبرى التى نص عليها الدين المسيحى : فالمتكبرون يطوفون بجبل المطهر وهم يحملون أوزارا يرغمهم ثقلها على احناء رءوسهم ، والحاسدون وقد التصقت أجفانهم فلا يستطيعون رؤية أى شىء ، والغضبى من الناس وقد غمرهم دخان كثيف ، وأهل الخمول والكسل يسيرون دون توقف والبخلاء والمسرفون منبطحون أرضا وأولو النهم الشره يتضورون جوعا وحلوقهم جافة من شدة العطش .

ومن قمة جبل المطهر يظهر الفردوس الذى تصعد اليه الأرواح بعد تطهرها من أدرانها .

ثم يجتاز دانتى ورفيقه سورا من اللهب ضرب بين المطهر والفردوس فيجدان الورد والأزهار وأجمل الرياض ثم تظهر له « بياتريتشى » وعلى رأسها تاج من أغصان الزيتون وعلى وجهها حجاب أبيض ويغطى جسدها رداء من نور عليه معطف فى لون الزمرد الأخضر وفى هذه اللحظة تنتهى مهمة فرجيليو فيختفى تاركا دانتى بين يدى « بياتريتشى » لتسير به بين دوائر الجنة ولكن قبل أن يلج دانتى باب الفردوس يغطس فى نهـر « النسيان » ليصبح خليقا برؤية الله .

٣ ــ الفـــردوس :

يصعد دانتى مع رفيقته الى تسعة أفلاك الواحد بعد الآخر . الأول فلك القمر حيث تقيم فيه أرواح البررة ، والثانى عطارد وتعيش فيه أرواح أهل الجد من المشرعين والحكام والثالث الزهرة ويضم أرواح أهل الزهد

والرابـع الشمس وفيه أرواح علماء الكنيسة على هيئة تيجـان من نور والخامس فلك المريـخ الذى يقطنه الشهداء ومن ضمنهم جـسد دانتى « كتشـاجويدا » و السـادس المشترى ويسكنه أهل العدل من الملوك والسابع زحل وفيه المتصوفون وأما الثامن فهو فلك النجوم الثابتة وتبدو فيه عظمة المسيح وجلال قدره وهو جالس بين القديسين والأولياء ويصعد الشاعر الفلورنسى الى الفلك التاسع فيتمتع بمشاهدة الجوهر الالهى ثم يرقي الى عليين حيث بهاء الذات العليا والتى طغى سنا نورها على عقله وذاكرته فجعله عاجزا عن وصف ما رآه ٠

★★★

يبقى القول بأن فكرة الكوميديا ليست جديدة ولا فريدة فى نوعها ولا هى غريبة فى بابها بل سبق دانتى اليها فى هذا المضمار أنبياء وشعراء ومفكرون ورواة نقلوا عن التراث الاسلامى الذى غزا أوروبا منذ استيلاء العرب على الأندلس فى صورة قصص دينية وأساطير ورؤى شعرا ونثرا وكان للاسلام الفضل فى ظهور ما يمكن أن نسميه « بأدب العالم الآخر » وانتشاره فى الغرب خلال القرون الوسطى ذلك لان مصير الروح بعد موت الجسد كان الشغل الشاغل لرجال الدين والأدباء بل ولعامة الناس فى أوروبا بصفة خاصة حتى وجدوا فى الاسلام معينا لا ينضب فانتهلوا منه ما شاءوا ٠

فدانتى لم يكن مبدعا ولا مبتكرا وانما راوية ينقل ويقتبس ثم يلبس ما انتحله أردية من خياله كشاعر ٠ والأفكار العلمية والفلسفية التى وردت فى الكوميديا ليست جديدة وانما هى تكرار لما جاء على لسان من سبقوه من فلاسفة وعلماء ومفكرين (٩) ٠

ابـداع تصـويرى

و « دانتى » ــ فى تنقله المنسق خلال العوالم الثلاثة التى ترمز الى نقمة الاثم والتطهر أو التفكير ثم المغفرة ــ يرمز كذلك ، وفى الواقع ، الى تراجع ٠٠٠ الى تحول تصوفى من الفساد الذى وصل اليه الانسان الحديث الى براءة الانسان الأول ويرسم « دانتى » فى « الجحيم » صورا لخطايا البشرية بطريقة بارعة اذ يربط كل خطيئة بعقابها : فالجشع الشره مثلا ، يمثله وهو يلغ فى الأقذار كالخنزير ، والعاشقان الآثمـان يرسمهما وعواصف الشهوات تتلاعب بهما فى عنف والبخيل يبينه وهو يحاول عبثا أن يزحزح صخورا هائلة ٠

وبعد أن ألم « دانتى » بهذه الآثام كلها ورجع عن ممارستها اقترب من « المطهر » وكأنه طفل ولد فهو طاهر من كل خطيئة من عمله وأن ظلت

عالقة بروحه اللعنة التى أورثه اياها « آدم » و « حواء » بخطيئتها ولكن هذه اللعنة وما تبقى من ميل الى الحسد والغرور والكفر لا تلبث أن تمحى فى أثناء جهاده لتسلق طبقات جبل (المطهر) فاذا بلغ قمته دخل « جنة عدن » وهو طاهر تماما كما كان « آدم » و « حواء » قبل أن يطردا من الجنة • واذ ذاك يصبح جديرا بأن يقاد خلال طبقات « الفردوس » مقتربا من الضـوء البـاهر الذى يغشى العيون ••• نور الله ، وألوانـه ، وموسيقاه ••• الى أن يقدر له فى لحظة لا تفوقها لحظة أن يبصر وأن يفهم وأن يظفر بأسمى ما يصل اليه الانسان وتمثل الرؤيا الوهمية لسر الثالوث المقدس ذروة الابداع الشعرى •

ومن العوالم الثـلاثة ــ « الجحيم » بما فيه من صـور للشهوات و « المطهر » بما فيه من مظاهر العطف والغفران و « الفردوس » بما فيه من تصور روحى لله ــ نجد أن (الجحيم) كان أقربها الى الاسلوب الواقعى فى وصفه •حتى ان الانسان ليشعر بأنها صورة صادقة لخزيه وعذابه •

أما « المطهر » و « الفردوس » فمع أن هناك من سبق « دانتى » الى تصويرهما الا أنه بلغ فى وصفه لهما أسمى درجات الابداع الفنى • والواقع أن « الجحيم » هو الذى ترك أبلغ الأثر فى نفوس الشعراء والرسامين اذ أن «دانتى » توسل ببعض الشخصـيات المعروفة ــ مثل (فرجيل) و (فاريناتا) و (كافالكانتى) ــ فى تصوير مناطقه •

ولعل المنظر الذى رسمه فى جوف « الجحيم » فى الأنشودة الرابعة والثلاثين يقوم دليلا على ايمان « دانتى » الوطيد بضرورة انتظام البشر فى وحدة تحت حكومة واحدة ، وعلى يقينه من أن هذه هى ارادة الله فقد تخيل « الشيطان » فى أعمق أعماق (الجحيم) وقد انصرف الى انزال عقاب أبدى بـكبار الخونة والغـادرين فى تاريـخ الانسـانية مثـل (يهوذا الاسخريوطى) الذى غدر بالمسيح و « بروتس » و « كاسيولا » اللذين اغتالا (يوليوس قيصر) •

علم « دانتى » ومعـارفه

ومما تنم عنه هذه الرحلة الخيالية : دراية « دانتى » دراية رائعة بالعلوم وتمكنه من فلسفة « أرسطوطاليس » واسـتيعابه تعاليم « تومـا الأكوينى » (١٠) فى الفلسفة اللاهوتية والمامه التـام بتاريخ « روما » القديم وتاريخ ايطاليا فى عصره ••• هذا الالمام الذى مكنه من أن يختار صورا للآثمين والتائبين والقديسين •

كذلك تكشف الرحلة عن كراهية عارمة للبابوات الذين لم يكونوا أهلا لمراكزهم الســامية والأمراء الفرنســيين الذين كانوا يتدخلون فى شئون بلاده ولتذبذب العامة من أهل « فلورنسا » ... كما تكشف عن تمسك لا يهن بالعدالة جعله يغفل كل اعتبار للصداقة الشخصية وهو يصور الخطايا وعقوبتها ... وعن مدى ما أترعت به نفسه من حب وحنان وشفقة انسانية فى الوقت ذاته .

على أن الأدعى من هذا كله الى الاعجاب بمقدرته الفـائقة هو انه تمكن فى سطور قلائل من أن يصور فى بساطة وواقعية وقوة تأثير مناظر لا تنسى ونخال ـ ونحن نقرؤها ـ أنها ليست من وحى خيال الشاعر وانما هى منقولة عن رؤية واقعية !

وقد ترجمت « الكوميديا الالهية » الى كثير من اللغات وكانت أسبق الترجمات الى اللغة اللاتينية فى عام ١٤٠٠ وترجمة ثانية الى اللغة ذاتها فى عام ١٤١٧ وكان الأسبانيون أول من ترجموها الى لسان قومى ، فقد ترجمت الى لغة أهل (قشتالة) (قسطلة) فى عام ١٤٢٨ والى لغة أهل « قطالونة » فى عام ١٤٢٩ ثم ترجمت الى الفرنسية فى القرن السادس عشر والى الألمانية والانجليزية فى القرن الثـامن عشر ومن الترجمات الممتازة الى الألمانية ـ فى القرن التاسع عشر ـ ترجمة بقلم « فيلاليتس » وهو « جون » ملك سكسونيـا .



عندما ظهرت طلائع المدرسة القصصية الشـاعرية « الرومانية » أصبح « دانتى » من كبار قادة هذه المدرسة فى فرنسا وألمانيا وأمريكا . ولعل خير تقدير له هو ما قاله « وليم جلادستون » الذى كان رئيسا لوزراء بريطانيا فى القرن التاسع عشر : « ان قراءة دانتى ليست مجرد متعة بل انه بطولة أو درس .. انه ترويض شـاق للقلب والفكر والانسان بأسره .. لقد تزودت من مدرسة دانتى بزاد عقلى ساعدنى على أن أمضى فى رحلة الحياة الى سن الثالثة والسبعين » .

ولقد لاقت الكوميديا بالرغم من ذلك شهرة عالمية كانتاج فكرى وتراث انسانى كما لاقى دانتى صيتا واسعا فما هو سبب ذلك ؟!

يرجع السبب الى عدة عوامل منها :

١ ـ التراث الاسلامى الذى نقــل عنه الشاعر الفلورنسى الشىء الكبير .

٢ ـ طريقة نظمه التى ترتكز على قوة البنـاء ومتانة الأسـلوب وترابط المعـانى والحســاب الدقيق الذى التزمه فى قافية الثنائيـات

والثلاثيات المتشابكة والتى تتطلب عقلا رياضيا وصبرا مضنيا وقريحة ومواد غزيرة واطلاعا واسعا ·

٣ ـ الرموز التى ملأ بها الكوميديا فأكسبتها ابهاما وتعقيدا زاد فى روعتها فى أعين قرائهـا ودفع النقاد الى محاولة كشف أستارهـا واستشفاف أسرارها فتضاربوا فى تفسيرها ·

فلقد ألبس دانتى مدرسة الرموز الاغريقية ثوبا قشيبا وصبغها بلون أدبى رقيق مبهم يترك أكثر من معنى فى نفس القارىء ·

٤ ـ مختلف العلوم والمعارف والمذاهب الفلسفية التى دسها فى صلب الكوميديا بطريقة مسلية جعلها دائرة معارف مصغرة يطوف القارىء متنقلا بين مملكة الظلام بما فيها من عذاب وبكاء وعويل ومملكة السعادة الأبدية حيث النعيم المقيم والنور الالهى ·

ولم تسلم الكوميديا من لسان الناقد اللاذع فولتير اذ يقول عنها :

« ان الكوميديا أصبحت لا تقرأ فى أوروبا لكثرة ما فيها من كناية وتلميح الى أحداث مجهولة ولا يحتفظ بها فى مكتباتهم الا المولعون بالتحف لا بالقراءة ·

ويلقبه الايطاليون بالأديب الرائع ولكن روعته مستترة غير مرئية وان التضارب فى تفسير رموز كتابه لهى الدليل على انه مبهم غير مفهوم » ·

وقال عنها « فلوبين » : « لا أريد أن أقول عن الكوميديا بأنها مملة لانها كتبت لعصر معين لا لكل العصور » ·

وحللها « اوزانام » بهذه الجملة : « ان الكوميديا هى نتيجة أفكار استقاها دانتى فى مثابرة طويلة من المدارس المسيحية والعربية والسكندرية واللاتينية والاغريقية ولكن يظهر فيها بوضوح وحى الشرق » ·

ونحن نؤكد بدورنا ان التراث الشرقى العربى الاسلامى هو الذى خلدها ·

دون كيشوت

سرفنتيس

١٦٠٥م

كثير من عظماء الرجال وافذاذ الانسانية لم تقدر عبقريتهم ويعترف بفضلهم فى أثناء حياتهم وقد يظفر بعضهم بعطف قلة من معاصريهم ويحظى بتشجيعهم ، ولكن أعمالهم برغم ذلك تظل عرضة للشك ومثار جدل وخلاف حتى تنقضى حقبة من الزمن يختفى فيها من الميدان الرجال الأقل قيمة والأدنى منزلة ، الذين نالوا مكانة لم يكونوا بها جديرين وأصابوا من الاعجاب والتقدير مالا يستحقون ، ويظهر حينذاك فضل هؤلاء الذين عقهم عصرهم وغمطهم حقهم . وكثيرا ما يحدث أن هؤلاء الذين ملأوا عصرا من العصور ضجة ودويا ووصلوا بين معاصريهم الى المكانة الشماء يجر عليهم النسيان أذياله ويطويهم الزمن فى غياهبه فلا تحفل الأجيال التالية بآثارهم وتعرض حتى عن ذكر أسمائهم فى حين أن الرجال العظماء حقا يعيشون فى أعمالهم الخالدة ويبقى ذكرهم ما بقيت الانسانية ومنهم من ذاق مرارة الاخفاق وعرف آلام الحرمان .

ورواية دون كيشوت من أشهر الروايات العالمية واحدى الطرف الأدبية والمعدودة ، وقد اشتهرت مغامرات بطلها هذا ، أو بالأحرى حماقاته المسلية وكيف كان يسير مع تابعه سانكوبانزا ويثبت اقدامه وشجاعته وميله الى الأخذ بيد الضعفاء ومناصرة المظلومين بأساليب مختلفة تدل على الغفلة والسذاجة والمقتربة بطيبة النفس والمثالية العمياء . ولا يعد هذا الكتاب الذى سجل مغامرات هذا الفارس المغوار وتابعه المسكين مجرد قصة وانما هو صورة لأسبانيا فى عصره وحياتها من شتى نواحيها فى القرن السادس عشر فهى تمثل أفكار الشعب وتصور مشاعره تصويرا لايستطيعه سوى فنان عبقرى موهوب حاد الفطنة نافذ البصيرة .

كتاب عرفه العالم قبل ان يعرف صاحبه !

وحينما ظهر الكتاب فى أسبانيا سنة ١٦٠٥ لم يكن أحد يدرى أنه سيكون من الكتب العظيمة الخالدة وأنه سيترجم الى لغات العالم جميعها ومنها لغتنا العربية ولم يعن أحد بمعرفة مؤلفه أو بذكره بعد موته ولكن حينما عرف مواطنوه الأسبانيون أنه أصبح له شهرة عالمية أخذوا فى بحث سيرته وتحرى أخبار حياته ووجدوا انه يستحق الشهرة الواسعة بوصفه انسانا ، فضلا عما يستحقه من الشهرة بوصفه أحد كتاب العالم المعدودين .

كان سرفنتس جنديا وليس من عادة الجنود أن يشتغلوا بكتابة القصص ولكنه لم يكن جنديا فى جيش منظم يتلقى التدريب كل يوم فى الثكنات ، وانما جندى آثر أن يذهب الى الحرب ويخوض غمارها ويستهدف أخطارها ويتحمل فى صبر وجلد مشقاتها وقد أفاد من ذلك معرفة واكتسب خبرة بالحياة والمجتمع أعانها خياله الخصب وشاعريته وقدرته الفنية ٠

وقد ولد سرفنتس فى سنة ١٥٤٧ وكان أبوه بيطارا بمدينة قلعة ايناريس وكانت هذه المدينة حينذاك مركزا مهما من مراكز العلم المسيحى ، فقد أوجد فيها الكاردينال اكزيمنيس جامعة فى سنة ١٥٠٨ ٠ ولكن سرفنتس لم يلتحق بهذه الجامعة لان أهله كانوا فقراء ولكنه عمل على أن يتلقى من اللاتينى ما يمكنه من قراءة الآثار اللاتينية الأدبية وقد استدل الذين ترجموا له على فرط ميله للقراءة من قوله انه كان يقرأ كل ما يقع فى يده حتى قصاصات الورق التى يلتقطها من الطريق وقد اعتاض عن الدراسة المنظمة بمعرفة النـاس والحياة معرفة يغبطه عليها الدارسون والعـلماء ٠

وقد حاول الكتابة مبكرا ونظم قصيدة وهو فى العشرين من عمره بمناسبة وفاة ملكة أسبانيا وأثنى على القصيدة أستاذه ، ومرت سنوات قبل أن يستطيع أن يفرغ للأدب ومعالجة الكتابة والتاليف وكان يشعر بأنه يملك الموهبة ولكن ظروف الحياة القاسية لم تتح له الفرصة لاختبار قدرته وشحذ ملكته وكان مطبوعا على حب المغامرة ، فاغتنم أول فرصة لاحت له لممارسة الحياة ومعاناة التجارب فقد التحق بخدمة القس الايطالى الشاب أكوفيفا بوصفه رئيسا للخدم ٠

وكان البابا قد أرسل هذا القس الى الملك الأسبانى فيليب الثانى وغضب الملك عليه وأمره بمغادرة أسبانيا خلال شهرين وقد انتقل معه سرفنتس الى ايطاليا عند عودته اليها ولكن سرفنتس لم يرض عن الحياة المملة الخالية من الحوادث الشائقة فى ظل راعية القسيس ولم يكن ممن يحسنون الملق والمداهنة والدس ولذلك استقال من عمله ٠

والتحق بالجندية فى الفرقة الأسبانية التى تكونت فى ايطاليا وكان البابا بيوس الخامس ينظم حينذاك حلفـا مقدسا لوقف تقدم الأتراك العثمانيين فى أوروبا وكانت فتوحاتهم العظيمة وانتصاراتهم الباهرة قد أدخلت الرعب فى قلوب الحكومات الأوربية ولكن كانت هناك صعوبة فى توحيد الكلمة وجمع الصفوف والاتفاق على خطة لصد تيار الهجوم التركى ٠ كانت المنافسات بين الدول الأوربية لا تمكن من عقد الاتفاق والتغلب على أسباب الخلاف والشقاق وأخيرا وبعد ابطاء طويل قضاه سرفنتس فى نابولى تكون الحلف من البابا والبندقية وأسبانيـا تحت

قيادة دون جيوان النمساوى ، وكان قائدا بارعا وهو أخو فيليب الثانى وكان أسطول هذه الدول الثلاث يعد أعظم أسطول يحمل علم المسيحية وكان فيه سفن يجدف بها عدد من البحارة كلهم من المجرمين المحكوم عليهم • وفى سفن الأتراك كانت البحارة من الجنود الانكشارية وكان هدف المتحالفين استرداد جزيرة قبرص من الأتراك ولكن ، قبل وصول الحلفاء الى الجزيرة نشبت معركة رهيبة عند خليج ليبانتو الواقعة عند مدخل خليج كورنت انتصر فيها الحلفاء بعد جهاد شديد •

وبرغم ان سرفنتس كان يعمل جنديا بسيطا فقد أظهر شجاعة استرعت الأنظار وحازت التقدير ، وكان مصابا بالحمى فى نابولى ولكنه أصر على الاشتراك فى المعركة برغم مرضه ، واختار مكانا معرضا للهجوم الشديد من السفن المعادية وقد أصيب فى المعركة بثلاث قذائف اثنتين فى الصدر والثالثة فى يده اليسرى وظلت يده مشلولة طوال حياته وقد أكسبه موقف البطل هذا اعجاب زملائه وظل هو نفسه يرى أن هذا الموقف هو أنبل مواقف حياته وأحقها بأن يفخر به •

وقتل من الأتراك في هذه المعركة الدامية قرابة عشرين ألفا وفقدوا مائة وسبعين سفينة • ولم تقض هذه المعركة على قوة الأتراك ولكنها أوقفت تقدمهم وأقنعت الحلفاء بأن الأتراك يمكن هزيمتهم وكانت انتصارات الأتراك المتلاحقة قد جعلت الأوربيين يشكون فى قدرتهم على ايقاع الهزيمة بالأتراك وردهم على أعقابهم •

وهبت عاصفة فى اثر المعركة ، وأبحر دون جيوان النمساوى الى مسينا ومعه جرحى المعركة وكان من بينهم سرفنتس الذى كان جرحه بالغا وأعطيت له هبة من المال لقاء شجاعته ولكنه كان شديد التوق الى العودة الى ميدان القتال ولم يمض زمن طويل حتى عاد الى الانضمام للجيش واشترك فى محاولة دون جيوان الثانية للتغلب على الأسطول التركى ولكن هذه المحاولة لم تنجح •

وتلا ذلك هجوم على أفريقيا والاستيلاء على تونس ولكن سرعان ما استردها الأتراك واستغرقت هذه المحاولات والمغامرات أربع سنوات عانى سرفنتس فى خلالها شدائد الحرب وتعاورته محنها وذاق لذة الانتصار وتجرع مرارة الهزيمة • وقد صار بعد هذه التجارب المرة جنديا مبتور اليد وعرف ما يعرض الحياة الجندى من الأعمال العظيمة ولكنه عرف كذلك الاخفاق وخيبة الرجاء •

ولما كان قد غاب عن بلاده ست سنوات فقد التمس العودة اليها ومنح هذا الحق وترك نابولى فى سفينة قاصدة الى أسبانيا وكان يحمل رسالتين يشيدان ببطولته وحسن بلائه احداهما من دون جيوان نفسه

والأخرى من دوق سيسا لفيليب الثاني وكانت هاتان الرسالتان من أسباب نكبته فقد هاجمت السفينة التى تحمله سفن القراصنة من الجزائريين فى الريفيرا الفرنسية وأخذته أسيرا مع جماعة من الأسبانيين ولما وجد القراصنة معه الرسالتين ظنوا أنه من علية القوم وان له شأنا وغالوا فى طلب الفدية وقد حمل سرفنتس مع سائر الأسرى الى الجزائر ووضع تحت حراسة رجل من أصل يونانى اعتنق الاسلام ·

وأظهر سرفنتس فى أثناء أسره الذى استمر خمس سنوات شجاعة نادرة وأظهرت الأحداث التى توالت عليه ما تنطوى عليه نفسه من نبل وسماحة · ودبر خططا للهرب من الأسر ولم يمنعه اخفاق احدى الخطط من محاولة تدبير خطة أخرى وفى أول محاولة أفسد الخطة أحد المغاربة وكان قد اتخذه دليلا فأفشى سر المحاولة فى اللحظة الأخيرة واضطر الهاربون مع سرفنتس الى العودة الى الجزائر واحتمل هو التبعة ، وعوقب من أجل ذلك عقابا شديدا · وفى السنة التالية أرسل والده مبلغا من المال لافتدائه ولكن المبلغ المرسل لم يكن كافيا وأطلق سراح أخيه رود ديجو فعاد الى أسبانيا ومعه طلب من سرفنتس يوصى فيه باعداد سفينة وارسالها للجزائر لتمكنه من الهرب مع زملائه من الأسرى وأعد العدة للهرب ، وخبأ نحو خمسين من الأسرى الأسبانيين فى كهف خارج المدينة وظل يقدم لهم الطعام مدة ستة أشهر وأخيرا جاءت السفينة المنتظرة واستعد هو ورفقاؤه للهرب والابحار عليها ولكن شاء الحظ أن يكشف أمرهم فى اللحظة الأخيرة وأحاطت به قوة مسلحة من الجند الأتراك وأبى سرفنتس الا أن يحمل الوزر كله وحده وبرغم تهديده بالتعذيب والموت فانه رفض القاء التبعة على أحد من رفاقه · ولم يكن الحاكم التركى الذى مثل سرفنتس بين يديه يتردد فى اصدار الحكم بالاعدام فى أمثال هذه الحالة ولكن يبدو أن ثبات سرفنتس واصراره على الانفراد باحتمال التبعة أثرا فى نفسه وحملاه على الظن بأن هذا الأسبانى الجرىء لابد أن يكون له شأن خاص وربما أمكن الحصول على فدية ضخمة من وراء الابقاء على حياته ·

واتفق تاجران أسبانيان على تجهيز سفينة مسلحة تتسع لستين من الأسرى ولكن راهبا أسبانيا كان يكره سرفنتس لأسباب مجهولة أفشى سر المحاولة وكان فى استطاعة سرفنتس أن يهرب بسهولة ويتخلص من حياة الأسر الشاقة لو أنه وافق التاجرين على أن يهرب بمفرده ولكنه أبى أن يهرب ويترك رفقاءه فى الأسر ولكى يجنبهم التبعة قدم نفسه للحاكم وقد سيق اليه وحول عنقه حبل وأظهر شجاعة كعادته أمام الحاكم وكان المنتظر هذه المرة أن يحكم عليه بالشنق أو على الأقل يجدع أنفه أو تقطع

أذنه ولكن الحاكم اكتفى هذه المرة بحبس الأسبانى المقطوع الأيدى مقيداً بالاغلال مدة خمسة أشهر ·

وقامت محاولات فى أسبانيا لافتدائه وكان والده قد توفى ولكن والدته وأخواته عملوا على جمع ما يستطيعون من المال وقدم الملك اعانة لوالدة سرفنتس لقاء خدمته فى الجيش كما أمدتها بعض المؤسسات الخيرية بمبلغ من المال وأرسل راهب أسبانى الى قرصان الجزائر للمساومة فى اطلاق سراحه · ويروى أنه لو تأخر الراهب قليلا لكان سرفانتس قد نقل الى القسطنطينية ليباع بها فى سوق الرقيق العام ·

ولما عاد سرفنتس الى أسبانيا ترك الجندية للاشتغال بالأدب ونظم شعراً وكتب تمثيليات وروايات ونقداً أدبياً ولكنه لم يوفق فى ذلك كله وكان يعانى من الضيق وقد انفقت الأسرة ما عندها ليستعيد حريته · ولو عاش مثل هذا الرجل فى عهد انتشار الصحافة لاشتهرت مغامراته فى الخافقين وعد من أبطال العصر وشخصياته اللامعة وكان راعيه دون جيوان قد مات حين وصوله الى أسبانيا فلم يجد أحداً يقدر ماضيه وحسن بلائه ويقول عنه كلمة طيبة تقربه من أصحاب السلطة والنفوذ · وكانت أسبانيا حينما عاد اليها فى سنة ١٥٨٠ قد بلغت الذروة فى المكانة بين الدول الأوربية وكان ملكها فيليب الثانى لا يحكم أسبانيا وحدها وانما يحكم معها كذلك البرتغال والأراضى المنخفضة وجزءاً كبير من ايطاليا وجزءاً من شاطىء أفريقيا الواقع على البحر الأبيض المتوسط والدنيا الجديدة من شيلى الى فلوريدا أو قرابة ثلاثة ارباع القارة الجديدة ·

وكانت أسبانيا مسيطرة فى البر والبحر ، مما آثار المنافسة الشديدة بينها وبين الدول الطامعة فى توسيع رقعتها وبسط نفوذها ولكن هذه العظمة كانت قائمة على اتساع الحجم وترامى الحدود فى حين ان الفساد كان متغلغلا فى صميم الدولة فقد ملكت شهوة جمع الذهب والطمع فى التوسع والنفوس مما يوضح لنا أن عبادة القوة وشره حب الامتلاك يؤديان الى السقوط والخراب فقد شرعت الناس تفخر بما تملك من الأميال المربعة وما تسيطر عليه من النفوس وشغل تفكيرها بالأهداف المادية المحضة واتخذت الدولة سياسة العدوان والتوسع فى بسط السلطان وأهملت الحاجة الى الاصلاح الاجتماعى والاصلاح الاقتصادى ولم تعن بأحوال الطبقة الفقيرة بل حاولت أن تستغلها · وأثارت الكثير من الحروب ولم يكن عجيباً اغفال أمر الجندى الباسل الفقير المغمور سرفنتس فى مثل هذه الأحوال ·

وقد ألف رواية أسماها « جالتيا » ضمنت له الشهرة ولكنها لم تدر عليه من المال ما يكفى للاقبال على التأليف والافادة من مواهبه الأدبية

وتزوج سرفنتس فى السابعة والثلاثين من عمره من سيدة تسمى كاتالينا حملت معها له بائنة مكونة من أربع خلايا نحل وملاءتين من الكتان وثلاث من القطن وبطانية جيدة وأخرى مستعملة وأربعين دجاجة وملكية مزرعة كروم صغيرة وعجب جيرانه من أمر هذه السيدة التى تقبل الزواج من مثل هذا الجندى المقطوع اليد الذى لا يملك شروى نقير ويكبرهـا بسنوات كثيرة ٠

وأقبل سرفنتس على الكتابة والتأليف وبذل جهده ولكنه عجز عن منافسة معاصره المؤلف الدرامي الشهير « لوب دى فيجا » فقد كان ذائع الصيت كثير الأنصار والمعجبين وكانت له قدرة على الابتكار لا تبارى ويروى أنه ألف ألفا وثمانمائة مسرحية غير الأشعار التى نظمها والقصص التى كتبها ولم يبق من آثاره الا القليل ٠ وقد كانت الدرامات الأسبانية هى الأمثلة التى احتذاها كتاب الدراما فى انجلترا وفرنسا وغيرهما من الدول الأوربية ٠

واضطر سرفنتس الى البحث عن عمل آخر ليعيش منه ويعول أسرته وكانت الحكومة الأسبانية حينذاك تعد أسطولها الأرمادا لمهاجمة انجلترا واستطاع سرفنتس أن يحصل على وظيفة لتوريد الأغذية والأخشاب وما اليهما وبيعها للأسطول وكان هذا العمل مما يضيق عنه ذرعه ٠ وعين بعد ذلك فى الوظيفة المتواضعة وظيفة جابى الضرائب وسرعان ما أبغض هذه الوظيفة وعانى مشكلاتها والتمس من الحكومة أن تعينه فى وظيفة أخرى ولكن التماسه أهمل وظل فى الوظيفة الكريهة وعصره الفقر حتى كان يجد صعوبة فى الحصول على الملبس ، وأثار عجزه فى المسائل العملية الشبهة فى أمانته وحبس فى أشبيلية لوجود عجز فى عهدته ولم يعطف فيليب الثانى على هذا الجندى القديم والكاتب المكافح وحينما مات فيليب الثانى وخلفه ابنه فيليب الثالث أغفل هو كذلك شأن سرفنتس ولم يعمل على انصافه وتفريج أزماته ٠

سرفنتس يكتب قصته الخالدة

وفى غمرة هذا الشقاء وخلال هذه المثبطات ومواجهة هذه الصعاب شرع سرفنتس فى تأليف كتابه العظيم وروايته الخالدة وفى سنة ١٦٠٥ ظهر الجزء الأول منها وبرغم النجاح الذى لقيته واقبال القراء على قراءتها والاعجاب بها فان الكنيسة لم ترض عنها ٠ وكتب « لوب دى فيجا » المؤلف الموفق الناجح يقول عن معاصره التعس الحظ : « ليس هناك شاعر أسوأ من سرفنتس ولا شىء اسخف من امتداح دون كيشوت » ٠

وكانت الناس في ذلك العصر تقرأ روايات الفروسية التي تروى مغامرات سخيفة مشحونة بالمبالغات التي لا يقبلها العقل عن الفرسان وجولاتهم لاجتذاب الأميرات الحسان واستنزالهن من القلاع والحصون • وقد أراد سرفنتس أن يسخر بهذا النوع من البطولة الزائفة ويكشف ما تنطوى عليه من سخافات وحماقات وتهويلات ومبالغات ، ومكنه خياله الخصب وتجاربه المنوعة من أن يقدم لنا في كتابه صورة شاملة للحياة الأسبانية فى عصره من خلال تصويره لبطله الذى أفسد عليه تفكيره امعانه في الاطلاع على أقاصيص البطولة • وتابعه الذى كان يحاول عبثا أن يبصره بالواقع ••

الرواية وخلاصتها

دون كيشوت – هو رجل نحيف طويل قد ناهز الخمسين – برجوازى متوسط الحال يعيش في قرية من قرى اقليم لامنشا بأسبانيا • لم يتزوج • ولا يعيش معه فى بيته القروى الا ابنة أخت له وخادمة تتكفل بشئون البيت ولديه من الفراغ ما يسمح له بالقراءة والمطالعة ويقوده مزاجه الى كتب الفروسية والتى تسرد وقائع الأبطال والمغامرين من الفرسان الجوالين فيجتمع له قدر ضخم يعكف الليل والنهار على قراءته ويشغف بها شغفا يملك عليه حسه حتى يكاد يفقد عقله وينقطع ما بينه وبين الحياة الواقعية ثم يبلغ به الهوس حدا يجعله يفكر فى أن يعيد دور هؤلاء الفرسان وذلك بمحاكاتهم والسير على نهجهم حين يضربون الأرض ويخرجون لكى ينشروا العدل وينصروا الضعفاء ويدافعوا عن الأرامل واليتامى والمساكين •

وقر عزمه على الخروج • وأعد له عدته فاستخرج من ركن خفى بالمنزل سلاحا قديما متآكلا خلفه له آباؤه منذ زمن قديم فأصلح من أمره ما استطاع وأضفى على نفسه درعا ولبس خوذة وحمل رمحا وسيفا ووضع فى ذراعه درقة وركب حصانا أعجف هزيلا أطلق عليه اسم روسينانتي ، كما أطلق على نفسه هو اسم دون كيشوت دى لامنشا بدلا من اسمه الأصلى كيخانا الطيب وأخذ يدير في رأسه أسماء من عرف من قرويات فاستقر على اسم احداهن فصارت دولثينيا دالتوبوسو • وتخيل أنه لها محب ولهان شأن الفرسان السابقين مع حبيباتهم وخرج دون أن يشعر به أحد قبيل الفجر فى يوم من أيام الصيف وهو على هذه الهيئة الغريبة التى انقرض أصحابها منذ أجيال يلتمس المغامرات ويمنى نفسه الأمانى وتهجس فى صدره وساوس عظيمة •

ثم تذكر وهو سائر فى طريقه فرحا مزهوا أن خروجه غير شرعى وانه لكى يصبح فارسا جوالا ذا حق فى استخدام السلاح ينبغى أن ينصب فارسا على يد شيخ من الفرسان معترف به حسب ما هو مدون فى كتب الفروسية التى قرأها ويضطرب لذلك الأمر شديدا • ولكنه يرى عن بعد خانا صغيرا مما ينزل فيه المسافرون وسرعـان ما تخيله قلعة ذات أسوار وتخيل صاحب الخان فارسا عظيما فركع أمامه ودعاه الى تنصيبه فارسا ومضى صاحب الخان فى المهزلة فحقق له ما أراد •

ويعود دون كيشوت فرحـا الى قريتـه ليحمل معه بعض ما يلزم الفرسان من متاع فيلقى فى طريقه فلاحا يضرب غلاما له • ويمارس للمرة الأولى حقه فى الفروسية ويهدد الفلاح برمحه ويخلص الصبى المسكين من يده ويمضى معتقدا أنه أسدى يدا عظيمة على حين يعود الفلاح الى غلامه فيزيده تنكيلا وعذابا •

ويعود الفـارس الجوال الى منزله على حمار فلاح من أبنـاء قريته صادف الفارس طريحا على الأرض بعد معركة ضرب فيها ضربا مبرحا على يد تجار استفزهم بجنونه ويدخل بيته وهو يهذى هذيانا طويلا بكت له صاحبتاه •

ويقر عزمه على الخروج ثانية ولا يستطيع أن يثنيه عن حمقه أحد ، لا صاحبتاه ولا صديقاه المخلصان له : قسيس القرية وحلاقها اللذان أحرقا مكتبته أثناء غيابه مقدرين انها مصدر جنونه بل ان الفارس يستطيع خلال اقامته القصيرة أن يستغوى فلاحا ساذجا هو سانشو بانثا فيفاوضه على أن يكون تابعا له وحاملا لشعاره شأن اتباع الفرسان فى قصص الفروسية ويمنيه الأمانى ويعده أن يجعله حاكما على احدى الجزر حين يفتح الله عليه ويهبه النصر والمجد المنتظر ويصدقه سانشو ويضـع خرجه على حماره ويركبه ويسير خلف سيده الراكب على حصانه ويصبح شاهدا وشريكا له فى مغامراته كلها وهو يرجو وينتظر أن يتحقق له ما وعده به سيده من امارة وحكم •

ويخرج الفارس وتابعه خلسة بعد أسبوعين من عودته الى الدنيـا العريضة وهذا هو خروجه الثانى •

وأثناء هذا الخروج يقوم الفارس بمغامرات عديدة ما هى فى حقيقتها بمغامرات ولكن خيال الفارس يأبى الا أن يجعل من الشىء العادى المألوف أمرا خطيرا يستحق المغامرة • وأول الحوادث هى معركته مع طواحين الهواء اذ توهم انها شياطين ذات أذرعة هائلة واعتقد انها مصدر الشر فى الدنيا فهاجمها غير مصغ الى صراخ تابعه وتحذيره ورشق فيها رمحه فرفعته أذرعها فى الفضاء ودارت به ورمته أرضا فرضت عظامه ، ثم تصادف فى

يوم تال عربة تجرها الخيل فيها امرأة مسافرة حولها الخدم وأمامها راهبان على بغلين فيدخل في وهم الفارس انها سيدة قد اختطفت وقيدت قسرا وأن واجبه تخليصها من أسرها وأن الراهبين ساحران خبيثان فيهاجم الراهبين ويخوض معركة مع خادم للسيدة تنتهى بضربة تسقط الخادم عن دابته ولا ينقذ الموقف الا تعهد المهزوم أن يمضى فورا الى بلد التوبوسو ليقدم نفسه خاضعا لدونثينيا سيدة الفارس يسألها العفو ويشهد ببطولة دون كيشوت حبيبها ٠

ولا يسلم سانشو خلال مغامرات دون كيشوت من أذى يصيبه فلقد ضرب ضربا شديدا فى معركة دارت بين الفارس وبين فريق من تجار جليقية وكان جانيها روسينانتى حيث تحكك فى أفراس أولئك التجار ٠ وكذلك حدث فى فندق نزل فيه الفارس أن أخذ بعض العابثين يتقاذفون سانشو فى ملاءة سميكة أمسكوا بأطرافها من كل جانب يرفعونها ويهبطون بها فيتعالى سانشو فى الهواء ويتكور ثم يسقط ليعود الى التحليق مرة بعد مرة ولم تفارق ذاكرة سانشو هذه الدعابة الموجعة القاسية التى كان سببها امتناع دون كيشوت عن دفع أجر لمبيتهما فى الفندق اذ توهم انه بات ليلته فى قلعة من قلاع الفرسان ولا يجوز فى حكم الفروسية أن يدفع أجرا فى مثل هذه الحال ٠

وسانشو بانثا يحب السلم ويؤثر المسكنة على القتال ، ولكن المشكلة تجىء من أن دون كيشوت بوصفه فارسا لا يباح له الا قتال الفرسان وحدهم فاذا جاء العدوان وان يكن لسوء تصرفاته هو من مدنيين لا يحملون سلاح الفرسان ، فقد وجب أن يتكفل سانشو برد هذا العدوان والنتيجة الحتمية لذلك أن يتحمل سانشو ما يتحمل من لكمات وصفعات وضرب بالعصى وتمرغ فى التراب ورجم بالحصا وتقاذف فى الملاءات !

ثم تجىء بعد ذلك معركة الأغنام المشهورة فلا يكاد دون كيشوت يبصر غبار قطيع من الأغنام يملأ الجو يتخيل أنه يشهد زحف جيش عظيم ويتصاعد غبار من الجهة المقابلة لقطيع آخر فيؤمن بأنها المعركة الهائلة بين جيشين لملكين أحدهما مسلم وثانيهما مسيحى ويأخذ فى هذيان طويل يشرح فيه لتابعه أمر الجيشين وسبب القتال بينهما ثم يندفع بحصانه يخوض المعركة التى أتاح له القدر ليثبت فيها شجاعته ويخلد اسمه وتنجلى المعركة عن قتل عدد من الأغنام برمح الفارس وعن سقوط الفارس تحت وابل من أحجار الرعاة يفقد فيها عددا من أضراسه !

الفارس فى مثل هذه المعارك يدرك الحقيقة بعد هزيمته ولكنه لايفسر الأمر على الوجه الصحيح فيرجعه الى جنونه هو ، وانما يفسره على أن خصومه من السحرة قد أرادوا حرمانه من نصر مؤكد ومجد لابد أن

يظفر به ، وقد مسخوا بسحرهم العمالقة الشياطين الى طواحين هواء والفرسان المحاربين الى أغنام ! وهكذا الهمة أو لا · ويصدقها دون كيشوت ويمضى معها ويتكامل الموكب ويأخذ الطريق الى قرية دون كيشوت ·

وعاد دون كيشوت الى قريته فى وضح النهار من يوم عيد وأهل القرية مجتمعون فى الطرق والميادين فقوبل بالعجب والأسف ودخل منزله بين بكاء صاحبتيه – ابنة أخته وربة منزله – وعويلهما ووضع فى فراشه مهزولا منهوك القوى ·

وذلك هو آخر الخروج الثانى وبه يختتم النصف الأول من الرواية ·

أما القسم الثانى من الكتاب – وقد طبع بعد عشر سنوات من صدور القسم الأول فيبدأ ودون كيشوت معتكف فى بيته والذين حوله يتجنبون اختبار ذهنه مخافة أن يرتد اليه جنونه ثم يكتشفون أنه لم يشف من جنونه رغم الاعتكاف والمعالجة ويلقى سانشو سيده ويفضى اليه مما ذكره له سانسوكراسكو – وهو طالب علم من أبناء القرية يدرس فى جامعة سلمنقة من أن كتابا ألفه مؤرخ اسمه سيدى حمادة بن الجيلى قد صدر مطبوعا وهو يقص مغامرات دون كيشوت وأعماله فى خروجه الأول والثانى ثم يستدعى كراسكو الى منزل دون كيشوت ويجتمع به وبسانشو فيحدثهما عن الكتاب وما فيه ويعجب الرجلان ويقدران أن مؤلف الكتاب انما هو من سحرة العلماء ويبين خلال المناقشة مقدار ما عليه الطالب كراسكو من خبث ودهاء ومن ميل الى الفكاهة والعبث ·

ويعلن دون كيشوت اعتزامه الخروج الثالث ويستشير كراسكو فى جهة المسير فيشير عليه بأن يذهب الى سرقسطة وتسمع صاحبتا المنزل هذا فيأخذهما الحزن والألم ويشتد غضبهما على كراسكو ويسوؤهما أن يمد الطالب العلم لدون كيشوت من حبل جنونه وهما لا يعلمان أن كراسكو يدبر فى رأسه أمرا ·

وفى مساء يوم من الأيام يخرج دون كيشوت وسانشو فى هيأتهما السابقة ، هذا على حصانه روسينانتى وعليه سلاحه وهذا خلفه على حماره وفى وداعهما شخص واحد هو الطالب كراسكو · ويريد دون كيشوت قبل البدء فى مغامراته أن يتلمس التأييد والبركة من حبيبته وأن يستفتح جهاده بالحج اليها فيتخذ طريقه الى بلد التوبوسو ويصل الفارس وتابعه ليلا الى القرية ويطوفان حولها حتى يقبل الفجر وانها لمشكلة لابد لها من حل : فلا الفارس وتابعه ولا أحد فى ذلك الموضع يعرف من تكون دولثينيا هذه ولا أين يقوم قصرها ويتفتق ذهن سانشو عن الحل فلا يكاد يرى عددا من القرويات على حميرهن يذهبن مبكرات الى الحقل حتى يعلن لسيده أنه موكب السيدة العظيمة دولثينيا ويركع الفارس أمام احداهن داعيا

شاكيا مبتهلا بين تعجب القرويات ونفورهن وأخيرا يعتقد دون كيشوت على عادته أن السحرة من خصومه أرادوا حرمانه من الاستمتاع برؤية محبوبته فمسخوها قروية قبيحة جافية وهي حيلة صنعها سانشو بنفسه ولكنه سيعود مؤخرا الى الشك فيما اختلقه هو !

ويمضي الفارس بعد ذلك في طريقه ..

فـــارس الأسود !!

ويعترض طريقه فارس مجهول لديه يخفي وجهه ويلقب نفســـه بفارس المرايا ومعه تابع له على هيئة الفرسان الجوالين وأتباعهم ويدخل الفارس المجهول في جدال مع دون كيشوت ويتحداه بأن محبوبته أجمل من دوليثينيا دالتوبوسو ، ويطلب اليه أن يعترف بذلك والا وجب عليه أن يبارزه وأن على المهزوم أن يقبل حكم خصمه مادام الحكم لا يخرج على قواعد الفروسية الجوالة ويقبل دون كيشوت التحدى . ذلك الفـــارس المجهول ليس الا طالب العلم كراسكو أرادها حيلة لكي يرد الفارس الضال الى صوابه ناويا أن يكون حكمه عند النصر أن يتخلى دون كيشوت عن مغامراته ويتنازل عن حق الفروسية لمدة عامين يقضيهما في قريته لا يغادرها وهذا أمر دبره كراسكو مع القسيس والحلاق ولكن يشاء الحظ أن يهزم الفارس المجهول فى المبارزة فتفسد الخطة ثم ينكشف وجه المهزوم بعد سقوطه عن حصانه وسنان دون كيشوت بين عينيه وكذلك يسقط عن وجه التابع قناعه فاذا بهما عند سانشو الطالب كراسكو وأحد جيرانه من القرية ولكنهما عند دون كيشوت عدوان حقيقيان حولهما السحر بعد الهزيمة فصارا فى هيئة الصديقين امعانا فى السـخرية من الفـــارس والكيد له .

وتجيء خلف ذلك مغامرة الأسود حيث يشهد دون كيشوت عربة عليها أعلام ملكية مقبلة واذا هي تحمل أسدين في قفصين جاءا هدية الى القصر الملكي من وهران ويستوقف الفارس العربة ويهدد صاحب الأسود ويأمره بفتح باب القفص ليبارز الأسد ويثبت تفوقه عليه ويضيف الى مجده مجدا ولا يجد الرجل مفرا من الاذعان والرمح فى ظهره ويترجل دون كيشوت ويسحب السيف بدل الرمح ويقف أمام القفص ويمعن فى الفرار سانشو ومن هنالك . ويفتح الباب على مصراعيه ويدعو الفارس الأسد الى النزول فينهض الأسد ويطل برأسه من باب القفص ذات اليمين وذات اليسار فترة ثم يدير فى بطء ظهره الى الفارس ويعود الى الرقود فى موضعه ويأبى صاحب الأسود أن يهيج أسده أكثر من ذلك وهو ما دعاه

اليه دون كيشوت ويؤكد الفارس أنه قد تم له النصر المؤزز على الأسد اذ جبن على النزول لاسيما وهو جائع لم يطعم وأنه سيحمل هذا النبأ العظيم الى الملك نفسه حين يلقاه وهكذا يقفل القفص ثانيا ويرى دون كيشوت أن يخلد هذه الواقعة فيطلق على نفسه منذ الآن اسم « فارس الأسود » بدلا من لقبه السابق الذى كان قد اختاره له سانشو (الفارس ذو الوجه الكئيب) ٠

ويعود الهاربون ويسـير الفارس مزهوا بحق ويمضى فى طريق المغامرة والمجد ٠

ويمضى الفارس الى مدينة برشلونة وتصادفه فى الطريق أحداث ويلقى عصابة من قطاع الطرق ثم يدخل برشلونة فيلقاه أهلها بالحفارة ، لأنهم قرءوا تاريخه ويدبرون له زيارة للأسطول ويقيمون له الولائم ٠

ويخرج دون كيشوت ذات صباح على حصانه وفى سلاحه الكامل للتريض على شاطىء البحر فيعترضه فارس مجهول يلقب نفسه بفارس القمر الأبيض يتحداه ويأمره بأن يعترف بتفوق محبوبته على دولثينيا ثم يبارزه مشترطا عليه اذا انهزم أن يتخلى سنة عن الفروسية ويعود الى قريته — مرة ثانية — يظهر طالب العلم كراسكو متخفيا لينجز مشروعه ويصادفه النجاح هذه المرة فيسقط دون كيشوت على الأرض وسنان خصمه أمام عينيه فيلتزم بالوفاء بالشرط ولا يسلم بأن على وجه الأرض من هى أجمل من حبيبته دولثينيا ٠

ويودع دون كيشوت برشلونة وأهلها ويعود مهزوما حزينـا الى قريته مجردا من السـلاح ولكنه فى الطريق يسترد بعض قواه المعنوية ويعتزم أن يقضى سنة الاعتزال هذه راعى أغنام حيث يعيش كما يعيش الرعاة فى جـو من الشعر والحب والموسيقا ذلك الجـو الذى صـورته القصص الرعوية تصويرا جذابا جميلا ٠

وفى مدخل القرية يشهد بعض علامات ويسمع بعض كلمات يرى فيها نذيرا يوحى له بأن الأيام تكاد أن تجرى بنحس لا بسعود ٠ ثم يلقى القسيس والحلاق وطالب العلم ويخبرهم بهزيمته وقد علموا بها من قبل وبعزمه على التزام وعده وتفكيره فى الحياة الرعوية فيشجعونه ليخففوا عنه صدمة الهزيمة ويحضه سانشو على التفاؤل وتلقاه صاحبتا البيت بالرعاية والسهر ٠

ولكنه لم يلبث أن تعتريه الحمى فتلزمه الفراش سبعة أيام ويزوره الطبيب فيعلن اليأس من شفائه وتضج المرأتان بالبكاه وتملأ الكآبة قلوب أصدقائه وخاصة تابعه سانشو الذى لا يفارق فراش سيده الواجم الذاهل

المحموم ويغشى دون كيشوت نوم عميق طويل يفيق منه شديد التنبه واليقظة ويستدعي أصدقاءه الثلاثة ليعلن لهم أمرا وليوصيهم ويجتمعون ويتحدث دون كيشوت ذاكرا ان الله الرحيم قد غمره بلطفه ورفع عن عينيه الغشاوة وشفاه من الجنون الذى أصابه فهو الآن ليس الفارس الجوال دون كيشوت دى لامنشا وانما عاد الى حقيقته الأولى واسمه الأول الونسو كيخانا الطيب كما عرفه أهل قريته ويتم المراسم الدينية فيعترف للقسيس منفردا بخطاياه ويملى وصيته ·

ويغمى على الرجل عدة مرات خلال ثلاثة أيام ثم يوافيه الأجل المحتوم وبهذا تنتهى حياة البطل وبه ينتهى الكتاب بقسميه · وفى العام التالى يوافى الأجل المحتوم المؤلف نفسه ميجيل دى سرفنتس سافيدرا فينهى الكتاب فى سنة ١٦١٥ وحياة مؤلف الكتاب فى سنة ١٦١٦ ··

تاويــــلات

دون كيشوت « وتنطبق بالأسبانية « دون كيخوتة » » الكتاب الذى عرض على العالم بأسره أروع صورة للعقلية الأسبانية طيلة القرون الأربعة الأخيرة وخلد اسم مؤلفه « ميجيل دى سيرفانتس » فى الأدب العالمى ·

ذلك ان معظم أهل الفن والأدب يصدرون فى نظرتهم للحياة عن طابع شخصى ولكن « سيرفانتس » ـ فى قصته هذه ـ جمع بين الطابع الشخصى والطابع القومى والطابع الانسانى عامة : الطابع الشخصى لأنه بث فيها الفلسفة التى خرج بها من تجاربه فى الحياة والطابع القومى ، لان القصة خير ما يعبر عن عبقرية قومه والطابع الانسانى لانها تصور النفس عامة وتخاطب العقل الانسانى دون تقيد بعصر ولا بجنس والكتب من هذا النوع فى الأدب العالمى كله لا تتجاوز أصابع اليدين عدا ·

والقصة تكون سخرية ممن تستهويهم المثل العليا ـ مثل الشهامة والمروءة والشجاعة ـ التى تصورها قصص الفروسية الخيالية باعتبارها مثلا وهمية لا مجال لها فى الحياة العملية ·· وقد تكون نقدا لاذعا لأوضاع المجتمع الأسبانى فى القرن السابع عشر ولشخصيات معينة فى العهد الذى عاش فيه « سيرفانتس » ··· كالملك شارل الخامس والملك فيليب الثـانى ·

وقال ناقد أسبانى انها قصة تصوفية وان « دولثينيا » ـ السيدة التى تعلق بها « دون كيشوت » ـ تحريف لكلمتى « ديفينا لوشى » الأسبانيتين ومعناها « النور الالهى » · وقال البعض انهـا محاولة لعرض الجنون وتصويره على طبيعته ·

تأثير الرواية فى الأدب العالمى

لعل قصة لم تظفر من الشهرة والذيوع بين الناس بما ظفرت به قصة دون كيشوت فان النجاح الذى استقبلت به فى أسبانيا منذ ظهورها ثم فى بقية أجزاء العالم يكاد ان يكون منقطع النظير وحسبنا ان نذكر انها الى سنة ١٩١٤ كانت قد طبعت خمسمائة مرة فى اللغة الأسبانية ومائتى مرة فى الانجليزية وما يعادلها فى الفرنسية وانها مترجمة الى معظم لغات الأرض !!

وفى هذا دلالة واضحة على أنها قصة انسانية لم يقف تأثيرها عند شعب دون شعب ولم يقتصر نفوذها على زمان دون زمان ·

ولعلنا لا نتجاوز الحق اذا قلنا ان انسانية هذه القصة جاءتها أولا من انها تمثل الصراع الأبدى فى حياة الانسان المتحضر ما بين نزوع الى مثالية تتطلع الى الخير والحق والجمال ، وبين واقع عملى نفعى يفرض وجوده على البشر باعتبارهم بشرا يعيشون فى مجتمع بشرى · وليس من شك فى أن الآثار الأدبية العالمية كلها لا تخلو أبدا من مثل هذه السمة الانسانية فى صورة أو أخرى ويكفينا أن نتذكر هملت لشكسبير وفاوست لجوته فدون كيشوت خرج ليملأ الأرض عدلا بعد اذ امتلأت جورا فكأنه المهدى المنتظر الذى ترقبته الأجيال فى كل مكـــان وزمان ولكن جهاده لا ينتهى الى شىء وربما انعكست الآية فأحدث من الضرر فوق ما أحدث من الخير · وتابعه سانشوبانثا يمثل الواقعية التى تطلب الفائدة الملموسة والنفع القريب والتى تخلد الى الأرض مشدودة بالأطماع المادية ·

ولـــكن الطريف فى رواية سرفنتس ان هذا الصراع بين المثالية والواقعية لا يجمد فى نموذجين ثابتين وانما يتداخل الأمر بما يجعله أقرب الى طبيعة الحياة والأحياء فدون كيشوت المثالى لا يحركه حب الخير وحده مجردا بل انه ليطلب لنفسه هو الصيت والمجد والشهرة ، وسانشوبانثا على واقعيته وأطماعه وجشعه يستفزه حب العدالة والرغبة فى الخير أيضا والفارس وتابعه يتبادلان التأثير العاطفى والفـــكرى فيما بينهما خلال مراحل القصة ·

وقد وفق سرفنتس اذ استطاع ان يعرض قضية المثالية والواقعية عرضا شيقا جذابا فمزج فيما بين الجد والهزل وبين الأسى والفكاهة مزجا جعل من قصته متعة للقراء جميعا على اختلاف حظوظهم من الثقافة وتفاوت عقلياتهم وتجاربهم فى الحياة · وقليلة هى الآثار الأدبية التى تستطيع

ان ترضى الخاصة والعامة معا وتستهوى الصغار والكبار فى وقت واحد وانما جاءها هذا التشويق من المواكبة البارعة بين المثالية والواقعية من جانب والجنون والبلاهة من جانب آخر · فالفارس مجنون وهو مع جنونه ينطق بالحكمة ، والتابع آبله وهو مع بلاهته لا يخلو من ذكاء وخبث فكأن هنالك صراعا آخر بين العقل والجنون الى جانب الصراع بين الخير والشر وفى الحق انه من استرعى انتباهه فى قصة دون كيشــوت الصراع بين المثالية والواقعية خرج منها متشائما حزينا ، اما من التفت الى الصراع بين الجنون والعقل فيها فقد خرج منها ضاحكا غير متشائم ·

ثم ان فى القصة من التنوع وتعدد المواقف والانتقال بالأحداث بين البيئات المختلفة من قرى وغابات ومدن · وبين الطبقات المتعددة من فلاحين ورعاة ولصـــوص وسجناء وتجار وارستقراطيين ما وهبها رحابة واتساع أفق لا يوجد فى آثار عالمية أخرى كل هذا فضلا عن اتصالها المباشر بتراث أدبى ضخم عرفته كل الآداب الانسانية وهو كتب الفروسية وسير الأبطال الشعبيين فاعتمدت بذلك على ذوق أدبى مشترك لدى الناس على اختلاف آدابهم ولغاتهم يضــــاف الى هذا كله موهبة سخية رزقها سرفنتس فى التفطن الى الانتقالات الذهنية والعاطفية والعقلية لدى أبطاله جعلت من حواره فى القصة ومن خلقه للأحداث والمواقف ما تجدد دائما لذته وطرافته كلما أعاد القارىء مطالعة قصته ·

وليس من الشك ان قصة دون كيشوت على نزعتها الانســـانية العالمية الواضحة يمكن ان تربط بحياة مؤلفها وبحياة العصر الذى عاش فيه سرفنتس وهذا شىء طبيعى فى كل أثر أدبى ··

فاوست

جـــوتـــه

١٨٢٥م

ما أعظم المكانة التى يتبوؤها اسم « فلوست » فى تاريخ الفكر ! فمنذ بضعة قرون سطع هذا الاسم فى كل مكان يصبو اليه النظر وتتدفق من حروفه التى جمعتها يد القدر على بساط العالم أنهار من البحوث المختلفة المتنوعة : فمن قصص شعبية الى مآس ومصنفات أدبية وموسيقية، الى رسومات ونحوت ولوحات • فقد ملأ هذا الاسم من دور الكتب والمتاحف والمسارح الشيء الكبير ، واذا نظرنا الى قائمة بأسماء ما أوجده لرأينا ان هذه الشخصية وليدة الخيال كانت تشغل العقل البشرى أكثر مما شغله أعظم بطل من أبطال التاريخ وان كانت « الكوميديا الالهية » فى العصور الوسطى تعد احدى الروائع الأدبية العالمية ، فكان حريا بالعالم الحديث ان يخلق لنفسه رائعة لا تقل عنها عظمة ومجدا • فكان منشؤها فى ألمانيا ما بين سنة ١٨١٨ وسنة ١٨٢٤ على يد شـــوبرت وجوشـــيل ودوب وهنريش وفى فرنسا على يد مدام دى ستال وفى انجلترا على يد كارليل • ولم تلبث حلقة الدراسات والتحاليل تتسع شيئا فشيئا حتى أصبح اسمه وقد مر على انشائه أكثر من مائة عام محط الأنظار وحديث الأفواه •

وهذا الاسم مقرون باسم جوته يلازمه ملازمة وثيقة اذ أنه — من بين الشخصيات المتعددة التى أوجدها خيال الشـــعراء فى هذا الموضوع ، لا توجد شخصية أقوى من هذه التى صورها جوته وأعمق أثرا فى النفوس وأشد وقعا فى القلوب •

ولم يكن جوته عندما كتب روايته الشـــهيرة ليتصـــور حضارتنا الحديثة ، ولم يكن معاصروه الذين أعجبوا بهذه الرواية ليتصوروا منها شيئا • على ان بطله لم يزل يعيش بيننا عيشة ملؤها النشاط والحيوية كأنه قد ولد بالأمس فاننا نرى فى فاوست اليوم أكثر مما رأى هؤلاء الذين عاشوا فى عصره منذ أكثر من قرن • ومن يدرى ما ستكشفه الأجيال المقبلة فى هذه الشخصية من آيات وما سيكتبونه من تعليق حول هذا البطل بعد مرور خمسمائة أو ستمائة عام عندما يتحدثون عنه كما نتحدث نحن الآن عن أبطال هوميروس الذين قضوا منذ ثلاثة آلاف سنة • ولم يكتف فاوست بأن تتحدث عنه جميع الأفواه ، بل ترجم الى شتى اللغات ولم يزل يترجم فى كل ســـاعة بالحروف فى القصائد ، وبالألوان فى اللوحات ، وبالموسيقا فى المقطوعات الموسيقية وأصبحت أمثاله وكأنها تخرج من أحشاء الانسانية نفســـها • فقد قال « مفستوفليس » رأس الشياطين وهو يهزأ من زلة مرجريت « ليست هذه هى الأولى » • وقال

ناقد عظيم : « ان رواية فاوست قد أصبحت ملكا للانسانية بأسرها وليست ملكا لألمانيا بل هى تراث للعالم أجمع » .

ولد يوهان أو حنا فولفجانج جوته فى اليوم الثامن والعشرين من شهر أغسطس سنة ١٧٤٩ بمدينة فرانكفورت بألمانيا من ابوين كانا فى سعة من العيش وان لم يكونا عريقين فى الحسب فقد كان جده حائكا تزوج سيدة تملك فندقا وتدر شيئا من الرزق فولد له ولدان أصغرهما يوهان كاسبار جوته والد مؤلفنا . ولما نال هذه الحظوة لدى دوق فيمار فى أخريات حياته لم تكن طبقة الخاصة فى ألمانيا تعطف عليه لأنه لم يكن على زعمهم عريق الحسب . فما كان من الدوق الا ان زاد على اسمه كلمة « فون » وهى من ميزات الخاصة عند القوم .

وبذل والدا جوته جهد الطاقة لتعليم ابنهما وتهذيبه ، وكانا يرميان بذلك الى الاستعاضة بشهرته عما ينقصهما من نبل الحسب فلم يدخرا وسعا فى سبيل تعليمه . وكان والده شـــديد الرغبة فى تلقينه مهنة المحاماة التى كادت تكون مقصورة يومئذ على طبقة خاصة . ومع ان جوته تخرج فى كلية الحقوق والشريعة ونجح فى جميع العلوم التى درسها فان ميله كان أشد الى الآداب فكانت نفسه تفيض عواطف واحساسات وكلما أبصر ما حوله من مظاهر الطبيعة أثارت كامن شعوره وأوحت اليه منظوماته الخالدات .

ويظهر من ترجمة جوته انه ورث رقة الشعور وفرط الذكاء عن أمه ، فقد كانت على جانب كبير من التعليم ورقة العواطف وقوة التصور حتى قال بعضهم انها المثل الأعلى لكل أم تريد أن ينبغ ابنها فى الشعر . أما الأب فقد ورث عنه جوته الرزانة والطموح وقوة العزيمة وهـــدوء الطبع .

وقلما ترك شاعر من شعراء ذلك العصر ما تركه لنا جوته من آثار صباه التى تشف عن خلقه وميوله وما كان يجيش به صدره من العواطف . ولا تقتصر تلك الآثار على القصائد التى نظمها فقط بل تتناول كتبه ودماه (لعبه) وتصاويره وذكرياته والتحف الفنية التى كان يملكها ، مما يدل على ان جوته لم يكن يفرط فى شىء مما يذكره بحوادث صباه وما وقع له من روايات الغرام ، وقد كانت سيرته مجموعة عبر ودروس يستطيع الباحث ان يستشف من خلالها نفسية جوته وما كان يخالجها من مشاعر وعواطف وآراء . وليس ذلك غريبا اذا تذكرنا تشعب مناحى حياته وتعدد المشاهد التى مرت أمام مخيلته ، ولعله لو لزم عقر داره ولم يتجشم مشاق السفر والانتقال ما علقت بذهنه تلك الصور المختلفة من مشاهد الحياة .

ويقال من الجهة الأخرى ان تعدد تلك المشاهد نبا بجوته عن الخلق الألماني • فبينا ترى الألماني يميل عادة الى التخصص والتوافر على درس ناحية معينة من نواحي العلم ترى جوته يميل الى درس كل علم وفن لأن نفسه كانت متعطشة للارتواء من كل منهل ، وهذا يفسر لنا اكبابه على العلوم والفنون من رياضة ورسم وشعر وموسيقا وتصوير •

بل لقد كان ميله عظيما الى درس النبات والطب والهندسة والحقوق والسياسة حتى انه بلغ من بعضها شأوا بعيدا ، وهو ما لم يتسن لغيره من الشعراء ، أضف الى ذلك ميله الغريزى الى تعلم اللغات حتى حذق اللاتينية واليونانية والايطالية والفرنسية والانجليزية والعبرية كل ذلك باشراف والده الذى كان يريد اعداده لمناصب الدولة الكبرى ، ليستعيض بها عما فاته هو منها •

وفى سنة ١٧٥٩ — وعمر جوته يومئذ عشر سـنوات — احتل الفرنسيون مدينة فرنكفورت لأن حرب السبع سنوات كانت قائمة على قدم وساق • واحتل أحد الضباط الفرنسين منزل والد جوته فكان ذلك أول عهد جوته بالفرنسيين الذين كان أبوه يكرههم • ومنذ ذلك اليوم أخذ النفوذ الفرنسى يؤثر فى نفس جوته تأثيرا لزمه الى أخريات حياته •

ولما بلغ جوته السادسة عشرة من عمره أدخله أبوه جامعة ليبسك بقصد تعليمه الحقوق • ويظهر ان القسط الذى كان قد ناله من العلم قبل ذلك لم يكن ليكفيه زادا لدخول الجامعة لذلك لم ينجح جوته هنالك نجاحا يذكر ، الا انه تعرف بأستاذ يدعى جيلرت مال اليه بكليته واتخذه خلا وفيا • ولكن طبعه القلب ما عتم أن انتصر عليه فمل صحبة جيلرت ونسيه بعد قليل • وادرك وهو فى الجامعة ان ميله الى الأدب لم يكن ليجديه نفعا فما كان منه الا أن عمد الى ذخائره الأدبية ومنظوماته وقذف بها الى النار ولكنه ندم على ذلك بعد قليل فاستأنف صناعة الشعر وطفق ينظم من جديد •

وفى أثناء اقامته بجامعة ليبسك جرت له واقعة غرامية لم تكن الأولى من نوعها ، ذلك انه أحب فتاة تدعى حنة كاترين شونكويف وهى ابنة صاحب حانة كان جوته يتردد اليها وبلغ شغفه بها حد الجنون حتى انه ذكرها فى كثير من منظوماته باسم « آنيت » ، بل لا تكاد قصيدة من القصائد التى نظمها فى ذلك الزمن تخلو من اشارة الى هذه الحسناء التى فتنت لبه وملكت عليه مشاعره ولكنه ما كادت الفتاة تقابل حبه بمثله حتى طوى كشحه عنها ونسى أمرها !

وفى أثناء اقامته بجامعة ليبسك نظم عدة قصائد وروايات أهمها المأساة الموسومة « بمزاج المحبين » ومأساة « الشركاء فى الجريمة » فبسط

في الأولى الأسباب التي حملته على هجر معشوقته حنة كاترين شونكويف بعد أن أحبها حبا يقرب من العبادة وبسط في الثانية العادات الرديئة التي كانت منتشرة في بعض الأسر في ذلك الزمن ليس في مدينة ليبسك وحدها بل في جميع مدن ألمانيا أيضا ، وقد غلب الذوق الفرنسي على كلتا هاتين المأساتين وهما تفيضان بالعواطف التي كانت تتأجج في صدر جوته والتي كانت أحسن دليل على حقيقة طبعه ٠

وفي سنة ١٧٦٧ نشر مجموعة منظوماته بعنوان آنيت أو آنيتا وهي الفتاة التي تقدم ذكرها والتي كان مايزال لها في نفسه أعظم الأثر وقد نحا جوته في بعض منظوماته هذه منحى الفرنسيين وأودع فيها كثيرا من التخيلات الشهوانية بأسلوب طلي وعبارة منسجمة ، ويظهر انه أحس بسهام الانتقادات التي وجهت اليه من جراء تلك المنظومات فلما أعاد طبع مجموعته سنة ١٧٦٩ حذفها منها ٠

وقبل ذلك بسنة — أي في سنة ١٧٦٨ — اضطر جوته الى مغادرة جامعة ليبسك والعودة الى فرنكفورت من دون ان يتمم علومه وكان رجوعه فجائيا وسببه انه بذل في التحصيل جهودا فوق طاقته فأصيب بنزيف أضعف قواه وألزمه الفراش طويلا في ليبسك ثم في فرنكفورت وكان وهو على سرير المرض يراسل أصدقاءه ٠ ويؤخذ من لهجة رسائله هذه انه كان ينظر الى الحياة نظرة جد ويحسب للمستقبل حسابا ، وهذا يفسر شدة اكبابه وهو في دور النقاهة على درس كتب الفلسفة والسحر والتنجيم والكيمياء ، ويظهر ان فتاة من صديقات أمه تدعى سوزان كاترين فون كليتنبرج وكانت من أهل التقوى والصلاح أثرت في نفسه وحولته الى التفكير في الروحانيات فلم يمر عليه بعض الوقت حتى أصبح من المتصـــوفة !

وما كاد جوته يستعيد صحته حتى عزم والده على ارساله الى جامعة ستراسبورج ليستأنف فيها دراسة الحقوق ، ومع ان ستراسبورج هذه من مدن الالزاس وكانت يومئذ في حوزة الفرنسيين فقد كانت ألمانية الصبغة سواء أكان فيما يتعلق بلغة أهلها أم بحضارتهم ٠ وكان لانتقال جوته الى هذه الحضارة أثر كبير في نفسه ظل معه الى أخريات أيامه ، ذلك انه أصبح متشبعا منذ ذلك الحين بالروح القوطية (١١) الألمانية ورأى من واجبه تسويد ذلك الروح على كل روح آخرى سواء أكان في ميدان الفن أم الأدب أم العلوم ٠

وفي أثناء اقامته بستراسبورج وضع المواد اللازمة لروايته « جوتس فون برليخنجن » التي أحدثت عند ظهورها ضجة كبيرة في عالم الأدب

لأنها كانت بمنزلة ثورة على الروح السائدة على الأدباء فى ذلك الوقت ·
وتقول دائرة المعارف البريطانية ان هذه الرواية كانت فتحا جديدا فى عالم الأدب ألمانى فى ذلك الوقت لأنها أدخلت عليه أسلوب الدراما الذى ابتكره شكسبير فى الأدب الانجليزى ومع ذلك فان بعض النقاد يعتقدون ان رواية جوتس المذكورة هى دون مســـتوى « فاوسنت » و « ولهلم مايستر » وغيرهما من روايات جوته الخالدة وان قيمتها انما فى اقحامها طرازا جديدا على الأدب الألمانى يعتبر ثورة على الروح والتقاليد القديمة التى كانت سائدة فى ذلك العصر · فقد كان شعراء الألمان يومئذ يقلدون الروح الفرنسية واللاتينية وكان فريدريك الأكبر نفسه « ملك روسيا فى ذلك العصر » متشبعا بالروح الفرنسية ميالا الى الأدب الفرنسى لذلك كانت الثورة التى رفع جوته لواءها برواية « جوتس » خطيرة جدا ·

وفى سنة ١٧٧١ نال جوته اجازة القانون وعاد الى مسقط رأسه ليمارس مهنته وقضى السنة التالية فى « فتزلار » التى كانت مقرا للمحاكم الامبراطورية ولمحكمة الاستئناف العليا فى ذلك الوقت وكان غرضه من ذلك التمرن على أعمال المحاماة · وفى أثناء اقامته بفتزلار تعرف بكثير من رجال القضاء والسلطة وجرت له واقعة غرامية أخرى كان لها أثر عظيم فى حياته وفى الأدب الألمانى عامة · ذلك انه أحب فتاة تدعى شارلوت بوف حبا مبرحا حتى انه خلد ذكراها بروايته الشهيرة « فرتر » التى ذاعت وانتشرت بسرعة لم يعهد لها مثيل فى أى كتاب آخر من كتب جوته ·

ولما بلغ جوته السادسة والعشرين من عمره · ولا شك أن المدة الواقعة بين سنتى ١٧٧١ و ١٧٧٥ كانت أخصب أطوار حياته من الوجه الأدبى · ففيها أنتجت قريحته « جوتس » و « كلافيجو » و « آلام فرتر » و « ستيلا » و « جوتر » و « اروين » وعدة آثار أخرى رفعت مرتبة جوته فوق مراتب معاصريه الالمان فأصبح اسمه على حداثة سنة حديث مجالس الأدب وتعدت شهرته حدود بلاده · ووقع له فى أواخر سنة ١٧٧٤ حادث كان له أعظم الأثر فى حياته وهو انه تعرف بكارل أوجست دوق فيمار فى مدينة « كالسر » بمقاطعة بادن فدعاه الدوق لزيارة فيمار وبعد سنة قابله مرة أخرى فى فرنكفورت وكان عائدا يومئذ مع زوجته الى فيمار فدعاه مرة أخرى لزيارته فقبل جوته الدعوة وذهب الى تلك العاصمة فى ٧ نوفمبر سنة ١٧٧٥ ولم يخطر بباله يومئذ انه كان قاصدا الى مدينة سيتخذها له موطنا الى آخر العمر ·

وقضى جـوته بضعة الأشهر الأولى فى فيمار يمتع النفس بجميع مباهج الحياة وتعلق به الدوق تعلقا شديدا ، ومع ان دوقية فيمار كانت فقيرة وسواد أهلها من الفلاحين ، الا انها كانت بفضل أميرها مثابة رجال العلم والفن والأدب وكانت تنافس فى ذلك العصر بوتسدام ·

ولم تمض على اقامة جوته بفيمار أشهر حتى عهد اليه الدوق فى أحد مناصب الدولة ، واشتدت أواصر الصداقة بين الأمير والشاعر فصارا لا يخرجان للنزهة الا معا ولا يذهب أحدهما الى مكان من دون ان يصطحب الآخر . واتفق أن الدوقة أماليا والدة الأمير ، وكانت من أعلام الأدب فى ذلك العهد ، تحسن الموسيقا وتميل الى اللهو والمسرات لذلك أحسنت وفادة جوته ورحبت بمقدمه وصارت تكاتب أمه وكان جوته يومئذ شابا فى مقتبل العمر لا تجاوز سنه السادسة والعشرين ، والدوق فتى فى الثامنة عشرة فقط ومع ذلك كان بعيد البصر صحيح الحكم وقد جمع حوله فى قصره العلماء والأدباء ومنهم سكندورف وهودر وفيلاند أستاذ والدته فى اليونانية والآداب ومهذب الدوق نفسه وكان من شعراء ألمانيا المعدودين فى ذلك العصر .

ويظهر ان انصراف جوته فى أوائل اقامته بفيمار الى اللهو والترف واضطراره الى القيام بواجبات منصبه حالا دون اخراجه أى مؤلف يستحق الذكر ولكنه يقول فى ذلك انه لم يضع وقته باطلا بل كان يدرس ويعد العدة لاخراج مؤلفات جديدة .

وكان منصبه يدر عليه مائتى جنيه فى السنة وهو مبلغ ما كان ليستهان به فى ذلك الزمن ولا سيما فى مثل امارة فيمار الفقيرة ولذلك كثر حساده وأخذوا يشكون منه مر الشـــكوى ، ولكن الأمير لم يعبأ بشكواهم ولم يكترث لها وقويت أواصر الصداقة بينه وبين جوته حتى انه منحه دارا ذات حديقة غناء على نهر « الألم » ليقيم بها .

وما كانت عزة نفس جوته لتأذن له بأن يتقاضى اجرا كبيرا من منصبه دون أن يقوم بأعباء ذلك المنصب لذلك عكف على درس شئون الدولة لتصريفها على الوجه الأفضل بهمة واخلاص ، وكان كل اهتمامه منصرفا الى ترقية الفنون والتمثيل وتنظيم النواحى الحربية والمالية وتنفيذ الأعمال التى فيها صلاح الدولة . وقضى فى القيام بتلك الأعباء المضنية عشر سنوات متوالية شعر بعدها بالتعب فأشار عليه الدوق ان يأخذ قسطا من الراحة .

وكان فى أثناء ذلك قد نظم روايات كثيرة مثل بعضها فى مسرح فيمار ونظم رواية أخرى سماها « انتصار العواطف » وسخر بها من الذين كانت روايته « فرتر » قد أثرت فيهم تأثيرا سيئا . وفضلا عن ذلك اشتغل بالعلوم والفنون ووقف جانبا من وقته على تنظيم مدينة فيمار وتجميلها وتحسين هندستها واصـــلاح حدائقها واهتم كذلك بالزراعة وفلاحة البساتين والمكتشفات الطبية .

وسافر جوته الى ايطاليا سنة ۱۷۸٦ وقضى فى هذه الرحلة عشرين شهرا نال خلالها ما كان فى حاجة اليه من الراحة وشهد بلادا كان يتوق الى رؤيتها . وقد أثر فيه جمال ايطاليا وعظمة آثارها الخالدة وأوحت اليه الشعر والتصوير واخرج وهو فى ايطاليا ثلاثا من أحسن رواياته التمثيلية وهى افيجينيا وايجمونت وتاسو . وقد قال عن زيارته لايطاليا انها أهم حوادث حياته . ولما عاد الى فيمار شعر الجميع بأنه قد طرأ عليه انقلاب خطير فأصبح رزينا جاف الطباع .

وكان ذلك فى ابان سطوة نابليون . وكان الفرنسيون قد غزوا فيمار وكان قبل ذلك قد تعرف بشيلر أحد كبار شعراء ألمانيا فى ذلك العصر ودامت أواصر هذه الصداقة متينة الى النهاية ولم يظهر بين الشاعرين اى أثر للمنافسة مع أن أهل فيمار حاولوا الايقاع بينهما . ولما توفى شيلر سنة ١٨٠٥ كتب جوته الى أحد أصدقائه يقول : « اننى قد فقدت نصف حياتى » .

واحتل الفرنسيون فيمار انتقاما من الدوق كارل أوجست الذى أظهر عطفا على البروسيين (١٢) فانبرت الدوقة لويز لنابليون واستعطفته ليعفو عن زوجها فأجابها الى سـؤالها وحسنت بعد ذلك علاقة الدوق بنابليون . وفى سنة ١٨٠٨ اذ كان نابليون على مقربة من فيمار استدعى جوته اليه وجرى له معه حديث ممتع أعجب نابليون على أثره بجوته أشد الاعجاب حتى انه قال للذين حوله بعد انصراف جوته « هذا انسان ! » .

ولما تألبت أوروبا كلها على نابليون سنة ١٨١٣ كان لذلك أشد الوقع فى نفس جوته اذ كان يعطف على نابليون حتى اتهمه الكثيرون بأنه مارق من الوطنية ، الا أن جوته لم يكن ينظر الى العالم نظرة التحيز الجنسى الضيقة بل كان يحسب العالم كله مملكة واحدة والبشر كلهم اخوانا وقد نشأ على تلك الروح حتى بلغ تلك السن .

وعاش جوته حتى شبع من الأيام وذاق من مباهج الحياة أحلاها وعاشر الكبراء والأمراء والعلماء والأدباء وتمتع بشهرة ذائعة وبشيخوخة حافلة بجلائل الأعمال وقضى نحبه فى الثانية والثمانين من عمره بعد ان ترك كنزا لم يتركه غيره من رجال الأدب .

مؤلفـــات جوتـــــه

ولابد لنا من اشارة وجيزة لأعمال جوته الأدبية خلاف كتابه الكبير الذى سنذكره بالتفصيل فيما يلى . لقد عاش جوته عمرا مديدا وبدأ انتاجه مبكرا وكانت حياته مليئة بالانتاج الذى لا ينقطع حتى الأيام الأخيرة

من عمره المديد والمقام لا يتسع للافاضة فى ذكر مؤلفاته وحسبنا هنا أن نجمل الاشارة الى أشهرها دون ان نلتزم الترتيب الزمنى .

ان مؤلفات جوته تنتظم أربعين مجلدا ومن أهم ما تشتمل عليه ومن أبدعه شعره الغنائى أى الأناشيد والقصائد فى الوصف والغزل والقصص القصير المنظومة والمنظومات الشعبية من طراز « بلاد » وهى تحتل مجلدين كاملين وقد اتفق رأى النقاد على ان شعر جوته الغنائى يمتاز بالرقة والعذوبة الى درجة منقطعة النظير ولو ان جوته لم يؤلف سوى تلك القصائد لكان فى هذا ما يكفى لوضعه فى المكان الأسمى بين الشعراء « الغنائيين » .

وألف جوته مسرحيات عديدة بدأها فى مرحلة صباه باخراجه مسرحية « جوتس » وهى مستمدة من قصة بطل جرمانى فى العصور الوسطى ثم جاءت بعدها مسرحيات كلافيجو وايجيمنت وتاسو وايفيجينا وغيرها وغيرها . وقد كان جوته شديد العناية بالمسرح فى فيمار وقد قام هو نفسه بالتمثيل فى بعض مسرحياته وفى غيرها .

وتناول التأليف القصصى المنثور أيضا ، ومن أشهر ما ألفه فى هذا « آلام فرتر » وهو من أول وأشهر مؤلفاته ويصف قصة غرامه بخطيبة صديقه المسماه شارلوت بوف والكتاب معروف للقارىء المصرى فى ترجمته الرشيقة بقلم الأستاذ أحمد حسن الزيات ولكن أشهر قصص جوته النثرية قصة ولهلم مايستر وهى قصة طويلة تصف حياة المسرح والعاملين فيه وعلى الرغم من أنها رواية منثورة فانها تشتمل على أناشيد وأغان شعرية من أبدع ما أنتجه شاعر .

ويعتبر كتاب ولهلم مايستر أكبر انتاج لجوته بعد فاوست وقد ألفه على مدى كثير من السنين كما هى الحال فى فاوست .

وهناك قصة بالشعر على نظام شعر الملاحم : تدعى « هرمن ودروثيا » وقد ترجمت نثرا باللغة العربية وهى تعد من أروع ما نظمه جوته .

ومن مؤلفات جوته المطولة كتابه عن تاريخ حياته بدأه وهو كهل ولكنه استخدم ذاكرته القوية وما قد يكون لديه من مذكرات بحيث أصبح كتابه شاملا لتاريخ حياته كلها وقد سماه « الحقيقة والخيال » احتراسا من ان تكون ذاكرته قد خانته فى بعض شئون صباه وشبابه .

وفى ختام الحديث عن أعمال جوته لابد ان نشير الى ديوانه الشهير المسمى « الديوان الشرقى الغربى » فان جوته بعد ان تجاوز الستين أبدى اهتمامه بالأدبين العربى والفارسى بصورة جدية وأخذ يستعين بعدد من المستشرقين على فهم بعض النصوص الأدبية المهمة ونصوص القرآن

الكريم وانتهى به الأمر الى تأليف الديوان المذكور الذى تظهر فيه الروح الشرقية والجو الشرقى ، والديوان عبارة عن مجلد ضخم يشتمل على عدد كبير من القصائد والمقطوعات فى شتى الموضوعات من نسيب وحكمة ووصف وكلها مصطبغ بالصبغة الشرقية ...

ان اهتمام جوته بموارد أدبية جديدة وتعمقه فيها ونشره لديوان شعر مستلهم من تلك الموارد الشرقية ونشره لمثل هذا الأثر وهو مشرف على السبعين من أكبر الأدلة على حيويته ودأبه ومقدرته على التجديد فى فى جميع مراحل الحياة ..

فكـــرة فاوست

بنى جوته كتابه العظيم على أسطورة « الدكتور فاوست » التى تدور حول قصة أستاذ من أهل العلم باع روحه للشيطان نظير أربعة وعشرين عاما ينال فيها ألوانا من المتع والملذات . ولعل الأسطورة تكونت بفضل جهود بعض رجال الدين الذين أرادوا بنشرها أن يعظوا الناس ويحرضوهم على الصلاح والتقوى والبعد عن سبل الضلال . ولكن الأسطورة فيما يبدو لها أساس من الواقع : فان النقاد متفقون على أنه كان يعيش فى ألمانيا فى النصف الأول من القرن السادس عشر رجل يحمل اسم الدكتور فاوست وكان يتجول فى أنحاء البلاد يوهم الناس أنه ساحر ضليع وقد تحدث عنه طبيب يدعى فيليب بيجاردى فى كتاب الفه سنة ١٥٣٩ قال فيه ان فاوست رجل أفاق محتال يتجول فى البلاد منذ بضـــع سنين يزعم أنه الفيلسوف الأعظم ويدعى غير ذلك من الألقاب ، ويحتال على ابتزاز أموال النـــاس بقراءة البخت والشـــعوذة والطب الخرافى ونحو ذلك ويقول « بيجاردى » انه قابل كثيرا من معاصريه ممن خدعتهم حيله وادعاءاته .

فى ذلك العصر كان حديث السحر والسحرة يشـــغل الأذهان فى جميع أنحاء أوروبا الى درجة لا نكاد نتصورهـــا فلم يكن بمستغرب أن يؤمن الناس ببراعة فاوست السحرية ويصدقوا مزاعمه فاشتهرت حول اسمه الروايات والأخبار وهو على قيد الحياة وعندما سمع الناس فى حوالى عام ١٥٤٠ انه قد مات ميتة عنيفة فى ظرف شديد الغموض لم يجد الناس صعوبة فى تفسير ما حدث بأنه من غير شك قد اختطفه الشيطان الذى كان يساعده على الاتيان بأعماله الخارقة للعادة .

هكذا ولدت أسطورة الدكتور فاوست وعلى الرغم من أن الزعم بأن رجلا باع نفسه للشيطان نظير بعض المساعدات العاجلة لم يكن شيئا جديدا غير انها فى هذه المرة أسطورة مقترنة باسم رجل كان يعيش ويراه

الناس بل ولم تلبث الأسطورة أن ظهرت فى صورة قصة مطبوعة نشرت فى فرانكفورت عام ١٥٨٧ وناشرها رجل يدعى شبير أما المؤلف المجهول فأكبر الظن انه قسيس من أتباع مارتن لوثر ألف كتابه بأسلوب جدى لغرض دينى ليحذر الناس من السحر والشعوذة والفنون الجهنمية . والكتاب ملىء بمقتطفات من الكتاب المقدس وشعاره المكتوب على الغلاف « قاوموا الشيطان .. يهرب منكم ! » أما عنوان الكتاب فهو « تاريخ الدكتور يوهان فاوست الساحر البعيد الصيت ذى الأعمال الجهنمية » .

ومن المفيد أن نأتى هنا بخلاصة لهذا « التاريخ » :

« كان فاوست ابنا لفلاح فى قرية بالقرب من فيمار وله عم غنى فى بلدة ويتمبرج تولى الانفاق على تعليمه فى جميع مراحل الدراسة فتخرج الطالب من الجامعة بامتياز فى علم اللاهوت ولكنه نظرا لطموحه وحبه للأبحاث الشاذة تعلق بدراسة السحر والكشف عن الأسرار الغامضة وترك دراسة الدين وتبرأ منه وأخذ يدعى العلم بالتنجيم والطب ويعالج أمراض الناس بالأعشاب والنبات . ولم يكفه الامعان فى البحث عن أسرار الكون وكل ما في الأرض والسماء بل دفعه غروره الى الالتجاء الى العزائم الخاصة باستحضار الشيطان فأمكنه أن يستحضر شيطانا من المرتبة الثانية ظهر له في صورة راهب وتبين ان اسمه « مفستوفليس » فاستدعاه فاوست الى منزله وعقد معه اتفاقا وبمقتضى هذا الاتفاق يكتسب فاوست القوة الروحية ويكون له ابليس خادما مخلصا مطيعا يأتى الى منزله فى أى وقت يريده فاوست . وفى أى شكل يريده سواء أراده مختفيا لا يرى أو فى أية صورة ظاهرة . ويقدم للدكتور فاوست جميع الخدمات التى يطلبها وينيله ما يشاء من الرغائب وفى نظير ذلك وبعد فترة من الزمان — حددت فيما بعد بأربعة وعشرين عاما — يصبح فاوست جسدا وروحا ملكا لهذا الابليس وعليه منذ الآن أن يفكر بالدين المسيحى وأن يبغض جميع المسيحيين ويقاوم كل محاولة يراد بها عودته الى الدين ولابد لفاوست أن يمضى هذا العقد بقطرة من دمه .

« قبل فاوست هذه الشروط كلها ، وفى الفترة الأولى بعد العقد التزم منزله لا يقابل أحدا سوى ابليس وتلميذ فاوست الخاص المسمى كرستوف واجنر وهو فتى غر وقح كان من قبل أحد الرعاع السفلة . وأخذ الشيطان يزورهما ويجتهد فى تسليتهما يقدم لهما أطيب الأطعمة وأفخر الخمور التى كان يسرقها من القصور المجاورة وهكذا أخذ فاوست يعيش عيشة الترف ليلا ونهارا وكفر بالله ورسله واليوم الآخر ... ثم خطر لفاوست أن يتخذ زوجة ولكن نظرا لأن الزواج نظام نصرانى فان الشيطان اعترض على الزواج ولكن وفر له الوسيلة لارتكاب الاثم .

كذلك أتحفه الشيطان بكتاب ضخم فيه جميع المعلومات عن السحر والشعوذة وطرق ممارستها ، ثم تدور مناقشات ومجادلات بينهما حول الأرواح والملائكة • وكيف يستحيل الملك اذا عصى شيطانا ، بعد هذه المجادلات أخذ فاوست يشعر بشيء من الندم ويفكر في التوبة ولكنه لا يلبث ان يعود الى ضلاله وكفره وتنقطع المجادلات بينهما بعد ذلك • ويأخذ فاوست في دراسة التنجيم ، وعلى طبائع الأشياء ، وتمضى على انهماكه في هذه الدراسات سبع سنين •

« في الأعوام الثمانية التالية لم يحدث سوى حادثين خطيرين : أولهما ان فاوست طلب من الشيطان أن يريه جهنم فتوسط لدى واحد من كبار الشياطين يدعى « اله الذباب » لكي يحضر في منتصف الليل ويأخذ فاوست • وحضر هذا الشيطان فعلا وحمل فاوست على كرسي من العاج ثم اغرقه في سبات عميق وجعله يرى في نومه أحكاما تتضمن صوراً ومشاهد من الجحيم وهو يتوهم انه يراها حقيقة •

« أما الحادث الثاني فانه طلب أن يرقى الى السماء فحملوه في مركبة يجرها جواد أشبه بالتنين فجعل يتجول في السماء وبين النجوم بضعة أيام ثم عاد الى الأرض ، وفي العام السادس عشر من المدة المتعاقد عليها طلب من ابليس أن يسيح في الأرض فتحول الشيطان الى حصان ذي أجنحة وأخذ يجوب به جميع أركان الأرض فأمكنه بهذه الوسيلة أن يزور مختلف البلدان ويشاهد مختلف المناظر وينعم في كل بلد من ضروب الملذات ويقوم ببعض أعمال السحر والشعوذة من باب التسلية • ففي روما زار قصر البابا وقام ببعض ألاعيبه وسخرياته وفي استامبول زار حريم السلطان في زي مولى من أولياء المسلمين •

وفي بلاط الامبراطور شرلكان في إسبانيا ظهر بمظهر الاسكندر الأكبر وزوجته • وفي نهاية المطاف يقضي وقتا طويلا في مرح ودعابة مع مجموعة من الطلاب المحبين للسكر والعربدة وفي احدى السهرات مع هؤلاء تمنى أحدهم أن يرى هيلانة التي اشتهرت بجمالها الفتان في زمن اليونان فلم يلبث أن أحضرها لهم ليأنسوا بوجودها ثم اتخذها بعد ذلك عشيقة له وأولدها غلاما سماه يسطس فاوست ومن خصائصه « انه يتنبأ بما في الغيب » •

وهكذا تمضي السنون وتقترب مدة التعاقد مع ابليس من نهايتها فيأخذ الندم سبيله الى قلب فاوست وينادي بالويل والثبور وينهمل الدمع من عينيه فيتصنع ابليس العطف عليه ولكنه يصر على تنفيذ جميع شروط العقد • وفي اليوم الأخير من الأعوام الأربعة والعشرين يجعل فاوست وريثه تلميذه واجنر ثم يذهب مع خلانه الى حانة بالقرب من ويتمبرج ،

فيقدم لهم أطيب الطعام والشراب ثم يقص عليهم قصته فى حزن وألم مؤكدا لهم ان الشيطان سيحضر ليقبض روحه فى منتصف الليل • بعد ذلك يفترق الجميع • وفى الساعة المحددة يسمع صـــوت صفير مزعج وحشرجة عالية ويعودون فى الصباح لرؤية صاحبهم فلا يجدون لفاوست أثرا بل يجدون جسدا ممزقا فوق كومة من القمامة •

وقد ألف جوته كتابه كله نظما فيما عدا منظرا واحدا قصيرا فى الجزء الأول رأى أن يستبقيه نثرا • وقد امتاز شعر جوته فى فاوست بالمزايا التى امتاز بها فى أشعاره الغنائية فكان ينظم بعناية واتقان ويختار الوزن والقافية التى تلائم كل موقف وكل موضوع وربما أرسل الأشعار بغير قافية أحيانا استجابة لحالة نفسية تتصل بالموضوع أو المتكلم وقد أكثر من الأغانى والأناشيد لأن الموقف يتطلبها أو لأنه رأى أن يقحم الانشاد فى بعض المناسبات التى ابتكرها ، وهكذا كان ينوع الأوزان حسب نوع الكلام من حوار أو غناء • وحين يكتب عن العصر اليونانى يجعل أوزانه من الطراز الاغريقى القديم ، وهكذا تراه أبدا الصائغ المبدع المتقن دائما سواء أكان فى شبابه أم كهولته أم هرمه وشيخوخته •

واختار جوته أن يكون كتابه فى صورة مسرحية ولو أن اخراجها على المسرح فيما بعد كان أمرا شاقا ، ولعله لم يأبه لذلك كثيرا فقد رأى ان الصورة المسرحية أليق بالموضوع لأنه يريد من شخصياته ان تتحدث عن نفسها وان تدل على نزعتها وطباعها بكلامها •

ولم يرد جوته حين ألف الجزء الأول من المأساة ان يقسمه الى فصول على طريقة كتاب المسرحيات بل جعله عبارة عن مشاهد أو مناظر لكل منها عنوان يدل على الموضوع أو على المكان أو الزمان الذى تجرى فيه الحوادث • أما فى الجزء الثانى فقد رأى جوته أن يقسمه الى خمسة فصول ويجعل لكل فصـــل عددا من المناظر دون أن يجعل للمناظر ترقيما بل يميزها بعناوينها •

منذا الذى يصدق بعد ذلك أن رواية فاوست التى حازت من الشهرة والانتشار هذا القسط لم تمثل على المسرح لأول مرة الا فى عام ١٨٢٨ وكان ذلك بمناسبة الاحتفال ببلوغ مؤلفها الثمانين من عمره ! على أن جوته كان يتوقع لروايته مستقبلا غير هذا اذ قال : « سوف ترون فرنسيا يستخلص منها مسرحية كبيرة ذات مناظر » وهو يقصد بذلك مأســاة وأوبرا أوبالية •

ولم يخطىء فى ذلك فقد جاء فى سنة ١٩٤٠ موسيقى فرنسى عبقرى فى العشرين من عمره يدعى شارل جونو ووطد العزم على تلحينها ولم يثبط عزمه ما رأى من محاولات عديدة فى هذا الموضوع بل على العكس

شجعه على أن يتابع تحقيق مشروعه وحثه على اتمـامه · وقد كتب فى مذكراته : « لم يتركنى هذا العمل لحظة بل رافقنى فى كل مكان فكنت أودع فى مفكرات مبعثرة الأفكار المختلفة التى كنت أراها جديرة بأن تصلح يوم أعزم على الاقدام على مشروع الأوبرا ولم يتحقق هذا المشروع الا بعد سبعة عشر عاما » ·

والواقع أن أوبرا فاوست كما نعرفها الآن لم تظهر الا فى ١٨ مارس سنة ١٨٤٩ وقد تجاوز عدد المرات التى مثلت فيها ثلاثة آلاف عرض فى فرنسا وحدها وهذا أعظم دليل على نجاح هذه الرواية الشهيرة الخالدة التى لم تعرف الاخفاق فى أى وقت طوال هذا الزمن ·

عن الحرية

جون ستيوارت مل

١٨٥٩م

استقبلت انجلترا القرن التاسع عشر وقد أخذت تضطرم بثورة صناعية عارمة ، سرعان ما انصهرت واستجابت الى حركات اجتماعية وتيارات سياسية واتجاهات اقتصادية وفتوحات علمية ومذاهب فلسفية ! كانت انجلترا أسبق دول الأرض الى هذا الانقلاب الصناعى الجارف فأحلت الآلة مكان اليد العاملة ، ونجم عن هذا تضخم المصنع ووفرة الانتاج وتدفق الثراء الفاحش وظهور طبقتى العمال والممولين بالاضافة الى طبقة الزراع وأصحاب الضياع واحتدمت المنافسة وتعارضت مصالح الطبقات واصطرعت مطالبها فكان الكفاح وكانت الثورات التى انتهت الى تعديل النظم النيابية ورفع المظالم الجائرة ، واقرار أوضاع اجتماعية جديدة ، وادخال قيم أخلاقية لا عهد بها للمجتمع الانجليزى من قبل ٠

وسايرت هذه الحركات التى يعج بها العصر نظريات اجتماعية واقتصادية تلائم روحه ، وكان من أظهرها نظرية الاشتراكيين التى بشر بها « روبرت أوين » (١٣) وأتباعه فعارضت حرية التجارة وناصبت الرأسمالية العداء وطالبت باعادة تنظيم الحياة الاقتصادية ، ومن ثم استبدت بهوي العمال واستهوت قلوبهم وان أثارت الضيق الممض في نفوس الممولين والفرديين والمحافظين من أهل الفكر في ذلك الوقت ٠

وكان طبيعيا ان تصاحب هذا العصر وتؤثر فى حركاته وتتفاعل مع تياراته يقظة عقلية واعية بدت فى آثار الكتاب والأدباء والشعراء وتمثلت فى فتوحات العلم وتطبيقات نظرياته واتجاهاته الفلسفية ومذاهبها فظهر من الأدباء والروائيين المعروفين (والتر سكوت) و (جين أوستن) و (تشارلس ديكنز) و (ثاكرى) و (كبلنج) و (ويلز) ومن الشعراء المطبوعين (بايرون) و (تنيسون) و (براوننج) ومن كتاب المقالة والبحث التاريخى (توماس كارلايل) و (ماكولى) و (رسكن) وغيرهم ٠

وتضاربت المذاهب الفلسفية وإستعر الجدل بينها فكان منها ما اتصل ببيئته وساير تياراتها وعبر عن روح عصره وساعد على اذكائها فكانت النزعة الحسية واتجاهاتها المادية الخالصة ٠ وكان من هذه المذاهب ما أنكر هذا الاتجاه وإستعان بفلسفة الألمان على اقرار « مثالية » روحية معارضة كان يمثل الحركة الأولى بنزعتها الحسية أعلام النفعية الحديثة من أمثال « جيرمي بنتام » و « جيمس مل » ممن انتصروا للنزعة الفردية وجعلوا المبدأ النفعي قوام الأخلاق والتشريع وغيرهما من مجالات الفكر

والعمل وســـار فى هذا التيـــار مع تطعيمه بنظرية التطور « ليســلى ستيفن » (١٤) و « هربرت سبنسر » (١٥) وجرى فى ركب المـادية الحسية « السكندر بين » و « توماس هكسلى » فتأكد على يد هؤلاء الاتجاه التجريبى وتمكنت المادية ومدت جذورها الى الحركات التى اضطرم بها هذا العصر ٠

وفى هذا الجو الصاخب الذى يغلى بالحركات والتيارات ويضطرم بالمذاهب والنظريات عاش فيلسوفنا « جون ستيوارت مل » عملاقا بين قادة الفكر والاصلاح فى عصره ٠ ولد فى مطلع ذلك القرن وصحبه حتى نيف القرن على السبعين من عمره ٠ نشأ فى محيط أحداثه وضرب فى زحمته وساهم بقلمه ولسانه فى تياراته وحركاته وأمطر قراءه وابلا من المقالات التى أيد فيها رهطا من ســـاسة عصره الذين دانوا بنفعية بنتام وأبيه جيمس ، هم الزاديكاليون الفلاسفة « ورسم لهم فى مقالاته خطة حركاتهم ووجه بها نشاطهم ، وأفاض فى المطالبة بتعديل النظم النيابيـــة لتفادى عيوبها ورفع مظالمها وأسهب فى تأييد الأوضاع السليمة واقرار المبادىء القوية ومباشرة الاصلاح الاجتماعى وربط بين تفكيره النظرى وروح عصره فأنشأ فلسفة خلقية قوامها المبدأ النفعى ودعا فيه الى العمل على « تحقيق أوفى مقدار من السعادة لأكبر عدد من الناس » ووضع منطقا استقرائيا أوجب فيه على المشتغلين بالبحث العلمى أن يصطنعوا الملاحظة والتجربة فى دراسة الظواهر الحسية ابتغاء الكشف عن حقيقتهـــا ومعرفة عللهـــا ومعلولاتها فكان بهذا أول رائد وضع قواعد البحث العلمى وبشر باخضاع العلوم الأدبية والعقلية لمناهج البحث التجريبى كما كان ابن عصره وبيئته مصلحا اجتماعيا وفيلسوفا نظريا ٠

طفولة فيها ما يكفى للدهشة والعجب !!

فى العشرين من شهر مايو عام ١٨٠٦ ولد « جون ستيوارت » ابن « جيمس مل » الذى شارك فى قيادة الفكر وتوجيهه فى أمته وكان أكبر مريدى « جيرمى بنتام » الذى احتل مكان الصدارة فى توجيه الاصلاح الاجتماعى فى عصره ووضع دعائم مذهب المنفعة العامة الذى يدعو الناس الى العمل على تحقيق أكبر قدر من السعادة لأكبر عدد من الناس ٠ وقدر للوليد الجديد أن يكون وريثهما الروحى وأن تستطير شهرته حتى تكاد تطفىء نورهما وقد عاشر أباه ثلاثين عاما ، وأدرك من حياة بنتام ستة وعشرين ربيعا فكان طبيعيا — مع ما سنعرفه من أمر نضجه الباكر — ان يتأثر فى عمق بشخصيتيهما الغلابتين ! وفطن الفيلسوفان الكبيران الى أن هذا الطفل أخلق أهل جيله بوراثة التركة وتحدثا فى تدبير أمره وخشى

الأب أن يرحل عن دنياه قبل أن يتم تكوين ابنه واعداده لحمل الأمانة الكبرى · وتطوع بنتام فخفف من جزع صديقه ورحب بتبني الوليد وتعهد بتربيته ان قدر لصديقه أن يسبقه الى أخراه ، فكتب جيمس الى بنتام يقول والطفل لم يتجاوز السادسة من عمره : « ما خطر لي الموت الا استولى على خاطر مزعج يقض مضجعي ويثير مكامن الضيق في نفسي ذلك أني سأرحل عن هذه الدنيا وعقل الحادث المسكين لم ينضج بعد ولهذا فاني أرحب بتطوعك لتعهد تربيته راضيا مسرورا فلو قدر لك أن تتبناه وترعاه لتركناه وريثا خليقا بكل منا » · هكذا قدر كل منهما وأبت الأقدار الا أن يسبق بنتام صديقه الى الموت بأربع سنوات ·

ونريد الآن أن نجمل في الصفحات القليلة التالية سيرته العقلية في المرحلة الأولى من حياته وهي تستغرق خمسة عشر ربيعا ، حصل فيها من ألوان المعرفة ما مكنه من أن يحتل بفلسفته مركز الصدارة في قيادة الفكر وتوجيه الاصلاح في أمته · ولا يكاد المؤرخ يخطىء اذا زعم أن سيرته بعد المرحلة السالفة من حياته تلخص تاريخ أمته وتكشف عن أهم التيارات الاجتماعية والسياسية والفكرية في عصر كان يعج بحركات التقدم ويضطرم بالنزوع الى الرقي ويغلي باتجاهاته العلمية ومذاهبه الفلسفية · واذا كان أبوه جيمس وأستاذه بنتام قد قدر لهما أن يعيشا في شبه عزلة وأن يكون تلامذتهما قلة فان فتانا قد استطارت شهرته حتى أصبح في أواخر حياته أظهر مفكري عصره وأوسعهم نفوذا وأكثرهم تلامذة ومريدين · بل انه أثار بطموحه الباكر منذ طفولته دهشة معارفه واعجابهم · فلنقف قليلا عند سيرته في المرحلة الأولى من حياته :

أشرنا الى أنه نشأ في جو عقلي أعانه على أن ينهل العلم مبكرا وأن يسبق أقرانه في السن وينضج قبل أوانه · وفي سيرته في هذا الصدد غرائب فقد روى هو نفسه – في سيرة حياته التي كتبها بقلمه – انه لا يذكر متى تعلم اليونانية القديمة ولكن قيل له انه شرع في تعلمها وهو ابن ثلاث سنين ! وقيل انه قرأ وهو في الثامنة من عمره « هيرودوتس » وست محاورات من أفلاطون – من بينها « ثياتيتس » التي أشار بحذفها لأنه لم يقو على فهمها ! – واطلع على بعض المؤلفات التي خلفها « اكسينوفون » و « لوسيان » وغيرهما وقرأ في السنوات الثلاث التالية « هومير » و « ثيوكيديدس » وبعض أجزاء من « سوفوكليس » و « ايروبيدس » و « أرستوفانس » و « ديموستنيس » وغيرهم · وفي سن الحادية عشرة اطلع لأرسطو على كتاب « الخطابة » ولم يقدر له أن يتعلم اللاتينية حتى بلغ الثامنة من عمره وقد عرف وهو في هذه السن قليلا من علم الحساب ومضى فيه وحده لأن جهل أبيه بالرياضيات جعله يحمل عبء دراستها وحده حتى سبق في مجالها اقرانه ! · وقرأ في عامه الثاني

عشر كثيرا مما كتب « فرجيل » و « هوراس » و « ليفى » و « لوقريتوس » و « شيشرون » واتصل ببعض المؤلفات التى وضعت عن العلوم الطبيعية التجريبية ولا سيما ما كان منها فى الكيمياء وان لم تتح له فرصة يقوم فيها باجراء تجارب علمية • وقرأ الكثير من كتب التاريخ المفصلة المطولة ووقف عندها مع أبيه فى نزهاتهما الصباحية ــ يفند حقائقها ويناقش موضوعاتها وقرأ « هيوم » و « روبرتسون » و « جيبون » وغير هؤلاء كثيرين ، ووضع أبوه فى يده كثيرا من الكتب التى تصور نضال المغامرين والبحارة والمكتشفين منها « روبنسون كروسو » و « ألف ليلة وليلة » و « دون كيشوت » وكثير غيرها •

وفى عامه الثالث عشر شرع فى دراسة الاقتصاد السياسى فقرأ آثار أبيه وريكاردو وآدم سميث وغيرهم من أساطين هذا المجال !!

أما عن الفلسفة ــ التى كان قد عرف بعض دراساتها فى الثامنة من عمره ــ فقد عاد واقتحم معقلها وارتاد أرضها وهو فى الثالثة عشرة والرابعة عشرة من عمره مع استمراره فى قراءة الآداب القديمة والاطلاع على روائعها • ودخل الى الفلسفة من أقرب أبوابها فدرس الكتب الأربعة الأولى فى منطق أرسطو واطلع على منطق المدرسين بعده وأعانه أبوه على فهم القياس المنطقى وتقدير منفعته ، وقرأ أفلاطون وراقه منه منهجه المنطقى وان ضاق بما يعزى الى تلامذته من اتجاهات شعرية وصوفية وعلى هذا النحو مضى فتانا فى دراساته !!

اننا لا نضيف الى طفولة فيلسوفنا خوارق لنثير بها دهشة القارىء بل نعتقد على العكس من هذا ان عهد الحداثة عند العظماء كثيرا ما يخلو من العجائب ويجرى على نفس النهج الذى تجرى عليه طفولة سائر الناس ولا يطعن فى العظيم أن يكون قد قضى المراحل الأولى من حياته على نحو ما عاشها غيره من الأحداث والغلمان ، ولكننا نروى عن فيلسوفنا بعض الحقائق التى اتفق فى روايتها مؤرخو سيرته وفيها ما يكفى اثارة للدهشة والعجب •

وحين أتم فتانا الرابعة عشرة من عمره رحل الى جنوبى فرنسا وقضى بها عاما ، وفيها تعلم الفرنسية واستمع فى معاهدها الى محاضرات شتى ودرس الرياضة والاقتصــــاد السياسى والى جانب هذا استيقظت عنده أذواق ومشارب جديدة وتهيأت له خبرات لم تتيسر له فيما سلف من حياته ، واتصل بعلم النبات فحبب اليه مناظر الطبيعة وغرس فيه الميل الى العلوم التى تدرس ظواهرها ، ثم هو فوق هذا كله وقبل هذا كله قد تنفس طوال اقامته فى فرنسا جوا من الحرية البهيجة التى افتقدها ابان حياته فى وطنه اذ أدى به نظام معيشته الى الجهل بتقاليد المجتمع

الانجليزى وآدابه ولكنه أدرك بعد رحلته الى فرنســـا افتقار مجتمعه الانجليزى الى المشاعر السامية والوجدانات الرقيقة ، واستخفافه الساخر بهذه الألوان من العواطف .

أما المجتمع الفرنسى فقد لاحظ انه يغرس فى نفوس أفراده المشاعر الرقيقة ويهذب قوى النفس ويعمل على تربية العقل ، وراقه ما رآه فى الرجل الفرنسى من رقة وتواد وحب للاجتماع على عكس الرجل الانجليزى الذى يتصرف وكأن كل فرد أمامه يناصبه العداء أو يثير ضيقه ويهيج ضجره ! ويعلق مؤرخو الانجليز ساخرين على حكم فيلسوفنا هذا بأن فيه وصفا لموقف الانجليز من النفعيين !!

وعاد « مل » من رحلته الى وطنه وهو فى الخامسة عشرة من عمره واستأنف دراساته القديمة فقرأ « كونديلاك » وألم بتاريخ الثورة الفرنسية ودرس القانون الرومانى وتوسع فى دراسة « بنتام » واطلع على كتاب تريده « ديمونت » « بحث فى التشريع » وقرأ « لوك » وهلفتيوس وهارتلى وباركلى وهيوم الى جانب ريد ودوجالد ستيوارت وغيرهم كثيرون من المفكرين المعروفين ، فما مست يده كتابا الا أتى عليه قراءة وتفنيدا فتهيأ له من وراء هذا رصيد من المعرفة المتنوعة جعله من أغزر أهل عصره مادة وأرفعهم ثقافة وأغناهم علما ، وأحسن فيلسوفنا استغلال هذه الثروة فحكم فيها عقله الواسع وأطلق له حرية التصرف فيها والانتفاع بها فخلصت له من وراء هذا فلسفة شاملة جامعة امتدت الى مجال المنطق والميتافيزيقا والأخلاق واتصلت بالسياسة وكان لها أثرها الملحوظ فى شتى ميادين الاصلاح الاجتماعى فى عصره بل فى العصور التى أعقبته .

واتجه الى الكتابة وهو فى السادسة عشرة من عمره وتعرف الى فتى فى مثل سنه من طلاب جامعة كمبردج كان متحمسا للمذهب النفعى وعلى درجة عالية من موهبة الخطابة هو « تشارلس أوستن » ، وعرف أبوه من صلته بتشارلس وتحمسه للمذهب النفعى ما حمله على الحاق « جون » بكلية « ترينتى » بكمبردج وكان يعتقد ان الجامعات معقل الرجعية وأنها معوق للمواهب المتفتحة وهناك التف حوله جماعة من الطلاب فألف منهم جمعية تبشر بالمذهب النفعى وانقطع عن الجامعة بعد أن عين كاتبا فى شركة الهند الشرقية عام ١٨٢٣ وقضى بها حياته العملية وتدرج فى وظائفها حتى وصل الى مثل ما وصل أبوه فيها من قبل .

ولم يمنعه العمل عن متابعة نشاطه الفكرى والسياسى فأخذ يكتب فى الصحف داعيا لمذهبه ومذهب أبيه جيمس وأستاذه « بنتام » مهاجما خصومه فى قسوة وعنف يحولان أحيانا دون نشر مقالاته واتصل بالمثالية الألمانيـــة فى الفلســـفة والشعر وقرأ « جيته » كما قرأ « وردزويرث »

و « كولودج » من شعراء الطبيعة الانجليز فتكشف له عالم مغلق عليه أضفى على تفكيره عمقا وأصالة كانا لهما أبعد الأثر فى تطوير فكره وفلسفته عن النفعية فاكتسب المذهب النفعى على يديه جدة وعذوبة وحيوية واعتدالا وحكمة وان ظل فى تفكيره ومثله الأعلى الاجتماعى على تعاليم أستاذه « بنتام » فأخذت السعادة ـ وهى جوهر النفعية ـ على يديه معنى جديدا فأنكر أن تكون السعادة غاية مباشرة أو شعورا قائما فحالما تسأل عما اذا كنت سعيدا توقف شعورك بالسعادة بانصرافك الى السؤال وجوابه كما تبين كيف يروض الألم فيحوله الى احساس بلذة الحياة وما فيها من متع • وكان يقول ان أزمته النفسية كانت تحول بينه وبين الاستمتاع بالموسيقا التى يحبها •

ولم يحل عمله فى الشركة بينه وبين البحث والانتاج العلمى فتوالت كتبه فى الصدور حافلة بالفكر الجديد فى كل ميدان طرقه ، وحفلت المجلات والصحف بأبحاثه ومقالاته فى الفلسفة والسياسة والمنطق وفيما يراه دفاعا عن « مذهب المنفعة » وفى مطالب الاصلاح الاجتماعى والنيابى وحقوق المرأة وفى الدفاع عن مبادىء الراديكاليين وفى غيرها من ميادين البحث المألوفة لدى مفكرى هذا العصر •

وفى عام ١٨٦٥ انتخب عضوا فى مجلس العموم فقضى بين جدرانه ثلاث سنوات يبشر بمنهاجه فى الاصلاح الاجتماعى والسياسى وينادى بتحرير المرأة ويحاول التوفيق بين شيعته من الراديكاليين وطائفة العمال الناشئة التى أخذت تثبت وجودها وتنصرف عن الراديكاليين الى الالتفاف حول دعوة « روبرت أوين » واشتراكيته الجديدة وان لم ينزع عن نفسه ثوب الراديكالية التى رأى العمال ـ بالرغم مما حققته لهم من مكاسب ـ انصرافها الى طائفة الممولين ، اذ راح يقنع العمال عبثا بأن مبادىء الراديكاليين تخدم مصالحهم فى الوقت الذى كان يقاوم فيه بعض مطالبهم كاباحة حق الانتخاب لكل مواطن فباءت محاولته بالفشل •

وعندما أجريت الانتخابات التالية هزمه منافسه مرشح « التورى » ، فآب الى عزلته وأبحاثه حتى وافته منيته عام ١٨٧٣ بعد حياة حافلة تسنم فيها قمة الفكر الانجليزى قاطبة •

وخلت حياته من الهزات العنيفة الا ما كان من غرامه بالسيدة « هاريت » وتدله فى حبها وبادلته حبا بحب وكانت امرأة ذكية تصغره بثلاث سنوات ولعت بالفلسفة والعلم ودرست المنطق وانصرفت الى قراءة « مل » وكلفت به حتى قالت عنه « انه يمثل غاية ما فى البشرية من سمو » وكلف بها « مل » وصحبها فى جولة بأوربا للنقاهة من مرض أصابه وضاق أهله وصحبه بعلاقته بها فلم يلق بالا اليهم واعتزلهم فقد أغناه

الحب عن كل عشرة فى الوجود ، وقضيا فى هذه العلاقة التى وصفهـا بالبراءة واحدا وعشرين عاما قبل أن يتزوجها عام ١٨٥١ .

ويرد اليها « مل » الفضل فى الكثير من انتاجه مما نوه به وأشار اليه فى سيرته وأهداها أعظم ما كتب كتابه « عن الحرية » فلما قضت عام ١٨٥٨ اثر التهاب رئوى هزته الفجيعة فاعتزل الناس وثوى الى دار فى « أفنيون » يطل منه على قبر الغالية ولا يتركه الا الى « بلاكهيث » حيث يقيم بعض الوقت مع ابنة زوجته ويختلف اليه مريدوه بين حين وآخر ولم يجد عزاءه فى غير العمل فوهبه كل وقته حتى وافته منيته فى ٨ مايو ١٨٧٣ فى الضاحية التى تضم رفات الغالية الراحلة .

عـــن الحريـــة

كان « مل » يعتقد أن كتابه « عن الحرية » هو أثره الخالد الذى يطاول الزمن ويبقى على الأحقاب فيصلا بين الحرية الفردية والسـلطة العامة التى يحكمها العرف أو يحكمها القانون سلطة المجتمع أو سـلطة الدولة وصح ما تبينه فما من كتاب أكثر اقناعا وأعلى منطقا ككتابه « عن الحرية » وما من مفكر عرض للحرية فى اخلاص وايمان كما عرض لهـا جون ستيوارت مل وما من نظرية تحدد غاية الدولة كما تحددها نظريته فى الحرية وفى الاقتصاد السياسى وان عفت نظريته الاقتصادية وبقيت نظريته عن الحرية أسمى ما يمكن أن يحدد النفع الاجتماعى للحرية وأقوى ما يكتب عن حقوق الأفراد .

لم يلجأ فى كتابه الى استجداء العاطفة والشعور ولم يكن لاتجاهات العصر الرومانسى أثر كبير على تفكيره ، وان أضفى انطلاقه الفكرى وفهمه العميق للتاريخ على حججه ومنطقه الاستقرائى عذوبة وحيوية .

كان تفكيره امتدادا لتفكير القرن الثامن عشر وايمانه بالعقل ، غير أنه كأستاذه بنتام لم ير فى جمود القانون الطبيعى ما يحقق نظرته للحياة تلك النظرة التى تقوم على تنمية الفضائل واذكاء العقل لدى الأفراد . فمنفعة المجتمع لا تتحقق الا بضمان حرية الفرد وفى هذا الاطار تتحدد غاية الحكومة فمتى عرفنا الغايات التى تضمنها الحكومة وتعمل على حمايتها وتشجيعها أمكننا ان نحدد أفضل شكل لحكومة تتكيف مع تلك الغايات وتتلاءم معها .

ولا تقاس الحكومة الصالحة الا بمقدار ما يتمتع به أفرادهـا من فضائل الخلق والسلوك والتقدم العقلى العام أو بعبارة أخرى بمقدار

ما تصطنعه من مواطنيها وما تصنعه بهم ولا يتأتى ذلك ما لم تفسح لكل فرد أوسع مدى لتنمية مواهبه واذكاء ملكاته فان حرية الفكر وحرية العمل هما أثمن ما تقدمه الحكومة لرعاياها ٠

وليس لأى فرد أو جماعة أن تعوق حرية الانسان الا دفاعا عن النفس وما من مسوغ لاستخدام القوة المشروعة ضد ارادة الفرد الا لمنعه من ايقاع الأذى بالآخرين ٠ فسلوك الفرد حيال غيره هو ما يقع تحت رقابة المجتمع أما سلوكه حيال ذاته فمما لا يصح لأى فرد أو جماعة أن يتعرض له ٠ فالانسان سيد نفسه له مطلق الحريق على جسده وعقله فاذا بدر منه ما يسىء الى نفسه فما على المجتمع الا أن يقومه بالنصح والتعليم والاقناع فان لم يجد فمن حقه أن ينبذه اذا وجد فى ذلك خيرا له ٠

ويقسم « مل » كتابه عن الحرية الى خمسة فصول يمهد فى أولها لفكرة الحرية ويخص الثانى بحرية الفكر والمناقشة والثالث بالفردية كعنصر من عناصر الحياة الطيبة والرابع بحدود سلطة المجتمع على الفرد والخامس بما دعاه « تطبيقات » ويقصد بها تطبيق مبادئه وآرائه على المجتمع ٠

وتتضمن هذه الفصول بما عرضت له من شتى النواحى فكرة واحدة هى الحرية فى كل أشكالها ومراميها وانطلاقاتها ٠

غرض « مل » من كتــابه

ونراه يحدد الغرض من كتابه فيقول : « لا يتنـاول هذا المقـال ما يســمى حرية الارادة وهى التى تتعارض مع ما يدعى خطأ بفلســفة الضرورة ولكنه بحث فى الحرية المدنية والاجتماعية وطبيعة الحدود التى يمارسها المجتمع شرعا فى سلطانه على الفرد وهى مسألة قلما اتضحت أو كان من اليسير مناقشتها والكتابة عنها مع ما لها من تأثير بالغ بصورتها الكامنة على قضايا العصر العملية وتوشــك ان تصبح أخطر ما يشــغل الأجيال القادمة فى المستقبل وهى أبعد من أن تكون محدثة فقد ناشت البشرية منذ القدم ومع التقدم الذى أحرزته الفـــئات متحضرة من بنى الانسان قد أخذت تسفر عن وضع جديد تحتاج معه الى بحث جاد يختلف عما مضى » ٠

ويمضى فى شرح مفهوم الحرية عند الأمم القديمة لا سيما اليونان والرومان والانجليز ولعـله حين خصهم بذلك ؛ فلأن الفــكر اليونانى والرومانى يمثلان المنابع الأصيلة للفكر الأوربى الحديث ٠ أما الانجليز

فلأنه ينتسب اليهم ويكتب لهم ، فيقول ان الظاهرة البارزة فى تاريخ تلك الأمم هو الصراع بين الحرية والسلطة لحماية الأفراد من استبداد الحكام اذ كان هؤلاء الحكام ـ فردا أو جماعة ـ بحكم الضرورة خصوما للرعية يستندون فى حكمهم الى حق الفتح أو الوراثة ، وينتفى أمام سلطتهم المطلقة كل حق المحكومين ، وكثيرا ما كانوا ينتضون تلك السلطة فى وجه الرعية لذلك كان مفهوم الحرية حينذاك هو تقييد سلطة الحاكم على المحكومين بعهود أو ضمانات هى التى ندعوها « حقوقا سياسية » ، أو باقامة حدود دستورية يصبح فيها الشعب أو بعض هيئاته شريكا فى السلطة فلا يتخذ الحاكم قرارا دون موافقتها ٠

ثم نشأت الأنظمة الديمقراطية فكان القائمون على السلطة ممثلين للأمة أو وكلاء عنها تتمثل ارادتهم ارادة الأمة مدة انابتهم عنها ولها حق عزلهم متى شاءت وان كان هناك من يرى أنه متى توحدت ارادة الحاكم وارادة المحكومين فلا خوف من الاستبداد ، اذ لا يعقل أن يستبد الشعب بنفسه ٠ وعلى الشعب أن يأتمن حكامه على سلطتهم ما دام قد حدد لهم طريقها ومداها ٠

ولما كانت السلطة لا تمثل الارادة العامة وانما ارادة الأكثرية أو من يقوون مقامها فليس من البعيد أن يقع الضيم على الأقلية الخارجة على الاجماع مما يحملنا على توقيه بتقييد سلطة الحاكم على الأفراد ٠

استبداد المجتمع

الا ان أخطر ما يتعرض له الفرد هو استبداد المجتمع فقد درج الناس على تقاليد وعادات يرون فى الاجماع عليها ما يسوغها ، يستوى فى ذلك ما يسنده العقل والمنطق أو ما يقوم على الهوى والوهم وان حملتهم المصلحة على الهوى غالبا أو حملهم الوهم الذى تطيب به نفوسهم ما تنبنى عليه عواطف من الحب والكره تحدد سلوكهم أمام القانون أو أمام الرأى العام ، وأكثر ما تتبدى تلك العواطف سافرة فى العقيدة الدينية ، حيث تتجلى شعور الكراهية والحقد للمخالفين وان أدى الخلاف الى تقرير الحرية الدينية ضمانا لكل فريق فى البقاء والدفاع عن مذهبه بعد ان تعذر على ايهم القضاء على المخالفين وكان هذا الجانب من جوانب الحرية وحده الذى لقى من التأييد ما ينكر على المجتمع فرض سلطانه على المخالفين الا أن ما ساعد على تقرير هذا الحق هو انصراف الناس عن الدين ، والملل من الجدل الدينى الذى يعكر على الناس راحتهم وهناءهم ولكن هذا الحق ما زال مقيدا لا يجيز نقد العقيدة وان أجاز نقد الكنيسة أو يجيز أشياء

ويقف دون أشياء أخرى وطالما ظل المجتمع على فطرته من التعصب لعقيدته بقيت حوافزه تحمله على التعرض للمخالفين مما يعوق حرية الفكر والضمير .

فسلطة المجتمع التى يمثلها سيادة العرف وسلطة الحكومة التى يمثلها القانون هما ما يحملاننا على تقرير مبدأ واضح بسيط وهو ألا يجوز التعرض لحرية الفرد الا لحماية الغير منه أو لمنعه من الاضرار بغيره فهو الغاية الوحيدة التى تبرر السلطة التى تحكمه وتنتفى دونها كل غاية حتى وان كانت لحماية الذات فلا يجوز ارغام الفرد على انتهاج سلوك معين بحجة حمايته من الاضرار بنفسه أو ماله ، وان تكن أسبابا كافية لمناقشته فيما ينبغى عليه لحفظ ذاته وماله ، الا أنها ليست على الاطلاق سببا للحد من حريته ، فالانسان حر فى ذاته مطلق التصرف فى جسمه وعقله وان كان هذا مما لا ينطبق على القصر من الأطفال والمراهقين ممن يحتاجون الى رعاية غيرهم وتوجيههم ولا يندرج على الشعوب المتأخرة فهى أشبه بالقاصر الذى يحتاج الى الرعاية والتوجيه ، فاذا قدر لها حاكم مصلح ينهض بها ، جاز له أن يتخذ ما يتراءى له من اجراءات تكفل له غايته ، وليس لها أن تعترض عليه ما دام الاصلاح مبتغاه وقصده . فالأصل فى الحرية ألا يجوز منحها قبل أن يصبح الشعب قادرا على أمره ، مدركا لصالحه ، يعى حرية المناقشة ويعرف معنى المساواة والا وجبت عليه الطاعة لعاهله حتى اذا بلغ الشعب رشده - كالشعوب التى تكتب لها هذا البحث - لا يصبح الاستبداد جائزا ولا يصبح اكراهه على أمر حقا .

المنطقة الحرام !!

ويستغنى « مل » عما يؤيد رأيه من حق الفرد المجرد فى الحرية ولا يجب أن يتخذ من حافز المنفعة - لا باعتبارها مردا لكل حافز أخلاقى ولكن باعتبارها أساسا لكل ما للانسان من مصالح خالدة ككائن حى متطور - سندا لحجته فليس هناك ما يبرر ارغام الفرد أو الحد من حريته الا فيما يتصل بمصالح الغير فاذا وقع منه ضرر على الغير استحق الجزاء القانونى أو الجزاء الأدبى الذى يوقعه به المجتمع حيثما تداعت صولة القانون ، ويعنى بهذا ان حق الفرد فى الحرية أقوى وأبرز من أن تسوق له البراهين والحجج لتأييده ، وان كان هناك ما يجيز حمل الفرد على القيام بعمل ينتفع به الآخرون كارغامه على القيام بواجبه فى الدفاع عن الوطن أو أداء الشهادة أمام المحاكم تحقيقا للعدالة بل ان المجتمع ليحاسبه اذا تقاعس مثلا عن انقاذ آخر من الهلاك أو التصدى لظلم يحيق بمستضعفين ما دام قادرا عليه فالفرد قد يوقع بتقاعسه كما يوقع باقدامه الأذى بغيره ، والقاعدة فى الحالين هى ما يسببه من أذى للآخرين وان

كان الأذى فى اقدامه بين لا يقبل الشك وفى احجامه أو تقاعسه مما يقبل الشك ما لم ينتف الشك فى الأذى الذى يقع عن تقاعسه .

الا أن الفرد فى مسـئوليته أمام القانون وقبل المجتمع عما يمس مصالح الآخرين قد يخضع لظروف يكون من الأجدى فيها رفع المسئولية عنه اذا أدى الارغام مثلا الى ضرر أشد مما لو ترك وشأنه ليحل الوازع والضمير محل القانون .

أما ما يتصل بسلوك الفرد ولا يؤثر فى الغير أو يؤثر فيهم طوعا ورضا وقبولا فهو المنطقة الحرام فى حرية الانسان وتتمثل :

أولا : فى حرية الضمير وما يتصل بها من حرية الفكر والعقيدة والتعبير والمناقشة بأوسع معانيها .

وثانيا : فى حرية الفرد فى اختيار ما يوافق ذوقه ومزاجه وتكييف حياته على ما يحب ويرضى ما دام لا يتعرض للآخرين بأذى حتى وان جلب على نفسه المضرة .

وثالثا : حرية الاجتماع للراشدين دون اكراه أو تدليس لغرض لا يضير الغير .

فما من مجتمع لا يجل تلك الحريات ويكفلها الا وهو مجتمع غير حر مهما كان طرازه ومهما تكن حكومته . فجوهر الحرية يقوم أصـلا على الانطلاق الذى يحمل الأفراد على السعى وراء مصالحهم أيان يريدون وكيفما يبتغون ما داموا لا يتعرضون بالأذى للغير فالفرد سيد نفسه وبدنه وعقله ولا تعانى الانسانية من حرية ينطلق فيها الناس كما يحبون كما تعانى من تكبيلهم بقيود يفرضها الغير .

ويستطرد « مل » فيقول ان التسليم بمبدأ الحرية لم يحل بين المجتمع واملاء سلطانه على الأفراد ، بل انه ليرغمهم على ما يرضاه لذاتهم أو حياتهم الاجتماعية لا بقوة الرأى العام فحسب بل يلجأ الى القـانون مستعديا اياه حتى فيما لا يصح أن يعدو اليه ما دام الاتجاه السادر يعلى من سلطان المجتمع ويوهن من قوى الفرد وتلك سوأة لا يرجى زوالها بقدر ما يخشى تفاقمها ، فما زال الناس حكاما ومحكومين نزاعين الى فرض آرائهم وميولهم على الغير ، يحملهم عليه ما يجيش بنفوسهم من خير وشر على حد سواء هما من خصائص الطبيعة البشرية وهى نزعة لا يفل غربها غير حاجتها الى القوة وما دامت تلك القوة فى ازدياد فلن يقف دونها حائل ما لم يكن لها وازع من الضمير .

حرية الـــرأى

وينتهى « مل » من هذا التمهيد ليبدأ بجانب من جوانب البحث يراه متصلا بما ساقه من آراء عن سلطة المجتمع هذا الجانب هو « حرية الرأى » وما يندرج تحته من « حرية التعبير والكتابة » فهما وان كانتا شائعتان فى البلاد التى تتمتع بحريتها الدينية والسياسية الا أن أصولهما العملية والفلسفية ما زالتا غامضتين فى أذهان العامة ولا تجدان التقدير الجدير بهما من قادة الرأى العام ، فاذا وعيناهما كان ذلك خير تمهيد لجوانب البحث الأخرى ٠

١ ــ حرية الفكر والمناقشة :

ويبدأ هذا الموضوع بتقرير مبدأ يراه سياج حرية الفرد القمين برفع كل ضيم أو اكراه يقع عليه من جانب الدولة أو المجتمع أو كليهما معا وهو الا يجوز لأية حكومة سواء بنفسها أو بتأييد الشعب أن تخرس فردا واحدا عن ابداء رأيه فلو اجتمع الناس قاطبة على رأى وخالفهم فيه فرد واحد لما جاز اخراسه فليس الاجماع دليلا على الصواب وليست القلة دليلا على الخطل وحرمان الفرد من ابداء رأيه مضرة للناس وحرمان للانسانية من دواعى الرقى والتقدم ٠ فاذا كان الرأى صوابا فقد حرم المجتمع من فرصة التغيير ، وان كان خطأ فقد حرم من فرصة المقارنة التى تؤكد ما هو عليه من حق ٠ فاذا ادعينا العصمة فى الاجماع فقد أقمنا اليقين على باطل وكفى بذلك دليلا على خطل تقييد حرية الرأى ٠

ويستقرىء « مل » التاريخ فيروى كيف خطأ المجتمع « سقراط » واتهمه بافساد عقول الشباب ، وحمل حكومة أثينا على محاكمته والحكم باعدامه وهو أجدر أهل جيله بالتقدير والاكبار ٠

وتقدم « مل » بأربع حجج يدلل بها على ان صلاح الناس عقليا وفى كافة شئونهم انما يستلزم كفالة حرية الفكر والمناقشة هى :

اولا : ان اخماد رأى قد يخمد حقا ومن ينكر احتمال ذلك فانما يدعى العصمة ٠

ثانيا : اذا افترضنا لاخماد الرأى مجافاته للصـــواب جاز افتراض انه يتضمن بعض الحق وهو الواقع فعلا فلا تكتمل الحقيقة اذن الا اذا قارع السائد رأى مخالف ٠

ثالثا : فاذا كان الرأى صوابا واشتمل على كل الحقيقة وجب كفالة الحرية فى مناقشة جادة ليقع فى أذهان الناس على ثقة ويقين ٠

رابعا : وتضعف الآراء وتتلاشى حتى تفقد تأثيرهــا على الأخلاق وتغدو العقيدة ألفاظا جامدة جوفاء لا تحقق خـيرا ولا نفعا ولا تؤثر فى سلوك الناس اذا ما حيل بينها وبين المناقشة ٠

ولا يجوز الحجر على حرية المناقشة حتى وان تجاوزت حدود العرف والآداب فتعيين مثل هذا الحد الفاصل جد عسير والانسان بطبعه يضيق بما يخالفه أو يكشف خطأه ٠ والواجب أن يلتزم الناس الحق والاخلاص فى النقاش وان يحذروا التعرض لخصومهم فى أشخاصهم والتهكم عليهم وخاصة اذا كانوا من الخارجين على آرائهم ، فالرأى العـام هو الحـكم وما أحرانا أن نلتزم الحق فى محاربة التعصب والشطط والنفاق ! ، وما أحرانا بالتزام الأمانة فى مقارعة الخصم وتفنيد حججه ! ٠

٢ ــ الفردية عنصر من عناصر الحياة الطيبة :

وبعد التمهيد الذى ساقه « مل » لموضــوعه وبعد ان أسهب فى الحديث عن حرية الفكر والمناقشــة يعرض للفردية كعنصر من عنــاصر الرفاهية أو الحياة الطيبة ويبدأ فى البحث عما اذا كانت مبررات حرية الفـــكر والتعبير تكفى لأن تكون مبررا لحرية التصرف أو حرية العمل بشرط ألا تسبب ضررا للغير ٠ وقبل أن يمضى فى عرض رأيه يؤكد هذا الشرط الأخير فيقول : « ليس هناك من يدعى بأن حرية العمل قرين حرية الفكر » فالرأى يفقد حرمته اذا وقع منه ضرر ، فلا حرج على من يقول ان تاجر القمح يقتل الناس جوعا أو ان الملكية الخاصة ضرب من السرقة ، ولكن اذا كان هذا القول فى جمع من الغوغاء تجمهر أمام متجر للغلال ، فانه مما يوقع ناشره تحت طائلة العقاب ، ويوجب على الرأى العام أو القانون منعه فعند هذا الحد تنتهى حرية الفرد ، اذ لا يجوز له ان يجلب السوء للآخرين أو يكون سببا فى سوء يقع عليهم ٠ أما اذا كان تنفيذ رأيه لا يعدو ذاته فلا ضير من ان تطلق له حرية العمل كحرية الرأى سواء بسواء ما دام لا يتسبب فى ضرر للآخرين ، فما يصدق على حرية الرأى يصــدق على حرية العمل ولن تستقيم الحيــاة ما لم تتأكد شخصية الفرد ولن ترقى الحضارة ويطرد التمدن ما لم يكن للفردية كيانها المستقل ٠

ومما يعوق حرية التصرف أن يرى الســـواد الأعظم من النـــاس ما تعارفوا عليه من أوضاع اجتماعية صالحا لكل فرد ، وأكثر منه اعاقة أن يهمل الفلاسفة والمصلحون هذا الجانب من جوانب الفردية وكأن الناس

لم يخلقوا الا ليقلد بعضهم بعضا تقليد القردة فيحولوا بين الفرد وبين الخلق والابداع وبين النمو والتطور ، وكأن تجارب البشرية وما فيها من تنوع لا تهديهم الى ما فى طرائق الحياة من تمايز وأن لكل فرد أن يختار لحياته ما يرضيه وما يراه متفقا مع خصاله وسجاياه مهتديا بما كان من تجارب الآخرين ، فانها وان لم تكن شاملة لكافة الخبرات أو مناسبة لظروف كل فرد مع انها صالحة فان تقليدهم لها دليل على ما أفادوا منها وهى بهذا قمينة بالتقدير ، الا ان العادات مهما كانت صالحة ومناسبة فليس للانسان أن يدين بها لا لشىء الا لأنها مقررة تدين بها الجمهرة من الناس فانه فى هذا يغدو أقرب الى مرتبة الحيوان ولا يميز الانسان على الحيوان غير الادراك والفطنة وهما فى حاجة الى التدريب والمران .

ويستطرد « مل » قائلا :

وأكرم للانسان ألا يعوق حوافزه ورغباته عن التفتح والانطلاق ليؤكد ذاته وينمى شخصيته ، بشرط ألا يجور على الغير فيعوق نوازعهم عن الانطـلاق ويعطل فرديتهم عن التفتح والنمو ، مما يعوق نمـو المجتمع بأفراده ، فاطلاق الحرية للأفراد جد عسير ما دامت طبيعة المجتمع تقوم على المعاشرة والاجتماع فالقيود التى نرضاها لحرية الفرد ليست مما يعوق نمو الأفراد فان الاطلاق فى جانب جناية على الآخرين فى جانب آخر ثم ان هذا القيد اذ حد من أنانية الفرد نمى جانبه الاجتماعى فأصبح محبا للخير الذى يجلب المنفعة للغير ، على ألا يؤدى ذلك الى انكار ذاته والاستبداد بشخصه سواء أكان الواعز فيه الارادة الالهية أم ارادة الانسان .

وجدير بنـا ان ننتفع باطلاق الحرية بما تضيفه على العباقرة من تفتح وانطلاق يكشفان عن المجهول ويرودان بهم آفاق الخلق والابداع فتتجدد الحياة على الأرض وتستقيم فلا تبلى ولا يخمد لها أوار فما من جديد فى الحياة الا وهو عمل الفرد وما من شىء طيب الا وهو وليد فكر عبقرى .

٣ ــ حدود سلطة المجتمع على الفرد :

ويمضى « مل » فيقول ان ما يخص الفرد وحده من حقوقه وما يخص المجتمع فهو حق للمجتمع .

فالفرد حين يعيش فى رحاب المجتمع ويتمتع بحمايته يرى نفسه مدينا له ومطالبا بسلوك معين قبل أفراده ــ أولا ــ أن يتحاشى الاضرار بمصالح الغير وعليه ــ ثانيا ــ ان يتحمل نصيبه من التضحية التى يتطلبها المجتمع كحمايته من الأذى أو دفع العدوان عنه ، فان أهمل ذلك حق عليه عقاب المجتمع عن طريق القانون أو طريق الرأى العام ، فان كان

فى عمل الفرد مضرة بالغير لا تصل الى الاعتداء على حق من حقوقهم المقررة كان للرأى العام دون القانون حق عقابه ، وفيما عدا ذلك فللفرد حريته كاملة غير منقوصة فاذا جاز لنا ارشاده وتقويمه بما للناس على بعضهم البعض من واجب الرعاية لم يجز لنا اكراهه على شيء أو حمله عليه عنوة وقسرا ، فما من انسان أبصر بمصلحته غير نفسه وان كان عليه أن يكون بصيرا بما يتفق عليه الناس من قواعد عامة بما ينتظره منهم ويحظى بتقديرهم ، فلست من القائلين بأن صفات الفرد وعيوبه الذاتية مما لا يجوز أن يؤثر فى رأى الناس فيه فانه ولا شك قمين بالتقدير اذا ما تحلى بالصفات التى تعود عليه بالخير ، فاذا كان عاطلا منها الى درجة شائنة كان حقيقا بالاستهجان بل والتحقير فقد يقترف المرء أفعالا لا تلحق بغيره أدنى مضرة تحملنا على ان نصفه بالسفه أو الحمق أو الانحطاط ومن الخير له ان نحذره منهـا ، وعلينا أن نتوسع فى هذا الخـير ، بأكثر مما تجيزه آداب تعارفنا عليها فاذا قلنا لانسان انه مخطىء فلا يصح ان يقال اننا نتجاوز حدود اللياقة أو اننا نتدخل فى شئون الغير فلك الحق فى أن تتجنبه دون أن تضطهده ولك الحق أن تحذر الغير منه أو تؤثر الغير دونه بخيرك وبرك .

وغاية ما أقوله ، واعمل على اثباته ، هو انه لا يجوز للمجتمع أن يتدخـل فى شئون أفراده الا فيما يتجاوز ذواتهم الى ذوات الآخرين ، فالانسان حر فى كل ما يتعلق بذاته ، ولكنه ليس حرا فى أن يصيب الآخرين بضرر ، فالكذب والغش والخداع والظلم بل السلبية التى تؤدى الى مضرة بالغير مما تعرض صاحبها للتوبيخ ان لم تؤد الى الجزاء القانونى عندما تقع تحت طائلة القانون وان كانت هناك صفات تؤلف خلقا خبيثا كالنفاق والطمع والأنانية والحسد ، تسم صاحبها بالحمق وتفقده الهيبة والكرامة ولكنها لا تجيز العقاب الا اذا ترتب عليها اخلال بواجبات الفرد نحو غـيره . فهناك فرق كبير بين ما يستحقه الفرد لعيب ذاتى وبين ما يستحقه لعيب تقع مضرته على الغير . فاذا كنا نتجنب الشخص لعيب فى ذاته فليس من حقنا أن ننغص حياته ونقلق راحته ، فحسبه ما ينال من سوء المصير بل ان واجبنا حياله ان نهون عليه بارشاده الى سبيل الخلاص لا أن نزيد فى آلامه ، بخلاف ما اذا أصاب الغير بضرر فردا كان أو جماعة فان على المجتمع بصفته حاميا لكل أفراده أن يوقع به أشـد العقاب .

ولكن من الأفعال الذاتية ما يمس الآخرين بطريق غير مباشر ، فالسفه وتبديد المال قد لا يقف ضرره على صاحبه بل يمتد الى ذوى قرباه أو من يعولهم والاضرار بالصحة قد يؤدى الى العجز فيصبح الفرد عالة على غيره

فان لم يكن هذا أو ذاك فانه قدوة سيئة يمكن أن تمتد عدواها الى المجتمع .

ومثل هذه الأفعال اذا تجاوزت الذات الى الاخلال بحقوق الغير وقعت تحت طائلة الجزاء الأدبى لا للسلوك ذاته ولكن لما يترتب عليها من أذى للآخرين ، فمن ينفق ماله فى وجه مشروع كمن ينفق ماله سفها اذا كان المال معدا للانفاق على الأسرة أو للوفاء بدين ومن يقترف فعلا ذميما يؤلم ذوى قرباه كمن يقترف فعلا غير ذميم بالمعنى المقصود ولكنه يسبب الضيق لمن يعاشرونه ، أو من يقارف فعلا ذاتيا محضا لا يستحق العقاب ولكن اقترافه اياه أدى الى الاخلال بواجبه نحو الجمهور كالشرطى الذى يسكر أثناء قيامه بعمله حينئذ يتجاوز السلوك نطاق الحرية ويلج دائرة الجزاء الأدبى أو القانونى متى أصاب فردا أو جماعة بضرر .



ويختم « مل » بحثه بما دعاه « تطبيقات » فيقرر حقيقتين هما خلاصة بحثه عن الحرية : أولاهما أن الفرد حر فيما يفعل وليس للمجتمع أن يفرض عليه أية مسئولية فيما يتعلق بذاته منها الا أن ينصح ويرشد ويوجه . وثانيهما : أن الفرد لا يسأل أمام المجتمع الا اذا مست أفعاله الغير ونالتهم بضرر وللمجتمع حينئذ أن يوقع بالفرد من العقاب الأدبى أو القانونى ما يراه كفيلا بحماية مصالحه .

وحتى لا يترك ظلا من الشك حول الحدود التى يراها لاقامة المسئولية يعود الى مناقشة تطبيقاتها فى بعض الحالات ، فيرى أن بعض الأفعال الفردية قد تسبب ألما أو خسارة للغير أو تحرمه نوعا من المنفعة وهى وان كانت فى الغالب نتيجة نظام اجتماعى فاسد الا أنها أنفع للفرد وأنفع للمجموع فحيث يفوز الانسان بالسبق وينجح على غيره ينفع نفسه وينفع المجموع . وان سبب فوزه ألما أو خسارة لمنافسيه وهو فعل مشروع ما لم يكن الغش والخديعة أو الاكراه وسيلة للنجاح .

ولا يرى « مل » فى القيود التى تفرض على التجارة والصناعة ما يتعارض مع الحرية الشخصية ما دامت قاصرة على ما يمس المجموع فاذا عدتها كانت خطأ لا يجوز اغفاله فمراقبة الغش وفرض شروط صحية على المصانع وتحريم بيع السموم ومنع تصدير الأفيون مما يحمى المشترى لا تعد اعتداء على حرية البائع مع مبدأ حرية التجارة أو الحرية الشخصية ، كما لا يعد منع ارتكاب الجرائم اعتداء على حرية من ينتويها أو وضع بطاقة على قوارير السموم قيدا على الحرية .

منفعـــة المجتمـــع

وهكذا ينتهى « مل » بتقرير الحرية المشروعة للفرد فى اطار المجتمع الذى يعيش فيه وحاول أن يقيم نوعا من التوازن بين الفردية والجماعية وخرج على مذهب أستاذه بنتام فى طبيعة المنفعة فقد فضل بنتام منفعة الفرد على منفعة المجتمع بينما فضل « مل » منفعة المجتمع على ألا تطغى على حرية الفرد وجعل يضرب لذلك أمثلة عديدة ويسهب ويطيل فى شرح نظريته حتى يؤكدها للناس وكأنه يخشى أن يضلوا حقيقتها اذا لم يتحوط لكل شك فى مدلولها ٠

وقد ســادت النزعة الفردية فى القرن التاسع عشر حتى أخــذت الجماعية تزحمها ببزوغ النظرية الاشتراكية التى تركت آثارها واضحة فى تفكير « مل » حين حاول أن يقيم نوعا من التوازن بينهما ٠

ولقيت نظرية مل فى الحرية والمنفعة أرضا طيبة فى مصر فى مطلع هذا القرن حين أخذ لطفى السيد يبشر بها ويدعو اليها على صفحات الجريدة ، ويبدع لها مسمى جديدا على العربية هو « مذهب الحريين » واستهوت النظرية كثيرا من المثقفين فقام الأستاذ طه السباعى فى شبابه المبكر عام ١٩٢٢ بترجمة كتاب « مل » عن الحرية وأعاد طبعه عام ١٩٤٣ ٠

الحرب والسلام

ليو تولستوى

١٨٦٤م

الأدب الروسي اذا لم يكن نسيج وحده في آداب العالم القديمة والحديثة فانه من الطراز الأول · واذا كان في العالم من الآداب ما كتب له الخلود فان قصص تولستوى وجوركي ودستويفسكي وغيرهم هي من خوالد الدهر التي لن تموت · بل هي أحرى بأن تكون مقياسا تقاس عليه آداب الأمم الأخرى فينسب اليها الفضل أو النقص بنسبة قربها أو بعدها عن الطريقة الروسية ·

ولكن ما هي هذه الطريقة الروسية ؟ هي حسب الظاهر الطريقة التقريرية الواقعية ، فالكاتب يتلمس الحقائق ويرسمها للقارىء كما هي في الواقع بدون أن يلبسها خيالا كاذبا ، ونقول « كاذبا » لأنه سيضطر الى أن يكسوها بخياله الشخصي مهما حاول أن يحايد أو يقتصر على الحقائق ، ولكنه عندئذ لا يكذب فهو يقرر الحقائق وهذا الخيال الذى يكسوها به يجد صدى في نفوسنا تعرف فيه الصدق والاخلاص فنحبه ويصير أبطال القصة أشبه شيء بأصدقائنا أو بأنفسنا ·

وهذا حسب الظاهر · ولكننا عند التحليل نرى ان تفوق الأدب الروسي يرجع الى أن الأدباء الذين وضعوا هذا الأدب لم يكونوا يقصدون الى الأدب ، وانما قصدوا الى الحياة يحاولون تبديل معاييرها في أنفسهم وغيرهم والسعي الى معيشة جديدة يعيشونها فكان أدبهم بذلك ثمرة الحياة وفي صميمها وليس لعبا ولا بهرجة حول هوامشها · ولذلك فاننا نجد العظماء من أدباء روسيا لم يؤلفوا الأدب بمقدار ما عاشوه وهذا هو ما يدعونا الى القول على الدوام بأن التجديد في الأدب لا يكون شيئا آخر سوى ثمرة التجديد في الحياة وان الأديب يجب أن يتجدد قبل أن يجدد ·

الكونت ليو نيكولايفيتش تولستوى روائي روسي وفيلسوف خلقي · ولد في ٢٨ أغسطس (وقيل ٩ سبتمبر) سنة ١٨٢٨ بالقصر الريفي لوالديه في ضيعة « ياسنايا بوليانا » في اقليم « تولا » وكان آل « تولستوى » من الأسرات الروسية العريقة الحسب والجاه التي يرجع أصلها الى القرن السادس عشر ولم تكن تمت الى أصل ألماني كما قيل في كثير من الأحيان ، وكما كان « تولستوى » نفسه يعتقد · وقد كان جده الأكبر « بطرس اندريفيتش » سليل وصيف في بلاط القياصرة ولكنه استطاع بطموحه أن يصبح سياسيا لامعا وعين أول سفير لروسيا لدى الباب العالي (تركيا) سنة ١٧٠١ حيث خاض مغامرات ديبلوماسية

ادت الى سجنه هناك وكادت تفضى الى حرب بين تركيا وروسيا ، وعندما أفرج عنه فى سنة ١٧١٤ عاد الى وطنه حيث ساهم بنشاط كبير فى الأحداث السياسية وأنعم عليه القيصر بطرس بلقب « كونت » ٠ أما والد « ليو » فكان نيكولاس « نيقولا » ايلييتش الذى تزوج من الأميرة مارى فولكونسكى ، فحملت اليه ثروة دسمة وأنجبت له خمسة أبناء كان « ليو » الرابع بينهم ٠٠ وكانت الأوساط التى نشأ فيها مثلا لما كان يحيط علية القوم من أرقى مصاف الطبقة الوسطى ـ فى روسيا فى أواخر عهد الاستعباد والرقيق مما جعل نظرته الى الحياة تجمع بين آراء علية القوم وآراء الفلاحين المستضعفين ٠

نشأته وصدر شبابه

ماتت أمه فى سنة ١٨٣١ ولحق بها أبوه فى سنة ١٨٣٧ ، فتولت تربيته بعض قريباته المسنات وكان يضطلع بتعليمه مدرسون فرنسيون خاصون ـ على ما كان شائعا فى الأوساط الراقية فى روسيا ـ اذ ذاك ـ فكانت المصادر الأولى لتكوينه الفكرى والثقافى مستمدة من النظم الفرنسية التى كانت سائدة فى القرن الثامن عشر فلم يقدر له أن يتصل بالثقافة الروسية فى عصره الا فيما بعد ، وفى ظروف لم تكن لتشجعه على الميل اليها ٠ وفى سنة ١٨٤٢ التحق « تولستوى » بجامعة « قازان » ولعلها كانت ـ اذ ذاك ـ أعظم مركز للعلم شرقى برلين ولكنه انصرف عن الجد فى دراسته ، بل خامره ـ منذ البداية ـ نفور من الدراسات العلمية وأصبح يقضى معظم وقته فى الأوساط الاجتماعية فقد كانت « قازان » مركزا اجتماعيا للطبقة العليا فى روسيا ، يلى « سانت بطرسبورج » و « موسكو » مباشرة ٠ وقد كانت ذكرى هذه السنوات الحافلة بالسعادة النزقة مبعث اغتباط له فى كهولته ٠ غير ان حب الجدل والتحرى والنقد كان قد بدأ يرسخ فى فكره وقد عزا التأثير « الهائل » الذى خلفته مؤلفات « روسو » على تفكيره الى تلك الحقبة ٠ ثم لم يلبث أن هجر الجامعة فى سنة ١٨٤٧ واستقر فى « ياسنايا بوليانا » معتزما أن ينصرف الى الزراعة والاشراف على المزارعين ورقيق الضيعة ٠ ولكن المحاولة أسفرت عن فشل اذ وجد انه لم يؤت استعدادا لهذا العمل ٠

وقضى الشطر الأكبر من الأعوام التالية فى « موسكو » حيث استسلم للفساد والفوضى اللذين كان معظم شباب طبقته يعيشان فيهما اذ ذاك ٠ بيد ان ما سجله فى يومياته ـ التى بدأها فى سنة ١٨٤٧ ـ عن دراسته لنفسه ونقده اياها يشهد بأن الحياة العاطلة لم تكن ترضيه فلم يلبث ان بدأ ـ فى سنة ١٨٥١ ـ صفحة جديدة فى حياته اذ رحل الى « القوقاز »

وانضم الى احدى وحدات المدفعية كمتطوع من علية القوم ، وأخذ يقضى أوقاته فى هدوء ودعه فى حاميات قرى اقليم « القوزاق » التى لم يكن يخفف من رتابتها سوى الخروج للصيد أو الاشتراك فى بعض الحملات ضد العصاة من أهل الجبال .

وفى سنة ١٨٥٢ فرغ من أول قصصه : « الطفولة » ، وأرسلها الى « نيكراسوف » — وكان رئيسا لتحرير أكبر مجلة أدبية — فتقبلها هذا متحمسا لها وبادر الى نشرها وما لبث « تولستوى » ان رقى الى مرتبة ضابط عامل ونقل — بناء على طلبه — الى الجيش الذى كان يقاتل الأتراك فى حوض « الدانوب » ثم الى « سباستوبول » بعد أشهر قلائل حيث استقر الى نهاية الحصار فلما استسلمت حاميتها أوفد بتقارير روسية الى « سانت بطرسبورج » فمكث فيها وراح يغشى أوساطها الاجتماعية والأدبية مفضلا الأولى على الأخيرة فقد أخفق فى أن ينسجم مع أهل الأدب ، اذ أثارته عجرفتهم الوقحة ولم يقم وزنا للتقدم الأوربى الذى كانوا يتخذونه مثلا أعلى تتوخاه النهضة الأدبية الروسية .

وفى سنة ١٨٥٧ اعتزل الخدمة فى الجيش وقام فى السنة ذاتها — كما قام فى سـنة ١٨٦٠ بجولة فى الخارج لم يعد منها بغير استهجان حضارة الغرب المادية ثم استقر — بعـد رحلته الثانية — فى « ياسنايا بوليانا » وقبل منصبا قضائيا أنشىء بمقتضى قانون تحرير الرقيق الذى صدر فى سنة ١٨٦١ للبت فى المنازعات المتعلقة بالأراضى بين السادة الاقطاعيين ورقيقهم السابقين . كما أنشأ مدرسة لأبناء الفلاحين على نظم جديدة مبتكرة مستمدة من ايمانه بأن مواهبهم الفطرية أرقى قيمة من المقاييس المصطنعة الزائفة التى خلقتها الحضارة المادية — وأصدر كذلك — صحيفة يومية لترويج آرائه التربوية ولكن الوقت لم يطل به حتى تخلى عن منصبه القضائى وعن الصحيفة اذ كان على شفا أزمة نفسية بيد أن هذه الأزمة لم تنضج وتتكشف قبل خمس عشرة سنة وكان زواجه سببا فى تأخرها . فقد ظل يفكر فى الزواج فترة من الزمن ثم انتهى الى أن خطب « صوفيا اندرييفنا بيهرس » التى كانت تصغره بستة عشر عاما والتى وقع فى هواها فى سنة ١٨٦١ واقترن بها فى العام التالى .

أعماله الأدبية (١٨٥٢ — ١٨٧٦)

نبعت أعمال « تولستوى » الأدبية من مذكراته اليومية فقد كانت — أصلا — محاولة للكشف عن تركيب وتفاعلات الحياة الداخلية للانسان لتحديد وايضــاح تفاعلات الوعى على حقيقتهــا . وكانت أولى محاولاته

الأدبية هي « قصة الأمس » التي كتبها في سنة ١٨٥١ ولم يقدر لها أن تنشر إلا في سنة ١٩٢٦ ٠ وهي محاولة لايراد بيان مفصل دقيق لمشاعره والآثار المترتبة عليها في أربع وعشرين ساعة ٠ وكان أول كتاب كامل نشر له ــ وهو (الطفولة) (سنة ١٨٥٢) أقل اسهابا في التحليل وأكثر تمشيا مع القواعد المألوفة للأعمال الأدبية ، وقد كشف عن المام بأدق تفاعلات الوجدان وأكثرها خداعا في مظهره فاق كل ما ظهر في الأدب من قبل ٠٠ وقد ازداد « تولستوى » ارهافا لوسائله التحليلية ــ في القصص التي تلت ذلك ــ حتى لقد كان كثيرا ما يذهب في امعانه الى درجة الإضرار بالحبكة الخيالية للقصة ٠

وفي تلك الأثناء برز صراع قدر له ان يظل ميسطرا على « تولستوى » طيلة حياته ٠٠ الصراع بين الحياة الطبيعية المسترسلة من تلقاء ذاتها دون ما تفكير وبين مطالب العقل والقانون الخلقي ٠ ففي قصة « القوزاق » ــ التي كتبها في سنة ١٨٥٤ ونشرت في قالب لم يرض عنه في سنة ١٨٦٢ ــ تنتصر الحياة الطبيعية ٠ اذ نرى « القوزاق » يمجدون رجلا على الفطرة لايفطن الى الخير والشر ومن ثم فهو بعيد عن الفلسفة الأخلاقية ثم انهم يهيلون العار على البطل « أولنين » المفكر القوى العقل ولكنه ضعيف الجسم ٠ ونجد تفاهة الانسان المتمدين وخسته وحقارته معروضة بصورة واضحة في « ضابطان من الفرسان » (التى كتبها في سنة ١٨٥٦) و « لوسيرن » (١٨٥٧) و « ثلاث ميتات » (١٨٥٩) ثم في « خولستومر » (١٨٦١) وهي صورة ساخرة فذة لحياة الطبقات الراقية في روسيا ٠

ولقد كانت كل أعماله الأدبية الأولى موضوعية ، تمثل الشخصية المنكرة ، المتأملة المحللة لما يدور داخل النفس ٠٠ شخصية « تولستوى » نفسه أما الشخصيات التي كان يعالج تحليل مشاعرها فكانت مجرد نماذج من الناس عامة ٠٠ مجرد صور للتفاعلات النفسية بين السبب والنتيجة خالية من كل طابع ٠ ومن الأمثلة على ذلك الضباط الذين صورهم في قصص « سيباستوبول » ــ في سنة ١٨٥٥ ــ والذين حلل فيهم عنصرى الخوف والشجاعة ٠

وعاش (تولستوى) بعد زواجه في « ياسنايا بوليانا » ، وكان يقضي شطرا من كل عام في « موسكو » وفي ضيعة له عبر مجرى « الفولجا » ٠ وكانت حياته الزوجية سعيدة مثمرة محفوفة بالرخاء فقد ازداد دخله بفضل نجاح أعماله الزراعية وبيع كتبه وكانت زوجته وفية كرست حياتها له وللأبناء التسعة الذين أنجبتهم له ومن ثم هدأ الصراع الداخلي في نفسه لسنوات عديدة ، تمثلت فلسفته خلالها في : « على المرء ان يعيش لكي يحصل على مايمكن الحصول عليه لنفسه وأسرته » فلا يحاول

ان يتبع العقل وأن يكون أكثر عقلا وحكمة من الحياة والطبيعة وقد تحللت هذه الفلسفة ـ فى أكمل صورة ـ فى أولى رواياته الكبرى القليلة ·· فى « الحرب والسلام » ثم عاد بعدها ـ لفترة من الزمن ـ الى الكتابة فى الفلسفة التربوية كما قام بعدة محاولات فى ميدان الروايات التاريخية فكان مما كتبه رواية عن « بطرس الأكبر » لم يتمها اذ غشيه نفور طاغ نحو البطل الذى صاغه لها · وفى سنة ١٨٧٣ بدأ رواية « آنا كارنينا » التى ظهرت فى حلقات من سنة ١٨٧٥ الى سنة ١٨٧٧ وحوالى نهاية هذه الرواية بدأ يعانى الأزمة الطويلة الأمد التى أدت الى انقلابه وقد بدت نذرها واضحة فى الجزء الأخير من الرواية ·

وهاتان الروايتان هما أعظم تحفه الأدبية وهما تمثلان ـ الى حد ما ـ ذروة ما يلغه فن كتابة الرواية الواقعية الحديثة من تقدم ، بل ان الواقعية الأدبية تبلغ فيهما غايتها : دقة فى تصوير الواقعية الحية حتى ينتهى الى ان يولد فى نفس القارىء الشعور ـ الذى يعهده قراء تولستوى ـ بأن أبطال قصصه يمكن أن يدرجوا بين الآدميين المخلوقين من دم ولحم ، وليس بين الشخصيات الخيالية ويعزى الفضل الأكبر فى اعداده لهذا النصر الفائق الى مرانه ودراساته السابقة · ولكن « الحرب والسلام » تسجل تقدما فاق كل ما سبق فان المرء لايقتصر احساسه على الصـــور الخارجية للشخصيات التى لا حصر لها ـ التى ملأت مسرح القصة ـ وانما هو يرى داخلية نفوسها ، لا سيما الشخصيات النسوية ، وشخصية « ناتاشا » بالذات ·· وهى محور القصة ولبها والشخصية التى تجسمت فيها فلسفة القصة وجوهر الجنس البشرى المسير من تلقاء نفسه وفقا لحكمة الطبيعة كذلك لم يصور المؤلف نفسه فيها تصويرا غير مصقول ـ كما فعل فى قصصه السابقة ـ وانمـــا تحـــول فى هذه الرواية الى شخصيتين لكل منهما طابعها وهدفها وهما شخصيتا : « الأمير أندريه » و « بيير » فالقصة بما زخرت به من شخصيات وبما مثلته من قطاع هائل من التاريخ الروسى والأوربى تعتبر قطعة حقيقية من الحياة نقلت ببراعة فنية وهى ذات طابع متفائل بدرجة ملحوظة ·· لا لأنها خلو تماما من أهوال الحياة وانما لأن هذه الأهوال تذلل فيها بفضل اله رحيم يسبغ خيره على العباد ويسيطر على تصرفاتهم ·

ولم تسجل « آنا كارنينا » أى تقدم فى فن المؤلف فوق ما بلغه فى « الحرب والسلام » وان كانت كل شخصية فيها تصل ـ فى حد ذاتها ـ الى مستوى شخصيات هذه ، بل لعلها تقدم مجموعة أكبر من الأشخاص المتباينين الذين يختلفون كل الاختـــلاف عن المؤلف والذين تتكشف بواطنهم وسرائرهم بجلاء ·

التولستوية .. الانقلاب الذى ألم بحياته !!

بدأ « تولستوى » يشعر حوالى سنة ١٨٧٦ بعدم ارتياح الى الحياة الرخية الخلو من التأمل التى كان يحياها وأخذت فكرة اقتراب موته تنمو وتتسلط عليه وتولاه شوق متأجج الى ارساء حياته على أسس دينية لم يلبث أن أصبح القوة المهيمنة عليه . وتحول - بادىء ذى بدء - نحو العقيدة الأرثوذكسية التى كان قومه يعتنقونها آملا فى ان يجد الخلاص فى دين جعل الملايين سعداء وهم فى غمرة الشقاء . ولكن تفكيره الأبى الذى كان يأبى أن يتقبل أى شىء دون تمحيص لم يستطع ان يتقبل طقوس الأرثوذكسية وتزمتها فنبذ الكنيسة واستخلص لنفسه تدريجا - من قراءاته الخاصة للأناجيل - عقيدة مسيحية نسجها على نول من صنع يديه ، وأقصى عنها كل الغيبيات وكانت المرحلة الحاسمة فى تحوله - كما روى - هى اللحظة التى تبين فيها ان رسالة المسيح بأكملها كانت تتمثل فى هذه الكلمات التى وردت فى » انجيل متى » - « لاتقاوموا الشر » (الاصحاح الخامس - ٣٩) . فصار هذا المبدأ - مبدأ عدم المقاومة - هو أساس المذهب الذى سرعان ما أصبح معروفا باسم « التولستوية » .

ولابد من ان نميز بين مرحلتين فى تحوله : الشعور الأول اللاذع بالقنوط والنفور من الحياة الجسدية الجائرة ثم الجهود التى راح تولستوى يبذلها - من جراء ذلك - لكى يصوغ هذه التجربة التصوفية الاعتزالية - فى جوهرها - الى مذهب منطقى متسلسل وقد روى « تولستوى » قصة تحوله كاملة فى كتاب « اعتراف » الذى كتبة سنة ١٨٧٩ ونقحه سنة ١٨٨٢ ونشر فى سنة ١٨٨٤ والذى اتسم بخيال تصويرى صادق وبلاغة هائلة يجعلانه فى مصاف « اعترافات » القديس أوغسطين . على ان مرحلة القنوط التى مهدت للتحول سجلت بأسلوب أعظم وأقوى فى كتيب وئد بمجرد نشره هو « مذكرات مجنون » (١٨٨٤) . كما تجد التجربة ذاتها فى صميم أعظم قصتين كتبهما فى شيخوخته وهما : « وفاة ايفان ايلييتش » (١٨٨٤) و « الرب والانسان » (١٨٩٥) .

ولم يقدم « تولستوى » - فى البداية - على الترويج لعقيدته فلم تتخذ هذه العقيدة لونا اجتماعيا الا بعد آن تجلى له البؤس الاجتماعى فى الاحياء الشعبية الدنيا فى « موسكو » .

وتقوم عقيدة « تولستوى » — كما عرضها فى « هذا ما أومن به » و « عرض سريع للأناجيل » — على الضوء الكامل فى الوجدان الانسانى والذى يكشف لنا الله بوصفه الخير والعقل الأسمى وان الله لايتمثل فى شخص ، فلا خلود للأشخاص وان المسيح كان انسانا عظيما ذا تعاليم صادقة ٠٠ لا لأنه كان ابن الله بل لأن هذه التعاليم تتمشى مع نور الوجدان البشرى وقد كان بوذا وغيره عظماء مثل المسيح فهو لا يحتكر الحقيقة والصدق ٠٠ ولقد كانت عقيدة « تولستوى » تتخذ الانسان محورا لها فالله ومملكة الله « فى داخلنا » أى فى نفوسنا ٠٠ وهدف الانسان هو ان يحقق السعادة الأمر الذى لايتسنى الا بفعل الصواب والخير وحب البشر أجمعين وتحرير النفس من شهوات الجشع واللذة والغضب ٠٠ وكل صور العنف اثم على السواء وليست الحرب وحدها بل كل أشكال الغضب الغريزية — فى الدولة — أساليب اجرامية فعلى المسيحى الصادق ان يحجم عن الاشتراك فيها فيرفض ان يجند ويأبى كل عمل تحت سلطان الدولة ولا يقبل ان يكون من المحلفين ومقاومة الحكومة بالعنف اثم كذلك ولا يمكن ان يؤدى الى أى تحسين فى الحياة فالنشاط الثورى — ولو قام على شعور الحب للمظلومين — اثم ٠٠ لأنه يولد البغضاء والعنف ولن يتحسن النظام الاجتماعى الا اذا تعلم الناس جميعا أن يحب بعضهم بعضا ٠ ومع ان تولستوى لا يقر الثورة الا أنه يؤثر عليها نظام الحكم الا بأقوى السخط وأشده مرارة والتملك — وكوسيلة لارضاء جشع الانسان ولذته وتعزيز احتكار انسان واحد للأشياء التى تمت للجميع — اثم فهو المصدر الأول للعنف وما اليه ولقد أقام الأغنياء صرح حضارة زائفة فاسدة وخلقوا لأنفسهم قيما زائفة يجب التخلص منها ، ومع ان العبودية هدمت أخلاق الفقراء الا أنهم صانوا فطرتهم الطيبة فى حال تفوق كثيرا حال فطرة الأغنياء نقاء وطهرا ، لأن ثقافة هؤلاء الزائفة لم تفسد الفقراء ويجب ابداء الحب والشفقة لجميع الكائنات الحية والعزوف عن لحوم الحيوانات الذبيحة كما يجب الامتناع عن العقاقير والمواد المخدرة (لاسيما التبغ) التى خلقت الحضارة الفاسدة طلبا مصطنعا عليها والتى تفرض غشاوة على الوجدان الطبيعى للانسان ٠

ومن العسير ان يعتبر « تولستوى » مصلحا اجتماعيا لأنه لم يقدم مشروعا علميا لتحسين الأحوال الاجتماعية — اللهم الا بصدد علاج مسألة الأرض عن طريق الضرائب — وقد شمل استنكاره العنف المنظم الذى

انطوت عليه الديمقراطية الرأسمالية الغربية والنظام الاستبدادى الروسى .. على السواء .

ولم يكن الأثر المباشر لتعاليم تولستوى كبيرا فى روسيا بوجه عام. على أن أثر فلسفته كان عظيما وسرعان ما امتد الى الخارج حتى أصبح ــ فى السنوات الخمس عشرة أو العشرين الأخيرة من عمره ــ أعظم رجل يحظى بالتوقير والاجلال فى العالم وأقبل الناس من جميع أطراف الدنيا يحجون الى « ياسنايا بوليانا » . ومع أن الحكومة الروســية اعتبرت نشاطه معاديا لها ــ منذ البداية ــ الا انها لم تحاول قط ان تتخذ أى اجراء ضده . وان دعت الظروف الى أن تنشر بعض مؤلفاته المسرفة فى معارضة الأرثوذكسية والمقذعة فى مهاجمة الأسرة القيصرية الحاكمة فى خارج روسيا على ان ما نشر فى روسيا كان كافيــا للتعريف بتعاليمه تعريفا كاملا .

وفى سنة ١٩٠١ قضى عليه المجمع الكنسى الروسى بالحرمان من الكنيسة وهو قرار لم يكن له من قيمة أكثر من انه عزز أمرا أعلنه تولستوى بنفسه قبل ذلك بسنوات حين نبذ الكنيسة . ومن ناحية أخرى تعرض كثير من أتباع تولستوى للسجن والنفى الى سيبريا لأنهم رفضوا ان يؤدوا الخدمة العسكرية .

وأدى هذا التحول الى تغير فى انتاجه الأدبى . ومع ان جودة مادته لم تتأثــر الا ان نوعهــا هو الذى تغير كما تغيرت آراؤه فى الوظيفة الاجتماعية والخلقية للأدب مما تجلى فى « ما هو الفن ؟ » ــ الذى نشر فى سنة ١٨٩٦ ــ وهو أروع ما كتب فى هذا الموضوع فالفن ــ فى رأيه ــ وسيلة ينقل بها الفنان الى سواه ما يكون قد خبر من مشاعر فما لم يحقق النقل لم يكن هناك فن ولو اقتصر النقل على نفر ضئيل من الناس ــ ينتمون الى طبقة المؤلف أو عصره أو جنسيته ــ لكان فنا ناقصا واذا امتد أثر الفن الى الجنس البشرى عامة وكانت المشاعر المنقولة خبيثة فهو فن حقيقى ولكنه خبيث . اما اذا كانت المشاعر أرقى ما يمــكن الوصول اليه ــ وهى المشاعر الدينية التى قوامهــا الحب والشفقة ــ فهذا أرقى أنــواع الفن وهو الفن الدينى ولو طبقت هذه المقاييس لتضاءلت قيم الشطر الأكبر من الانتاج الأدبى والفن الحديث بما فى ذلك مؤلفات تولستوى السابقة .

كذلك رافق تحوله الدينى تغير فى ذوقه الأدبى فنبذ الاسهاب فى التفصيلات الواقعية . وكان قد كتب فى سنة ١٨٧٣ طائفة من القصص المجردة من كل ما لا لزوم له فى ســياق الرواية وأخــذ ــ ابتداء من سنة ١٨٨٤ ــ يكتب طائفة من القصص على النسق نفسه فكانت نماذج

رائعة لفن الرواية العف المسخر لخدمة فكرة موحدة متبلورة هي المسيحية كما كان يراها ، واستخدم الاسلوب ذاته على نطاق واسع في : « الأب سرجيوس » و « البطاقة المزورة » و « حاجي مراد » — بين سنتي ١٨٩٦ و ١٩٠٤ — فكانت أحب مؤلفاته اليه في شيخوخته وكانت نماذج للفن الطيب الذي يدعو الى روح الأخوة البشرية ولكن قصة « البعث » (التي نشرت في ١٨٨٩ — ١٩٠٠) شذت عن ذلك اذ عاد فيها الى الاسهاب القديم فلم يرض عنها ولم ترق الى مصاف التحف الرائعة . وبوجه عام كان أهم مؤلفاته الخيالية في أواخر عمره هي القصص المستمدة من تجاربه النفسية والروحية — « وفاة ايفان ايليتش » و « الرب والانسان » و « مذكرات مجنون » — وتلك التي ضمنها تجاربه في ميدان الجنس مثل « أنشودة كرويتزر » (١٨٨٩) و « الشيطان » التي كتبها في سنة ١٨٨٩ ونشرت سنة ١٩١١ .

أما المسرحيات التي كتبها « تولستوى » فترجع كلها الى ما قبل تحوله الديني عدا مسرحية فكاهية كتبها في سنة ١٨٦٣ ونشرت سنة ١٩٢٦ . ومن هذه المسرحيات : « سلطان الظلام » — وهي « دراما » قوية عن حياة الفلاح كتبها سنة ١٨٨٩ و « ثمار التنور » — وهي مسرحية فكاهية خفيفة لنقد نزوات المجتمع نشرت سنة ١٨٩١ . و « الجثة الحية » التي نشرت سنة ١٩١١ والتي تجلى فيها وهن الشيخوخة .

السنوات الأخيرة

ادى التحول الديني بتولستوى الى انتهاج اسلوب جديد في الحياة فاصبح يرتدى ما كان الفلاحون يرتدونه ، ويؤدى كثيرا من الأعمال اليدوية وتعلم صناعة الأغذية وعف عن اللحوم فاقتصر على الخضر في غذائه وقد تجهمت زوجته وأولاده — عدا ابنته الصغرى « الكسندرا » لتعاليمه وأبت زوجته عليه نبذه متاع الدنيا ، لأنها كانت ترى أن ثروته من حق أبنائه فتنزل لها عن كل ثروته — بما في ذلك حقوق تاليف ما كتب قبل سنة ١٨٨٠ . وكان من المتناقضات أن يعيش داعية الزهد وسط أسرة تستهجن آراءه ولكنها تحبه وبدأ الشقاق يدب بينه وبين زوجته حتى تحول الى نفور بعد موت سادس أولادهما فازدادت الزوجة تطرفا على انفعالاتها ومشاحناتها وتحول البيت الى جحيم عانى فيه « تولستوى » الأمرين .

وفي ٢٨ أكتوبر سنة ١٩١٠ تسلل من البيت — تحت جنح الظلام — تصحبه ابنته « الكسندرا » دون أن تكون له غاية معينة وتداعت

صحته فى « استابوفو » فأرقدوه فى غرفة ناظر المحطة ثم مات فى ٨ نوفمبر فنقل الى « ياسنايا » حيث دفن بلا طقوس دينية ٠

● الرواية ●

فى أوائل سنة ١٨٦٠ انهمك الكونت « ليوتولستوى » فى جمع مادة لرواية يقدم فيها بعض ما كانوا من أحياء ممن اشتركوا فى مؤامرة ديسمبر سنة ١٨٢٥ ويصور علاقاتهم بالظروف المتغيرة فى روسيا عقب تبرؤ القيصر « اسكندر الثانى » الذى عرف بميوله المتحررة ـ عرش البلاد واعادته من ظل على قيد الحياة فى سيبريا من أولئك الثائرين ٠ وكتب « تولستوى » عدة فصول من الرواية وأجزاء من فصول أخرى ولكنه كان لا يلبث ان يرتد ـ بالرغم منه ـ الى الأسباب الأولية للمؤامرة ٠٠ الأسباب التى كانت ترجع الى عهد « نابليون » والقيصر « اسكندر الأول » ذى الأفكار المتقلبة ومن ثم طرح « تولستوى » جانبا مشروع الرواية التى كانت أحداثها تجرى فى عصره وانهمك فى وضع رواية تاريخية تصور العهد الذى ينتهى بغزو « نابليون » الأرض الروسية واحراق « موسكو » ـ بتدبير الكونت « فيودور ـ فاسيلييفيتش روستوبشين » ـ واضطرار الفرنسيين للانسحاب بعد ان كبدوا خسائر فادحة ٠

ووضع « تولستوى » نصب عينيه ثلاثة أهداف رئيسية :

أولها : أن يقدم صورا حية للأحداث الكبرى التى أدت الى سقوط نابليون سواء ما وقع منها فى روسيا أو ما وقع فى أوربا عامة ٠

وثانيها : أن يعرض نظرية القدر وتسلطه على الأعمال التى تصدر عن البشر ـ حتى العظماء منهم ـ وتبدو كأنها بمحض اختيارهم ٠٠

وثالثها : ان يعرض ويصور آراءه فى فلسفة الحياة ٠

وقضى « تولستوى » ست سنوات فى وضع قصته التى حشدها بالشخصيات حتى لقد تجاوز عدد الشخصيات ذات الأدوار البارزة فيها ٣٠ بينها امبراطوران وساسة وقادة كبار وسادة وسيدات من نجوم البلاط واقطاعيون من أصحاب الأراضى وأمراء ووجهاء ومن ذوى الألقاب الضخمة وجنود وفلاحون وقد تناول المؤلف كل شخصية فعالجها على حدة وهو يحرص فى تقديمها على أن تبدو جزءا لا يتجزأ من المجموع ٠ كذلك حرص فى الحوار ـ حتى أتفه الأحاديث ـ على ان يصوغه بحيث يضفى على القصة جوا من الواقعية ٠

ورواية الحرب والسلم من الطرف الأدبية الفذة التي لا يعرف لها نظير في الآداب العالمية برمتها وهي في رأى فريق من النقاد أعظم رواية أخرجت للناس وقد عدها بعض النقاد ملحمة نثرية تقف الى جانب الياذة هومر الشعرية • وقد وازن النقادة البريطاني ادوارد جارنت بين الياذة هومر ورواية الحرب والسلم ورأى ان الالياذة تفوقها في الجمال والتركيز وان رواية الحرب والسلم ترجح الالياذة من ناحيـــة السعة والشمول وتعقد الاهتمامات الانسانية • وهي ان خلت من أمثال أشيل وهيكتور واليوسيس وأجا ممنون ففيها حشد من الرجال والنساء العاديين قد ابدع تولستوى في تصوير ملامحهم وكشف دخائلهم واســـتبطان دوافعهـم النفسية ويستثنى جارنت شخصية القائد الروسى كوتوزوف فهو يراه يمثل البطولة الروسية القومية وتظهر فيه كل الصفات التي جعلت روسيا عظيمة فهو عنده من غير شك نظير لشخصيات هومر التي قدمها لنا في الياذته •

ورواية الحرب والســلم أهـم أعمــال تولستوى الأدبية وأكبرهــا حجما وأوسعها نطاقا وهي مقسمة الى ثلاثة أجزاء وهي على طول وكثرة صفحاتها وامتداد آفاقها قوية السرد متدفقة الاسلوب تشيع في شـــتى نواحيها الحيوية الغامرة المكتسحة وتتجلى فيها عبقرية تولستوى الفنان في أقوى صــورها ولا يدرك قارئها الملل أو الفتــور ، لأن فن تولســتوى الساحر يؤكد العلاقة بين القارىء والشخصيات البارزة في الرواية وينمى الألفة بيننا وبينهم حتى نصبح شركاء لهم في مسراتهم وأحزانهم •

وقدرة تولستوى الخارقة في استحضار المشاهد وتمثيل المواقف تجعل قراءة هذه الرواية جزءا من تجربة الانسان التي لا يعفى عليها النسيان فهي ليست رواية تقرأ كسائر الروايات وانما هي فترة يحياها الانسان في عالمها الضخم وبين أشـــخاصها الكثيرين النابهين منهـــم والمغمورين •

والعجيب من أمر هذه الرواية الطويلة بغير املال ان الانســان يأسف حينما ينتهي من قراءتهـــا ويشعر بأنه كان يــود ان تطول هذه المتعة فهي ليست من تلك الكتب التي يخيب أمل الانسان فيها ويأسف على الأيام التي أضاعها في قراءتها ، انها مفخرة تولستوى بل هي مفخرة الأدب الروسى خاصة والأدب العالمي عامة •

وقد حاول تولستوى في هذه الرواية ان يصور عصرا من العصور الحافلة بالأحداث الجليلة من جميع نواحيه وكانت حوادث هذا العصر مثيرة للعواطف والأهواء والخواطر والأفكار وموضـــوعها ذلك الصراع الرهيب بين الأمة الروسية ومطامع نابليون الذى رام أن يفرض سلطانه

على أوروبا جميعها ويهزم جيش القيصر الاسكندر الأول ويستذل كبرياءه ويخضع روسيا لسلطانه كما خضعت له ألمانيا والنمســـا ولسبانيا وايطاليا ·

وتنتهي حوادث هذه الرواية التاريخية بانســـحاب نابليـون من موسكو بعد غزوه المشئوم لروسيا · وهى تصور لنا مأساة هذا الانسحاب وفظائعه وقسوته تصويرا ينفرنا من الحرب وأهوالها وما بها من غدر وخسة وحشية · وهو يحدثنا فى ذلك حديث العارف الواثق المجـرب الصريح الذى لا ينافق ولا يضلل ولا يخفى الحقائق ولا يسمى الأشياء بغير أسمائها ، وهو يرينا تلك الحوادث الجليلة خلال تأثيرها على عقول الأشخاص الذين اشتركوا فيها وكانوا آلاتهــا المسخرة وان كان بعض البـارزين من هؤلاء الأشـخاص عبثت بهم الأوهام وخيلت لهم كواذب الظنون أنهم مالكو ناصية الحوادث ومسيرو حركة الأقدار !!

بحوث فلسفية فى الرواية

وتتخلل سياق الرواية بحوث فلسفية تحليلية تؤلف فيما بينها رسالة كاملة استخلصت من الرواية وترجمت ونشرت بالفرنسية والانجليزية وقد ظهرت الترجمة الانجليزية بعنوان « نابليون والحملة الفرنسية » وهدفها الرئيسى هو محاولة اثبـات ان كبار القادة والزعماء — كنابليون واسكندر الأول — ليســوا العوامل الرئيســية فى الحركات الكبرى للجنس البشرى كما كانوا يعتقدون فى أنفسهم وكما اعتبرهم المؤرخون كأمر مسلم به وانما هم أشبه ببيادق الشطرنج : تحركها قوة عليا — أسماها تولستوى « الحظ » أو « القدر » — على رقعة شاسعة هى عالمنا هذا · ويمضى « تولستوى » فى محاولته الى حد الزعم بأن أخطاء هؤلاء الزعماء وزلاتهم لم تكن سوى حلقات مهمة فى سلسلة الظروف التى أدت بهم الى انتصاراتهم ونجاحهم · فان التصرفات التى ربما بدت — من وجهة نظر الادراك العادى — من أشنع الأخطاء كانت تتحول الى ما فيه نفعهم فى حين ان الأغراض السامية والميزات الجديرة بالاعجاب كانت تتحول الى أدوات للنحس وسوء الطالع · فكم من استعدادات جبارة انتهت الى غير طائل وكم من ظروف تافهة عارضة أدت الى نتائج هائلة ! · ومن ثم نجد أن « تولستوى » كان يحمل الأحداث البسيطة والأحاديث العـابرة معانى عميقة تجعلها أشبه بشظايا الخشب الطافية على سطح نهر هادىء عريض فهى تبين للعين اتجاه التيار ·

كذلك كانت خاتمة الرواية بحثا آخر نشر على حدة تحت عنوان « السلطان والحرية » عرض فيه « تولستوى » آراءه عن حرية الارادة .

من شخصيات الرواية

وهناك ثلاث شخصيات بالذات — من بين شخصيات الرواية — تبين بوضـــوح تام التطور الذهني والديني للمؤلف نفسه : الأمير « اندريى بولكونســـكى » والكونت « نيكولاى روســـتوف » و « بيزوخوف » وهم أعضاء من أسرات كان « تولستوى » من سلالتها وان حرفت أسماؤهما قليلا . كما أن حياتهم تكاد تطابق العادات والتقاليد والأنباء التى تناهت اليه بالوراثة والنشأة وان أدخل عليها بعض التعديلات بما دسه خلالها من تجاربه فى بيئات مشابهة — بعض الشيء — سواء فى الخارج ، أو فى موسكو أو بيتروجراد ، أو فى الجيش ، وفى نواحى نشاطه فى الريف وقد اندمجت هذه الشخصيات الثلاث فى غمار الحروب النابليونية فاذا تصرفاتها الفردية تجعلهـا تقارن بالشخصيات التاريخية الحقيقية التى تظهر وتختفى تباعا فى سياق الأحداث : نابليون ، الكسندر ، الجنرال كوتوزوف ، الأمير آدام كزارتوريسكى ، سبيرانسكى . الجنرال بنجيسن ، والكونتس بوتوكا ، وكثير من مشاهير وشهيرات ذلك العهد ، أما شخصية « بلاتون كاراتايف » فتمثل الآراء الدينية التى اتخذها « تولستوى » — فيما بعد — مبادىء يسترشد بها فى حياته والتى بلغت ذروتها حين نبذ ثروته ولقبه وبيته وأسرته ، وكل ما يعتز به من يكون فى مكانته عادة .

وتتتابع فى القصة ألوان متباينة من المناظر الحافلة : قصور وضياع ودور ريفية ومعسكرات ومعارك وحفلات سباق الخيل وحفلات راقصة مشاجرات ومبارزات وغزل وعشاق يهربون بعشيقاتهم وخطب وزيجات .. وصور حية واقعية لميلاد أشخاص ووفاة آخرين وللاسراف فى الشراب والمقامرة لحفلات أهل الريف وشغب العمال ، وللمجالس والمؤتمـــرات ولحالات من اللهو والعربدة أثناء حرائق « موســـكو » ولفظائع الغزو الفرنسى وللصيد وللحصاد .. كلها مصورة بريشة أسبغت عليها من الواقعية ، مما يجعلها تبدو كأنها منقولة عن الحياة الحقيقية اذ مزج المؤلف الخيال بالتاريخ مزجا تاما .. ونخلص من هذا كله الى ان القصة ليست قصة فرد أو أفراد وانما هى قصة دنيا بأكملها وتنبض بالحياة فى عصر زاخر بالأحداث حافل بالجلال ..

والحرب والسلام — كرواية لا تخلو من أخطاء جسيمة ولكن ميزاتها العظيمة الرائعة تطغى على تلك الأخطاء وترتفع القصـــة الى ذروة الأدب

العالمى بأسره لا الروسى فحسب وهى تشغل أكثر من ٢٠٠٠ صفحة تضم ما لايقل عن ٦٥٠٠٠٠ر كلمــة وقد ظهــرت بين عامى ١٨٦٤ و ١٨٦٩ مسلسلة فى كبرى المجلات الأدبية الروسية فقوبلت باعجاب عظيم حتى اذا نشرت — فى ستة مجلدات — توالت الطبعات ٠

وصدرت الطبعة السادسة سنة ١٨٨٦ وترجمت فى السنة ذاتها الى الانجليزية نقلا عن ترجمة فرنسية وفى سنة ١٨٩٨ ترجمت الى الانجليزية عن الروسية مباشرة ومنذ ذلك الحين ترجمت الى معظم لغـــات العـالم كما اقتبست للسينما ٠

ويقول سومرست موم : « أعتقد ان بلزاك هو أعظم روائى عرفه العالم على الاطلاق ولكنى أعتقد أن رواية « الحرب والسلام » لتولستوى هى أعظم رواية فلم يسبق ان كتبت (وأغلب الظن ان هذا لن يتكرر) رواية تضارعها فى الفخامة وتعالج مثل هذه الفترة الحاسمة من فترات التاريخ ، وتتناول هذه المجموعة الكبيرة من الشخصيات ولقد قيل عنها بحق انها ملحمة ولا أستطيع أن أجد عملا روائيـــا آخر يمكن أن نصفه هكذا ونكون محقين فى وصفنا » ٠

وقد عبر ستراخوف صديق تولستوى والناقد القدير عن رأيه فى عبارات قليلة وقوية اذ قال : « انها صورة كاملة للحياة الانسانية وصورة كاملة لروسيا فى ذات اليوم وصورة كاملة لما يمـــكن ان يسمى تاريخ الشعوب ونضالها صورة كاملة لكل شىء يجد فيه الناس ســـعادتهم ومجدهم ، حزنهم وهوانهم ، تلكم هى رواية « الحرب والسلام » ٠

تحرير المرأة

قاسم أمين

١٨٩٤ م

كان الشيخ الرئيس ابن سينا حكيما حين سال الله ان يهبه حياة عريضة لا طويلة · وقد تحقق له أمله اذ مات قبل بلوغ الستين · ولكن كان نبوغه مبكرا فامتلأت حياته بكثير من الأعمال الكبار فى عالم الطب وعالم الفلسفة كما جرب من متع الدنيا وانكادها ما يكفى لملء اضعاف عمره · فكأنه عاش عدد أعمار فى عمر واحد وهكذا تكون البــركة فى الأعمار بعمق التجارب الحيوية وتنوعها ثم بآثارها فى اصلاح الانسانية أو زيادة ثروتها الأدبية والحضارية ·

وقد كان لنابغتنا قاسم أمين وكثير من اخوانه النوابغ ـ لاسيما المبكرون فى النبوغ ـ مثل هذا الحظ فى الحياة فهو لم يعمر أكثر من خمس وأربعين سنة (١٨٦٣ ـ ١٩٠٨) ولكنه نبغ مبكرا وكان رجل نظر كما كان رجـــل عمل فحفلت سنواته بكثير من الخدمات الجليلة التى أفادت منها أمته وستبقى لها فوائدها طالما وعتها كما أرادها ووضح طريقها وغايتها فى حدود الكرامة الانسانية لا كما أرادها الآخرون من دعاتهـا وأدعيائها ·

محور نشـــاطه

ولم يقتصر نشاط قاسم فكرا وعملا على مجال واحد ، بل شمل عدة مجالات ولكننا مهما نمض معه فى أنشطته خلالها حتى تبلغ أوسع مداها ـ نجدها تدور حول محور واحد هو « التربية » ·

ومن المجالات التى أسهم قاسم فى اصلاحها القضاء والتشريع ومنها الاجتماع والاقتصاد ومنها الأدب والفن والنقد ومنها أعمال البر والاحسان العامة · ولكن اسمه لم يشتهر بيننا الا مرتبطا بدعوته الى تحرير المرأة كما لم تشتهر هذه الدعوة الا مرتبطة به ، وان كان فضل قاسم أعظم من ان ينحصر فى هذه الدعوة وحدها فشهرته بها وان نشرت بعض فضله ـ قد جارت على بعضه الآخر فبقى مستورا أو مجهولا وهكذا كل شهرة حين تبدى من الفضل بعضه لا كله ·

الطريق ·· والعقبات !!

ولد قاسم أمين فى أول ديسمبر ١٨٦٣ بطره · وكان أبوه أميرالاى فى الجيش المصرى قيل انه من أصل كردى ، الا أن بعضهم يؤكد انه تركى ·

دخل قاسم المدرسة الابتدائية بالاسكندرية ولما أتم دراسته فيها التحق بالمدرسة التجهيزية بالقاهرة ثم انتقل منها ـ بعد ان نال شهادتهاـ الى مدرسة الحقوق والادارة حيث تخرج فيها سنة ١٨٨١ ولما كان من الطلبة المتفوقين فقد أرسل فى بعثة الى كلية الحقوق فى « مونبلييه » بفرنسا فقضى فيها أربع سنوات عاد بعدها الى مصر حيث عين مساعدا للنيابة المختلطة سنة ١٨٨٥ ٠ ثم انتقل منها الى قلم قضايا الحكومة فى سنة ١٨٨٧ ثم رقى رئيسا لنيابة بنى سويف سنة ١٨٨٩ ، ثم انتقل منها الى طنطا ، ثم عين فى سنة ١٨٩١ نائب قاض بمحكمة الاستئناف ثم رقى بعد ذلك الى درجة مستشار فى المحكمة نفسها ولم يكن قد جاوز الحادية والثلاثين من عمره !

كانت حياة هذا المصلح سلسلة كفاح ، فهو دائب العمل والنشاط لا يستريح لحظة واحدة ، بيد أن حياة هذا شأنا لابد أن تنطفىء شعلتها قبل الأوان فقد توفى قاسم أمين وهو فى الخامسة والأربعين من عمره ٠

وانتهز بعض عارفى فضل هذا المصلح الجرىء مرور أربعين يوما على وفاته فأقاموا له حفلة تأبين اعترافا بما له من جهود فى ميادين القضاء والعلم والاجتماع وأنشد حافظ ابراهيم مرثية رائعة جاء فيها :

ان ريت رأيا فى الحجاب ولم ... تعصم فتلك مراتب الرسل
الحكم للأيام مرجعه ... فيما رأيت فنم ولاتسل
وكذا طهاة الرأى تتركه ... للدهر ينضجه هونا على مهل

وقال خليل مطران فى قصيدته :

مضيت وفى النعش منك الخطيب ... ينادى على الملأ الواجم :
أنيروا أنيروا ! فان الظلام ... حليف المظالم والظالم
أنيروا أنيروا ! فان الضياء ... سلاح على اللص والآثم
أنيروا العقول ولا تتركوا ... على الفكر من أثر قاتم

ولم يبرز قاسم أمين فى الحياة العامة حين أرسل فى بعثة الى فرنسا ولا حين عاد منها ليعين فى وظائف النيابة والقضاء ، ولكنه ظهر ولمع نجمه حين خاض ميدان الاصلاح الاجتماعى بما عرف عنه من جرأة وحب لبنى وطنه ٠ ويبدو لنا انه لولا الكتاب الذى ألفه الدوق داركور عن « مصر والمصريين » سنة ١٨٩٣ والذى ملأه طعنا وذما وتجريحا لعادات

المصريين وتقاليدهم لما عكف قاسم على دراسة مجتمعنا والأسس التى يقوم عليها دراسة وافية ليرد على الدوق فى كتاب باللغة الفرنسية أسماه « المصريون : رد على الدوق داركور » • وقد دافع قاسم فى هذا الكتاب عن بنى وطنه وهاجم الأوربيين والحرية التى منحوها لنسائهم ، الا أن هذه الدراسة التى قام بها قاسم أمين أوصلته الى حقائق لم يكن يدركها من قبل • لقد أدرك أن المجتمع الذى يعيش فيه فى حاجة الى اصلاح وأن هذا الاصلاح يجب ان يبدأ بالأسرة ، ولكن كيف تصلح الأسرة والمرأة التى هى عمادها حبيسة دارها حبيسة الجهل المطبق ؟ يجب اذن أن تعطى الحرية وان يلغى هذا الحجاب الذى يحول بينها وبين نور العلم •

عاد قاسم أمين بعقله لا بوجدانه الى المجتمع الأوربى الذى عاش فيه أربع سنين وقارن بينه وبين المجتمع المصرى فألفى البون شاسعا والطريق مليئا بالعقبات • فبدأ يكتب فى « المؤيد » مقالات فى الاصلاح الاجتماعى بعنوان « أسباب ونتائج » و « حكم ومواعظ » كشف فيهما عن علل مجتمعنا المصرى • ثم لم يلبث أن ألف كتابه « تحرير المرأة » الذى ذكر فيه الأسباب التى دعت الى تأخر المرأة وندد بالحجاب وتعدد الزوجات والطلاب ، وطالب بتعليم الفتاة لتستعين بالعلم على طلب رزقها ان هى فقدت عائلها ، وهو يرى ان الفتاة الجاهلة تضطر الى التسول أو الى بيع شرفها ان هى لم تجد من يعولها •

ويخطىء من يعتقد أن قاسما كان يريد اصلاحا سريعا ، أو كان يرغب فى ثورة جامحة تقلب الأوضاع رأسا على عقب ، وآية ذلك ما قاله فى تحرير المرأة : « انى لست ممن يطمع فى تحقيق وجه الكمال فى شئونها مما لا يسهل تحققه وانما يظهر أثر العاملين فيه ببطء شديد فى أثناء حركته الخفية وكل تغيير يحدث فى أمة من الأمم وتبدو ثمرته فى أصولها فهو ليس بالأمر البسيط •

وانما هو مركب من ضروب من التغيير كثيرة تحصل بالتدريج فى نفس كل واحد شيئا فشيئا ، ثم تسرى من الأفراد الى مجموع الأمة فيظهر التعبير فى حال ذلك المجموع نشأة أخرى للأمة •• أليس هذا الذى حدث فعلا فى مصر ؟ » •

وطبيعى ان يهاجم الرجعيون قاسم أمين لآرائه الجريئة ، فاتهمه بعضهم بالمروق من الدين وقال آخرون انه يرمى بأفكاره الهدامة الى قلب المجتمع المصرى وذهب بعض الجهلاء الى اشاعة انه يتواطأ بأفكاره مع الانجليز ليقضى على البلاد قضاء لا رجعة فيه ••

والغريب ان محمد طلعت حرب كان من أبرز معارضيه فقد ألف كتابا دعاه « تربية المرأة والحجاب » قال فيه إن المرأة أقل من الرجل ادراك

وحسا وان الحجاب أصل من أصول الأدب فيلزم التمسك به وان الأصل فى المرأة احتجابها وعدم ابتذالها · وكتب محمد فريد وجدى فى صحيفة « المؤيد » عدة مقالات دعا فيهـــا الى الابقاء على الحجــاب وأثبت ان المرأة أضعف من الرجل وأن طلب المساواة بين الجنسين فى جميع الحقوق عبث محض وخاض أمير القوافى أحمد شوقى معركة السفور والحجاب بلاميته التى مطلعها :

صـــــداح يا ملك الكنـا ــــر وياأمـــير البلبـــــل :

التى قال فيها :

يا طــير ! والأمثـــال تضـ ـــرب للبيب الأمثــــل
دنيـــاك من عاداتهـــا الا تــكون لأعــزل
خلقت لحــر يبتـــلى فى ذى الحيــاة ويبتـــلى
مستأســـد كالليث ان يجهــل عليــه يجهــل

الى ان قال :

ان طـرت عـن كنفى وقعـ ـت على النســـور الجهل
حــرصى عليك هـوى ومن يحــرر يمينـا يبحل

وانضم الى معسكر قاســم أمين ابراهيـــم رمزى رئيس تحرير « الجريدة » فأصدر مجلة أسماها « المرأة فى الاسلام » وقفها على الدفاع عن تحرير المرأة وظلت تلك المجلة تصدر سنة ثم احتجبت وكانت مجلة المقتطف من بين الصحف التى أيدت نصير المرأة وكانت تحض « كل من يغار على وطنه » على قراءة كتاب « تحرير المرأة » وبث ما جاء فيه بين الجمهور ، وخاضت الصحف الأجنبية المعركة التى دارت بين أنصار المرأة وخصومها وانضمت جريدة « الفار دالكساندر » الى الفريق الأول وطالبت برفع الحجاب واختلاط النساء بالرجال وتضييق دائرة الطلاق ·

غير ان شدة هجوم الرجعيين على قاسم لم تثنه من عزمه فى مواصلة الكفاح لتحرير المرأة وها هو ذا يطلع على بنى وطنه بكتاب ثان أطلق عليه « المرأة الجديدة » وأهداه الى سعد زغلول ويعد هذا الكتاب فى الواقع تكملة للأول ولو أنه يفوقه فى قوة الحجة خاصة حينما يبحث فى

التربية والحجاب . ومع ان قاسما لم يطالب بالمساواة بين المرأة والرجل في السياسة الا اننا نرى فى الجملة التالية تمهيدا لهذه المطالبـــة فقد قال : « ان عقلا لا يقبل ان تعتبر المرأة انسانا كامل العقل والحرية من جهة استحقاقها لعقوبة الشنق اذا قتلت ثم تعتبر ناقصة العقل بحيث تحرم من حريتها في شئون الحياة العادية » .

ويكتب الزعيم مصطفى كامل فى عدد مجلة اللواء الصادر فى ١٥ من فبراير ١٩٠١ م معلقا على ظهور « المرأة الجديدة » بأسلوب هادىء رصين مبديا عدم موافقته على اعطاء المرأة الحرية المطلقة . ولو انه يتفق مع صاحب الكتاب فى الشكوى من « عدم تربية نسائنا تربية سليمة نافعة » ويوافق « كل رجال الأمة على ان التعليم واجب للنساء والتهذيب محتم عليهن أسوة بالرجال » ولكنه لايؤيد « أصحاب مذهب اطلاق حرية المرأة فى مسألة رفع الحجاب ولعلهم يرمون ـ كما يعتقد الكثيرون ـ ان تنال المصرية الحالية ما يتقولونه لها من حرية مطلقة ويرمون بمبدئهم الجديد الى مستقبل الأيام ولكن الحكم على نساء المستقبل لا محل ولا معنى له الآن . فانما يسير أبناؤنا وأحفادنا فى السبيل الذى يرونه موافقا لدرجة تعليمهم وتمدنهم والواجب علينا ان نبحث فى اصلاح حالتنا الآن وتمهيد السعادة للأعقاب الآتية .. » . فوجـــه الخلاف بين مصطفى كامـــل وقاسم أمين هو فى اختيار الوقت الذى تعالج فيه هذه المشكلة فالأول يرى تركها لمستقبل الأيام فى حين يرى الثانى ان يبدأ فى حلها حالا .

ولم تقتصر جهود هذا المصلح الاجتماعى على رفع مستوى المرأة ، بل تعدته الى النواحى الانسانية والثقافية فقد أسس « الجمعية الخيرية الاسلامية » واشترك فى تأسيس « الجامعة المصرية » سنة ١٩٠٦ لأنه لمس « ان التعليم الموجود الآن لايصلح الا لاعداد الموظفين أو أصحاب فن يحترفون به للقيام بحاجات الحياة التى لا يستغنى عنها » وهو يطمع فى ان « يرى بين أبناء وطننا طائفة تطلب العلم حبا للحقيقة وشـــوقا الى اكتشاف المجهول فئة يكون مبدؤها التعلم للتعلم » .

ويستطرد قائلا : « ... اذا نظرنا الى طائفة المتعلمين فى مصر وهم متخرجو المدارس العالية نجد أنهم يعملون على مبدأ اكسب كثيرا واتعب قليلا ... » . ويرى ان ذلك العيب منشؤه « التربية المنزلية التى غفلت عن تربية احساسنا وأهملت تربيـــة قلوبنـــا وشعورنا فأصبحنا ماديين لا نهتم الا بالنتائج فى جميع أمورنا .. وليس من المنتظر أن تتغير أخلاقنا من هذه الجهة تغيرا محسوسا الا اذا تم اصلاح العائلة المصرية » .

فقاسم أمين أول من وصل الى بيت الداء ونادى بالاصلاح ، الاصلاح الذى يتعمق حتى يصل الى الجذور لتنمو الشجرة وتزدهـــر على أرض

متينة من الأخلاق لقد أدرك — وأدرك وحده — ان كل اصلاح يبدأ بغير المرأة انما هو اصلاح فاشل ومجهود ضائع · ولم يلبث أن أدرك المصريون صدق شعوره وها هى ذى المرأة تعمل الى جانب الرجل فى بناء صرح الوطن الجديد ·

وتوفى قاسم أمين فى الحادى والعشرين من شهر أبريل عام ١٩٠٨م·

تهيئة الأفكار للاصلاح ··

عندما اختمرت فكرة « تحرير المرأة » فى ذهن قاسم عرض على صديقه أحمد شفيق ان يشاطره العمل فى تأليف الكتـــاب فاعتذر بأن الأفكار لم تتهيأ بعد لقبول هذه الدعوة · وزاد اعتذار الصديق من حماســة قاسم أمين فلو انتظر المصلحون دائما رضاء الرأى العام لما تغير العالم عما كان عليه فى العصور البدائية ·

انه يستطيع أن يمضى وحده ليهيىء الأفكار للاصلاح الاجتماعى ، اصلاح نصف المجتمع يستطيع ان يمضى دون أن يخشى طعنة من رجال الدين فى اسلامه فمحمد عبده أستاذه مفتى الديار المصرية ، فليمض اذن فيما اعتزمه وهو لن يكون أول داعية الى تحرير المرأة من الجهل فأمامه نخبة من المصلحين · فهناك رفاعة الطهطاوى فى كتابه « المرشد الأمين للبنات والبنين » الذى تحدث فيه عن تعليم الفتاة « فان هذا ما يزيدهن أدبا وعقلا ويجعلن بالمعارف أهلا ويصلحن به لمشاركة الرجال فى الكلام والرأى فيعظمن فى قلوبهم ويعظم مقامهن لزوال ما فيهن من ســخافة العقل والطيش مما ينتج من معاشرة المرأة الجاهلة لمرأة مثلها » وهنـــاك الشيخ محمد عبده الذى كان يرى ان من محاسن الاسلام مساواة المرأة بالرجل فى الأمور الجوهرية · أما تعدد الزوجات فان الاسلام لم يجزه الا لضرورات اجتماعية ولذلك ينبغى اصـلاح الحياة الاجتماعية فيما يمس حياة المرأة ·

وتناول الموضـــوع أحمد فارس الشدياق فى كتابه « الساق على الساق » · كما تناوله عبد الله النديم فى صفحات الأستاذ ، وعلى مبارك فى الجزء الثانى من كتابه « طريق الهجاء والتمرين على القراءة فى اللغة العربية » وكلهم تحدثوا عن وضع المرأة وحقها فى التعلم ولكن أحدا منهم لم يتناول سجن المرأة وحجابها ورأى الدين فى الحجاب الشرعى ·

ويعود فيذكر يوم رأى فى شارع الدواوين « امرأة تمشى وأمامها خادم ، يظهر من هيئتها أنها من عائلة كبيرة ، طويلة القامة ممتلئة الجسم عمرها بين العشرين والثلاثين فى وسطها حزام من الجلد مشدود على خصر رفيع وملاءة منطبقة على جسمها إنطباقا تاما • الجزء الأسفل بارز عند الارداف ومرسوم تحت الملاءة باعتدال جميل والقسم الأعلى غير مستور وانما الملاءة مشبوكة فى رأسها مسدولة على كتفيها وذراعيها الى المرفقين وعلى وجهها قطعة من الموسلين الرقيق ، أقل عرضا من الوجه تحجب فاهها وذقنها حجابا لطيفا وشفافا ، كما تحجب قطع السحاب الرفيع شكل القمر ، وتترك العيون والحواجب والجبهة والشعر الى منتصف الرأس مكشوفة • كانت تمشى خطوات مرتبة يهتز معها جسمها مائجا كما تفعل الراقصة على المسرح وكانت تخفض جفونها بحركة بطيئة وترفعها كذلك وترسل الى المارة نظرات دعابة ورخاوة وحنان واستسلام وبالاجمال كان مجموعها تحريضا مهيجا لحواسهم » •

أهذه المرأة المحجبة التى يحتج بعفتها المحافظون ؟ • انه يذكر أيضا يوم أن رد على الدوق الفرنسى وعرض بالسفور وظنت الأميرة نازلى فاضل انه يعرض بها فاحتال سعد زغلول حتى جمعه بها فى مجلسها ورآها سافرة تناقش محمد عبده وعلى يوسف وعبد الكريم سلمان والمويلحى وغيرهم مناقشة عميقة مهذبة •

انه يذكر ذلك ويتمنى لو كانت كل امرأة فى بلده مثلها أو مثل زميلته الفرنسية ، يتمنى ان تخرج المرأة المصرية من قوقعتها الى الحياة الطليقة تستنشق نسيم المعرفة وتخبر الدنيا وتناقش الرجل وتتمسك بدينها • وهذا هو الذى دفعه الى ان يعيد النظر فى رأيه السابق عندما رد على الدوق وان يرجع الى الشريعة السمحاء يدرس نصوصها • وغاية مايريد ان يلفت المجتمع الى ما وصل اليه لا ان يحقق كل مايريد « لأن تحويل النفوس الى وجهة الكمال فى شئونها مما لا يسهل تحقيقه وانما يظهر أثر العاملين فيه ببطء شديد فى أثناء حركته الخفية » •

وهو يعلم أن الناس لن تتقبل آراءه ببساطة ، ولكنه لا يرجع عما يعتقد انه الحق ، ولذلك يبدأ الصفحات الأولى من تحرير المرأة قائلا : « سيقول قوم ان ما أنشره اليوم بدعة فأقول نعم أتيت ببدعة ولكنها ليست فى الاسلام بل فى العوائد وطرق المعاملة التى يحمد طلب الكمال فيها » •

ويرى قاسم المسلمين منتشرين فى أطراف الأرض فهل هم أنفسهم متحدون فى عاداتهم وتقاليدهم وأساليب حياتهم ؟ أليست الحقيقة فى ان لكل أمة فى كل فترة من الزمن آدابا خاصة بها ترتبط بمدى تقدمها العقلى والاجتماعى ؟ ان بقية الحقيقة ان هناك تلازما بين انحطاط المرأة

وانحطاط الأمة • ان الغربى الذى يحب أن ينسب كل شىء الى دينه ما دام راقيا يعتقد أن المرأة الغربية قد ترقت لأن دينها قد ساعدها على نيل حريتها • والواقع ان الاسلام قد سبق كل الشرائع فى تقرير مساواة المرأة للرجل فأعلن حريتها واعتبر لها كفاءة شرعية يوم كانت فى حضيض الانحطاط عند كل الأمم •

لماذا اذن هوت المرأة الى هذه المنزلة السيئة ؟ لا دخل للاسلام فى ذلك ولكنها عادات ورثناها عن الأمم التى انتشر فيها الاسلام ، فلم تبدل تقاليدها بعد ان أسلمت ، ثم كانت الحكومات الاستبدادية سببا فى استمرار تلك التقاليد القاسية : فالحاكم يستبد بالمحكوم والرجل يستبد بالمرأة ودائرة الاستبداد تحيط المجتمع كله وتفسد كل جانب فيه ، وهكذا حالة المرأة وبقى حال الرجل معها حتى الآن : « له الحرية ولها الرق . له العلم ولها الجهل ، له العقل ولها البله ، له الضياء والفضاء ولها الظلمة والسجن ، له الأمر والنهى ولها الطاعة والصبر ، له كل شىء فى الوجود وهى بعض ذلك الكل الذى استولى عليه » •

وبعد هذا التمهيد الذى عرض فيه لحالة المرأة السيئة وحاول أن يتتبع الجذور التاريخية لتلك المنزلة وينبه الى براءة الاسلام منها • بدأ يرد على سؤال كان يتردد على صفحات الجرائد فى ذلك الوقت عن « الرجل والمرأة وهل يتساويان » مع وضوح قوته الجسدية والعقلية ؟ فيرى قاسم ان الرجل اذا فاق المرأة فى القوة البدنية والعقلية فذلك انما يرجع الى ان الرجل قد مارس الأعمال العضلية والعقلية فقويت بنيته ونما عقله بدوام الممارسة ، فى الوقت الذى كانت فيه المرأة تكاد تكون محرومة من استعمال القوتين • والى الآن لايزال كثير من الناس يتساءلون : هل تعليم المرأة القراءة والكتابة مما يجوز شرعا ؟ ثم يعلق على ذلك السؤال بأن لا شىء يمنع المرأة المصرية من الاشتغال بالعلوم والآداب والفنون الجميلة والصناعة مثل المرأة الغربية الا جهلها واهمال تربيتها •

ولكن البيئة مختلفة هنا والعقول غير مهيأة كما قال له صديقه أحمد شفيق فيتواضع فى مطالبه حتى تتهيأ تلك العقول بفعل التطور لقبول المزيد « فيجب أن تتعلم كل ما ينبغى أن يتعلم الرجل من التعليم الابتدائى على الأقل حتى يكون لها المام بمبادىء العلوم يسمح لها بعد ذلك باختيار ما يوافق ذوقها منها واتقانه بالاشتغال به متى شاءت » •

ولم يدع قاسم الى خروج المرأة لميدان العمل الا فى حالات الضرورة كان يتوفى زوجها ، أو يكون فقيرا محتاجا الى مساعدة أو لم تتزوج اطلاقا وليس لها أقارب مستعدون لمعاونتها فلا بد لها اذن من التعلم لتتمكن من العمل فى وظيفة شريفة بدلا من الانزلاق الى هاوية الرذيلة • ولكن الدعوة

الى العمل رغم الشروط التى وضعها كانت غريبة على مجتمع شديد المحافظة ولم يكن من الممكن ان تجتذب أنصارا عديدين فى وقت سريع ·

وتستبد به مشاعره وكل حماسته حين يتصور المرأة زوجة وأما فيقول : « نرى نساءنا يمدحن رجالا لا يقبل رجل شريف ان يمد يده ليصافحهم ويكرهن آخرين ممن نعتبر وجودهم شرفا لنا ذلك لأن المرأة الجاهلة تحكم على الرجل بقدر عقلها فأحسن رجل عندها هو من يلاعبها طول النهار وطول الليل ويكون عنده مالا يفنى لقضاء ما تشتهيه من الملابس والحلى والحلوى وأبغض الرجال عندها من يقضى أوقاته فى الاشتغال فى مكتبه » ·

أهذه هي صورة الزوجة عندنا ، انها صورة مشوهة معكوسة للمرأة التى يتمناها الرجل المثقف الباحث عن السعادة ·

ولا سبيل الى سعادة الأمة اذا لم يسعد الزوج فى بيته ولم تسعد الزوجة مع زوجها ولم يسعد الأبناء فى بيئة صالحة · والوراثة والتربية هما الأصلان اللذان ترجع اليهما شخصية الأطفال ، جيل المستقبل الذى نبنى عليه آمالنا الوطنية ·

والطفل لا يعيش فى الفترة الأولى من حياته التى يكون فيها عقله ونفسه أشبه بصحيفة بيضاء قابلة لكل ما ينقش فيها ســواء أكان خيرا أم شرا — الا بين النساء · ومن جهل الأم ان تترك طفلها مشردا فى الطرقات يتمرغ فى الأتربة تمرغ صغار الحيوانات وأن تملأ قلبه فزعا بالجن والشياطين ، وأن لا تعرف من وسائل صيانته ســوى تعليق التعاويذ والطواف حول القبور والتمسح بالأضرحة ·

اننا نجد في هدى نبينا ما ينبغي ان نقتدى به حين قال فى شــأن عائشة : « خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء » وعائشة امرأة لم تؤيد بوحى ولا بمعجزة وانما سمعت فوعت وعلمت فتعلمت ولذا ، ينبغى أن نبدأ بتربية المرأة تربية تنقذنا من جميع العيوب التى يقذفنا بها الأجنبى كل يوم وترتد كلها الى اهمالنا تربية المرأة ·

ولكن ما بال أكثر الرجال يعارضون تعليمها وتثقيفها فى الوقت الذى يشكون فيه مر الشكوى من جهالتها ؟ لقد رسخ فى أذهانهم ان تعليمها وعفتها لايجتمعان وقال بعضهم فى ذلك حكايات غريبــة ونوادر سخيفة استدلوا بها على ان تعليم المرأة يزيدها براعة فى الاحتيال ويعطيها سلاحا جديدا تتقوى به على تنفيذ شهواتها ·

الواقع ان البطالة التى ألفتها النساء عندنا وصارت طابع حياتهن هى أم الرذائل والتعليم يرفع من قدر المرأة ويرد اليهــا احساســها بشخصيتها وكيانها ويسمح لها أن تفكر وتتبصر فى أعمالهــا والمرأة

المتعلمة تخشى عواقب الأمور أكثر مما تخشاه الجاهلة ويكون لهـــا من كرامتها ما يصونها عن الدنس ٠

« والمعول فى كل ذلك على الأخــلاق التى نشأت عليهـــا المرأة فى تربيتها الابتدائية ٠ فان اعتادت على أن تشغل أوقاتها بالمطالعة ومزاولة الأعمال المنزلية ، وتربت بين أهل وعشـــيرة رأت فيهم أســوة انجد والاستقامة ، وغاب من بينهم كل ما يؤثر فى مشاعرها أثرا غير صالح أو يهيج حسها الى أمر غير لائق وتعودت على ان تقيم من عقلها حاكما على قواها الحسية كان من النادر ان تحيد عن الطريق المستقيم وان تلقى بنفسها فى غمرات الشهوات التى لا تسلم مهما كانت من الخطر والعذاب والندم بالجملة فانا نرى ان تربية العقل والأخلاق تصون المرأة ولا يصونها الجهل ٠ بل هى الوسيلة العظمى لأن يكون فى الأمة نساء يعرفن قيمة الشرف وطرق المحافظة عليه وأرى ان من يعتمد على جهل امرأته مثله كمثل أعمى يقود أعمى مصـــيرهما ان يترديا فى أول حفـــرة تصادفهما فى الطريق » ٠

الى هنا كان قاسم يعرض لموضوع تربية المرأة وتعليمها عرضـــا منطقيا يسوق فيه الأدلة العقلية ولكنه حين ينتقل للموضوع الثانى الخاص بحجاب المرأة سنرى أثر قراءاته الدينية ، لأنه موضوع قد عرض له من قبل القرآن الكريم والحديث الشريف وهو يمس جوهر الحياة الاجتماعية الاسلامية ثم ان قاسما قد أيد الحجاب من قبل حين رد على الدوق الفرنسى فلا ينبغى حين يدعو الى السفور اليوم ان يكون متناقضا مع نفسه ولكن هل دعا قاسم حقيقة الى السفور ؟ ٠

لنستمع اليه يقول : « اننى لا أزال أدافع عن الحجاب وأعتبره أصلا من أصول الأدب التى يلزم التمسك بها ٠ غير انى أطلب ان يكون منطبقا على ما جاء فى الشريعة الاسلامية » هذا هو لب رأيه فى مســـألة الحجاب فالغربيون قد غالوا فى السفور الى درجة يصعب معها ان تتصون المرأة ، ونحن غالينا فى الحجاب حتى صيرنا المرأة متاعا من المقتنيات وحرمناها نعمة الحياة الحقة ٠ وبين هذين النقيضين درجة تسمو عليهما هى درجة الحجاب الذى حدده الاسلام ٠

ونخلص من كل ذلك الى ان قاسم أمين لم يدع الى السفور بالصورة التى تخيلها الناس وانما دعا الى الحجاب الشرعى ودعا الى تربية المرأة وتحميلها مسئولية جيل جديد يطمح الى نهضة قومية شاملة ٠ ومن الواضح انه قد أعاد التفكير فى قول الدوق الفرنسى ورأى ان هجومه وان يكن مليئا بالمفتريات ، فقد كان فيه بعض الحق على أنه ينبغى أن نذكر دائما ان قاسم أمين كان ساخطا على مظاهر التهتك فاذا رأينا الآن بعض تلك المظاهر تروح وتغدو أمامنا فقد نسبنا اليه ما هو برىء منه !!

أقســام الكتــاب

صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب سنة ١٨٩٤ ولكنه في موضوعه ومحتوياته لايعد كتابا لتلك السنة أو تلك الحقبة بل هو كتــاب اليوم والغد أيضا ما دامت قضاياه ما تزال بين أخذ ورد . وقد استفتحه مؤلفه بمقدمة وتمهيد تلتهما موضوعات الكتاب في مسائل المرأة فخاتمة في الدعوة الى الأخذ بالعلم والعزيمة في الاصلاح ، ومن المفيد أن نشير الى ان المؤلف كان يوجه كتابه الى المصريين أولا ولكنــه كان خــلال كل خطواته دائب التطلع بأوسع نظر الى غيرهم من العرب والمسلمين وسائر الشرقيين ، اذ أن كل بلاد الشرق منذ كانت كمصر في حالة شديدة من التخلف ، وكان الغرب في قمة طغيــانه مسلطا عليهــا جميعا ، يستعمرها ويستعبد أهلها ويستنزف خيراتها في عنف وصلف ولولا اتجاه المؤلف بكتابه الى كل المسلمين لما كان لدعوته في كتابه هذا كل آثارها القوية في شتى البلاد الاسلامية لاسيما العربية فقد أثارت ولم تزل تثير كثيرا من التأييد وكثيرا من المعارضة وكثيرا من اللغط بين من لم يقرءوا حرفا من الكتاب وان خاضوا في الحديث به وبصاحبه .

المقـــدمة

أما المقدمة ـ وهي نحو صفحتين ـ فيوضح فيها ان كل مسألة من المسائل التى أجملها في كتابه « يصح أن تكون موضوعا لكتاب على حدة » . ولكنه اختصر فيها عمدا لترتبط كحلقات سلسلة واحدة ، وغاية أمله منه لفت الأذهان الى موضوع يقل عدد المفكرين فيه ، لا وضــع كتــاب واف في شأن المرأة ومكانتها من الوجود الانساني ويقول : « وقد يوضع هذا الكتاب بعد سنين متى نبتت هذه البذرة الصغيرة ونما نباتها في أذهان أولادنا وظهرت ثمراتها وعملوا على اقتطافها والانتفاع بها » . ثم يمضي فيوضح ان مراده من الاصلاح بعيد الشقة كثير المشقة وانه هو لا يطمح في تحقيقــه قريبــا « لأن تحويل النفوس الى وجهــة الكمال في شئونها مما لا يسهل تحقيقه » .

ثم يهيب المؤلف بصفوة الأمة وهم المتعلمون من أبنائها فيدعوهم الى النهضة والاصلاح والا تصرفت فيهم الحوادث كما تتصرف بالنبات والجماد وكلهم يتألم ويشعر بالحاجة الى الاصــلاح فعليهم تبعاته . ولا يليق بمعارفهم ولا بعزائمهم ان يسجلوا على أمتهم العجز واليأس « فان ذلك من

مظاهر الكسل والجبن وحال من أحوال من لا ثقة له بنفسه ولا بأهله ولا بملته ، ولا بشرعه ولا بالهه » ·

فالمؤلف يرى الكسل موتا واليأس كفرا بالنفس والأمة والدين والوجود كله ، وهكذا يرتفع بتفكيره وأمله فيرتقى من وجوب الثقة بالنفس والجماعة وبالعقيدة والشريعة حتى يبلغ الايمان بالله الذى هو مناط كل خير وكل عزم وكل أمل فى الاصلاح · ومن هنا نعرف قوة نفسه وقوميته وقوة اعتماده على دينه وقوة يقينه بالله ·

ثم يختم المؤلف مقدمته فيقول ما يقوله كل طالب للحقيقة فى اخلاص وتواضع : « ان أخطأت فلى من حسن النية ما أرجو معه غفران سيئة خطئى، وان أصبت ـ كما أظن ـ وجب على أولئك المتعلمين نشر ما أودعته فى هذه الوريقات وتأييده بالقول والعمل » ·

وأما التمهيد فهو فصل من الكتاب وان سماه تمهيدا وأما موضوعه فواضح من عنوانه « حالة المرأة فى الهيئة الاجتماعية تابعة لحالة الآداب فى الأمة » فهو بحث تاريخى سياسى اجتماعى لبيان حقيقة مكانة المرأة فى المجتمع · والمؤلف يعمد فيه الى منهج البحث الذى يسميه علماء الكلام عندنا « التخلية قبل التحلية » أى ازالة العقبات وسد الثغرات لتعبيد الطريق قبل تجميلها لتمضى فيها الحقيقة بسهولة ، ولذلك يتقدم المؤلف هنا فى حذر وأناة ، ولكن مع شجاعة وبصيرة لازالة الشكوى والمعارضات التى تقف دون الاصغاء لقضيته وذلك قبل ان يورد القضية كى يسهل فهمها وقبولها ثم هو يدعو كل متعلم يطلع على كتابه أن يتحمل مسئوليته فى التفكير معه لفهم حالة النساء السيئة فى أمته والبحث عن وسائل اصلاحها لتصلح الأمة جميعا اذ لا صلاح لأمة دون تربية نسائها على تحمل مسئوليتهن بحرية ، أى بشجاعة وفهم واخلاص ، ويذكر المؤلف انه بحث هذا الأمر طويلا وقلبه على وجوهه وامتحنه وحلله حتى انتهى الى فكرة اصلاحية صارت تلح عليه حتى لم يجد هربا من اعلانها ·

وهذه القضية أشبه بالبدهية عند من اطلع على سير المصلحين فلولا استيلاء فكرة عليهم ـ لاخيرة لهم معها ـ لما جازفوا فى سبيلها بكل شىء حتى حياتهم ، بل ما هو أسمى من الحياة وهو حسن السمعة ·

ثم يمضى المؤلف فيذكر الصراع بين الآراء والمذاهب ومحاولة تأييدها ولو بالحروب وهذا واضح فى تاريخنا الاسلامى وغيره ، اما داخليا فى صراع الأفراد بعضهم مع بعض أو خارجيا فى صراع كل أمة مع غيرها ، ولكنه أوضح ما يكون فى عصرنا لأن الاختراعات الحديثة ألغت المسافات وهدمت الفواصل فوثقت العلاقات بين الأمم طوعا وكرها فمن العار أن نلوذ بالسكون الذى حبب الينا اهمال عقولنا حتى صارت كالأرض

البوار ، فعادينا كل فكرة مألوفة حتى ما كان من السنن الصالحة الأولى ، أو قضت به المصالح العامة وطريقة الكسول دفع الاصلاح بكلمة باطلة ، اذ يصفه بأنه بدعة فى الاسلام ليتخلص من عناء الفهم وعناء العمل كأن الله خلق المسلمين من غير طينة الآخرين وأعفاهم من النواميس التى يخضع لها بقية البشر وسائر الأحياء ·

بدعة فى العادات لا فى الدين

ثم يشير الى مايتوقعه لفكرته الاصلاحية فيصفها قوم بأنها بدعة ويعترف هو بأنها بدعة ولكنها ليست بدعة فى الاسلام بل فى العوائد وطرق المعاملة التى يحمد « طلب الكمال » فيها · ثم يوضح معنى العادة وانها « اصطلاح الأمة على طريقة خاصة فى معيشتهم ومعاملاتهم حسبما يوافق الزمان والمكان فهى لابد ان تتغير لأنها من ثمار عقل الانسان كما يدرك مصالحه وهذا كله مختلف باختلاف الأماكن والأزمنة ، وشـواهد ذلك اختلاف عوائد المسلمين فى بلد عن بلد ومن زمن الى زمن ، وكذلك غيرهم من بدو وحضر وجمـاعات جاهلة أو متوحشـة وأخرى متعلمة أو متمدينة ولا سبيل لتخلص أمة من عوائدها الا بتحويل نفوسها وارتفاع درجتها فى العقل » ويستشهد بالآية القرآنيـة « **ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** » · والعوائد قاهرة وربما تغلب غيرها من العوامل حتى الشرائع وقد تحول قوانين الاصلاح آلة جديدة للفساد بل « تتغلب على الدين نفسه وتمسخه بحيث ينكره كل من عرفه » ·

ومن هنا نعرف انه يقيم القضية على دعائم تضرب فى أغوار النفس الانسانية بل تمتد الى أعماق الوجود كله ويؤيدها بالقرآن الذى هو أساس الاسـلام ثم يقيم على هذه الدعائم الراسخة قاعدة شـاملة هى أوسع من قضية تحرير المرأة لأنها تتسع بهذه القضية لقضايا كثيرة تقام عليها لاصلاح كل شئون الأمة ·

ويمضى المؤلف فيقرر أن حالة المرأة فى أية أمة ترتبط بأحوال هذه الأمة رقيا وانحطاطا · ويؤيد رأيه بكثير من الأمثلة التاريخية عند اليونان والرومان والعرب قديما حين كانت القوة هى القانون الوحيد والحكومات الاستبدادية تعتمد على القوة وحدها ، وليست الحال كذلك الآن فى الأمم المتمدينة لضعف الاستبداد فيها ولذلك ضاقت المسافة فيها بين الرجال والنساء وقد ترقت المرأة فى الأمم التى تفوق غيرها تمدنا فصارت المرأة أسعد حالا وأوسع حرية ، كما نرى المرأة الأمريكية وتليها الأوروبيات على درجات ، فالاستبداد أساس كل فساد وهو يفسد كل عناصر الأمة ·

ويرى المؤلف انه « ولو كان لدين ما سلطة قاضية على العوائد المخالفة له لكانت المرأة المسلمة اليوم فى مقدمة نساء الأرض » فقد « سبق الشرع الاسلامى كل شريعة أخرى فى تقرير مساواة المرأة بالرجل فأعلن حريتها واستقلالها يوم كانت فى حضيض الانحطاط عند جميع الأمم وخولها كل حقوق الانسان : فكفاءتها كالرجل شرعا فى جميع الأحوال المدنية من بيع وشراء وهبة ووصية من غير توقف على اذن أب أو زوج ، ولم تصل الى هذه المزايا بعض النساء الغربيات حتى اليوم ، وهذه المزايا كلها تشهد على ان من أصول الشريعة السمحاء احترام المرأة والتسوية بينها وبين الرجل ، بل ان شريعتنا أبعدت فى الرفق بالمرأة فوضعت عنها أعمال المعيشة ، ولم تلزمها بالاشتراك فى نفقة المنزل وتربية الأولاد خلافا لبعض الشرائع الغربية التى سوت بين الرجل والمرأة فى الواجبات فقط وميزت الرجل فى الحقوق » .

الاسلام بريء من تهمة انحطاط المرأة

ثم يبين انه ليس فى أحكام الاسلام ما ينسب اليه انحطاط المرأة المسلمة ، بل حقيقته عكس ذلك لأنه أكسبها مقاما فى الهيئة الاجتماعية ولكن الذى تغلب على جماله هو ما ورثته شعوب أمتنا عن جاهليتها أو الأمم التى خالطتها من أخلاق وعوائد سيئة وأسوأ ما منيت به الشعوب الاسلامية تجردها من النظم التشريعية التى تحدد حقوق الحاكم والمحكوم وتخول المحكومين مطالبة الحاكم بالوقوف عند حد مقرر بمقتضى الشريعة والنظام ، ولهذا اتخذت حكوماتها الشكل الاستبدادى دائما فللحاكم ثم أعوانه السلطة المطلقة بلا قيد ولا مشورة ولا مراقبة واذا كان الحاكم ملزما باتباع العدل وتوقى الظلم فان السلطة تغرى بسوء الاستعمال ان لم تجد رأيا يناقشها وهيئة تراقبها . ولهذا مضت القرون على شعوب الاسلام وهى تحت الاستبداد المطلق فاتبع الحكام أهواءهم ولعبوا بالدين نفسه فى أغلب الأزمنة ما عدا ندرة منهم واذا غلب الاستبداد على أمة لم يقتصر على هوى الحاكم بل تجاوزه الى أهواء من حوله .

فظلم كل قوى جميع من هم دونه اذا استطاع ، وسرى الظلم فى كل النفوس وان لم يرض الحاكم وقد يتوهم ان المظلوم يحب العدل ويؤثر الشفقة ولكن المشاهدات تدل على أن جو الأمة المظلومة لا يصلح لنمو الفضيلة ، ومن هنا احتقرت المرأة لضعفها واهتضمت كل حقوقها فحبست فى زوايا البيت خوفا عليها وخوفا منها وعاشت رهينة الجهل والظلم لا عمل لها الا خدمة الرجل وترفيهه ، له أن يبقيها أو ينبذها كما يشاء وهو لا يأمن الدنيا ولا يأمنها على نفسها فيفرض عليها ملازمة

البيت ويراقبها فيه أحيانا ، وقد تخرج باذنه ولكن تحت الرقابة ممن لا يؤمن عليها فى الداخل أو الخارج ٠

وهنا عدد المؤلف مظاهر احتقارها وظلمها ، ثم بين ان حالة المرأة المصرية تحسنت أخيرا بسبب ما ناله الرجال من كرامة لاعتدال سلطة الحاكم فأعطوا نساءهم مقاما فى الحياة العائلية حين وثقوا من أنفسهم فواثقوا بنسائهم وشاركوها فى الخروج والنزهة وهذا احترام جديد لايسلم من انتقاد ، ولا سبب لهذا الانتقاد الا أحوال تحف به وأهمها رسوخ عادة الحجاب فى نفوس الجمهور الأعظم ونقص تربية النساء فلو كملت تربية النساء على مقتضى هداية الدين وقواعد الأدب ، ووقف الناس بالحجاب عند حده الشرعى المعروف فى أغلب المذاهب الاسلامية — لسقطت تلك الانتقادات وأمكن ان تنتفع الأمة بجهود كل أفرادها رجالا ونساء ٠

ومن هذا الفصل وفصل « المرأة والأمة » الذى يتممه — يبدو اتساع القاعدة التى أقامها المؤلف لتحرير المرأة فهى أوسع من الموضوع بكل أطرافه ، كما أن روح البحث ومنطقه أعم من كل قضاياه فهو يدعو الى تحرير الأمة جميعها من كل استبداد والى تربية كل أفرادها تربية دينية خلقية ثقافية بقدر المستطاع ، ليسهم فى نهضتها كل فرد بشتى مزاياه وجهوده ولا يترك أى فرد عطلا من التربية التى تليق به وتؤهله لحمل مسئوليته الفردية والاجتماعية ٠

تربيــة المرأة

فى هذا الفصل يقرر المؤلف أن المرأة انسان فى أعضائها ووظائفها واحساسها وفكرها وفى كل ما تقتضيه حقيقة الانسان من حيث هو انسان ولا تختلف عن الرجل الا بقدر ما يستوعبه اختلافهما فى الصنف ، واذا كان الرجل قد فاقها قوة بدن وعقل فمن أسباب ذلك أنه اشتغل بالعمل والفكر أجيالا طويلة على حين قهرت المرأة على لزوم الانحطاط وبلغ من اهمالها أن تساءل بعض الناس هل يجوز شرعا تعليمها القراءة والكتابة أم هو حرام ٠

ولا يكفى فى تعليمها أن تعرف الأعمال المنزلية البسيطة كالمطبخ ونحوها فهذه المعرفة لا تمكنها من ادارة منزلها بل يلزمها على الأقل أن تتعلم ما يتعلمه الصبى فى المرحلة الابتدائية من مبادىء العلوم لاختيار ما يوافق ذوقها منها بعد ذلك كى تشتغل به اذا شاءت ، ويبدو أن المؤلف قانع بذلك أو كالقانع (وهذا فى عصره كان مطلبا موغلا فى الشطط) ولكننا لا نكاد نمضى معه فى فكرته — كى يبين لنا وظيفتها فى المجتمع

ووظيفتها فى العائلة ــ حتى نرى لزاما انه لابد أن تعلم المرأة كل ما يتعلم الرجل فيما يصلحان له معا انسانيا وما تنفرد به من دونه وما ينفرد به دونها ، اذ لا يمكن بغير ذلك تنمية مواهبها الانسانية والنسائية وتمكينها من الاسهام فى بناء مجتمعها وحماية نفسها وادارة بيتها وتربية أولادها وارضاء زوجها مع تهيئة عقلها لقبول الآراء السليمة وطرح الخرافات التى تفتك بعقلها ، ولابد من مبادرتها بذلك من صغرها وتربيتها على الفضائل الاجتماعية التى يظهر أثرها فى نظام الأسرة ونظام الأمة حتى تصير تلك الفضائل ملكات راسخة فى نفسها « ولا يتم ذلك الا بالارشاد والقدوة الصالحة » .

ان النساء نصف السكان على الأقل « فبقاؤهن فى الجهل حرمان من الانتفاع بأعمال نصف عدد الأمة والمرأة عندنا اذا أحسننا تربيتها كانت كزميلتها الغربية تشتغل بالعلوم والأدب والفنون الجميلة والتجارة والصناعة وصارت نفسا حية فعالة تنتج بقدر ما تستهلك ، لا مجرد عالة كما هى الآن ، بل هى محتاجة الى التربية لمجرد أن تكون انسانا يعقل ويريد ، ولو لم تشارك فى حرفة فأقل ما فى ذلك اعتمادها على نفسها فى تدبير معاشها حين تفقد السند من الرجال وحماية نفسها من الابتذال .

والشرائع الالهية والقوانين الوضعية والتكاليف الشرعية تتجه للمرأة كالرجل باعتبار أنها وهبت مثله العقل ووسائل الادراك وهى لم تمنح ذلك عبثا بل لتستعمله لا لتهمله وحرمانها من التربية فى الماضى هو الذى حرمها التمييز والتمسك بالكرامة والانسانية وباعد بينها وبين الرجل فى الفهم والشعور وأعجزها من ارضاء زوجها وتربية أولادها وتدبير بيتها كما ينبغى لها ، والرابطة بينها وبين زوجها جسمية ونفسية أيضا وقد تضاعفت العلاقة الجسمية فتبقى لها جاذبيتها النفسية ، والأطفال يعيشون فى طفولتهم بين النساء فتأثيرهن فيهم أكبر والتربية الأولى أساس كل تربية تليها » .

« والنساء أمهاتنا وبناتنا واخواتنا وزوجاتنا وهن زينة حياتنا » بل « هن نحن ونحن هن » ولا كمال للرجل والمرأة ناقصة ولا سعادة للرجل الا بالنساء ومن يعتمد على امرأة جاهلة كان كالأعمى يقود أعمى ليسقطا معا فى أول هاوية .

حجـــاب المرأة !!

فى هذا الفصل يشير المؤلف الى قصته مع الدوق وكتابه ، ويشير الى انه فى رده عليه قد دافع عن الحجاب وانههنا لم يزل مدافعا عنه اذ

يعتبره هنا كما اعتبره هناك • أصلا من أصول الأدب التى يجب التمسك بها » غير انه يطلب أن يكون منطبقا على ما جاء فى الشريعة الاسلامية وهو فيها يختلف عن الحجاب المتعارف عندنا ، لان قومنا غالوا فى الاحتياط وفيما يظنونه عملا بأحكام الشريعة حتى تجاوزوا حدودها وأضروا بمصالح الأمة •

« والغربيون قد توغلوا فى اباحة التكشف للنساء الى درجة يصعب معها أن تتصون المرأة من التعرض لمثيرات الشهوات وما لا ترضاه عاطفة الحياء » ولكن « بين هذين الطرفين وسط سنبينه هو الحجاب الشرقى الذى أدعو اليه » •

ثم يشير الى أن الحجاب حدث فى كل أمم العالم فى دور تاريخى ، ولم يستحدثه المسلمون وان التخفف منه فى مصر قد حدث فى السنوات الأخيرة فخرجت النساء لقضاء حاجتهن وتعاملن بأنفسهن مع الرجال فى شئونهن وطلبن الترويح فى الهواء وصحبهن رجالهن فى الأسفار وشاركنهم فى الموائد وامتد ذلك فى أشد البيئات تحرجا من ظهور النساء •

ثم يبين المؤلف انه لو جاءت فى الشريعة الاسلامية نصوص تقتضى الحجاب كما هو فى شكله الآن لتجنب البحث فيه لأن الاذعان للأوامر الالهية واجب دون جدال ، ولكن لا نص على هذا الحجاب المتعارف بل هو عبارة أصابت المسلمين مما ورثوه قبل الاسلام أو من مخالطة أمم أخرى فاستحسنوه فالبسوه ثوب الدين كسائر العادات الضارة التى نسبت اليه وهو منها براء •

ثم مضى المؤلف يذكر نص القرآن فى الحجاب : « **قل للمؤمنين يغضوا من ابصارهم** •••• » ووضح أن هذا النص يبيح للمرأة اظهار بعض أعضائها أمام الأجنبى عنها دون تسمية تلك المواضع وان العلماء قالوا ان تعيينها موكول الى ما كان معروفا فى العادة وقت الخطاب واتفق الأئمة على أن الوجه والكفين مما استثناه النص ثم نقل بعض كتب المذاهب ما يؤيد اباحة كشف القدمين لابتلاء الناس باظهارهما ، وذلك أوضح حيث ينتشر الحفاء • وبين أن الشريعة خولت المرأة مثل حقوق الرجل وألقت عليها تبعاتها فى أعمالها المدنية والجنائية فكيف يمكن التعامل معها دون رؤية تثبت شخصيتها وبغير ذلك يسهل الغش والتزوير فى المعاملات كما أظهرت الوقائع القضائية ، وكيف للمحجبة أن تتخذ صناعة أو تجارة أو زراعة بنفسها لتعيش وكيف تؤجر نفسها للخدمة فى غير بيتها أو لحصاد أو زرع أو بناء ؟ •

ان الله لم يقسم العالم بين الجنسين قسمة افراز ، بل جعله مشتركا ليتعاملا معا فى رعاية آداب وقوانين تنظيم العلاقات بينهما وتيسر لكل

منهما أن ينعم بالحياة فى حدودها ، وأباحت الشريعة بل ندبت أن يرى الرجل المرأة حين يخطبها ليكون كلاهما أعرف بالآخر ، وليس التصون من آداب المرأة وحدهـا ، بل هو عام بين الفريقين وموضـوعه الأعمال والمقاصد ، لا الأشكال والملابس ومن هنا يظهر ان حكم الشريعة يسرى على الفريقين وانه لا عسر فيه على أيهما فى التكاليف الشريعة والمعاشية وهذا التشدد تنطع فى الدين يخالف نصوص الشريعة الصريحة ·

وأما خوف الفتنة الذى يقفز دائما فى كل تفـكير فهو أمر يتعـلق بقلوب الخائفين من الرجال وليس على النساء تقديره ، ولا هن مطالبات بمعرفته فمن خاف الفتنة غض بصره رجلا كان أو امرأة ، وغض البصر مطلوب من الفريقين على السواء وبعض أشكال النقاب تحليه زينة تغرى بالفتنـة ، وفى انكشـاف الوجه ما يمنع معاودة تجسس النظر اليه ، ولا تقتصر الفتنة على الأعضـاء الظاهرة ففى المشى وتغطية الجسم ما هو أشد فتنة والنقاب يخفى شخصية المرأة فتستطيع اتيان ما تشتهيه ولكن انكشاف وجهها يكشف شخصيتها فتشعر بالحياء لنسبها الى عائلتهـا أو شرفها الى نفسها فلا تأتى ما يشعر برغبتها فى لفت الأنظار وقد أمر القرآن المرأة أن تضرب خمارها على جيبها ، وهذا يختلف عن المعهود الآن فى البرقع والنقاب ·

ليس الحجاب حجز المرأة فى بيتها

هذا هو الحجاب بمعنى تغطية الجسـم وأما الحجاب بمعنى حجز المرأة فى بيتها وعدم مخالطة الرجـال فالكلام فيه قسمان ، قسم خاص بنساء النبى عليه السلام كما نص القرآن عليهن ، وقسم لسائر المسلمات فالأوليات لسن كسائر النساء فيقتصر عليهن ما يخصهن ولا يسحب على سواهن ، وأما ما يعم الأخريات فانه لهن جميعا وليس فى الشريعة ما يمنع عامة المسلمات من غشيان المجتمعات فقد كن يغشينها لمصالحهن فى عصر النبى وصحابته ·

أما الحجاب اجتماعيا فمرده الى الشريعة الاسلامية ، لا الى مزاج أحد أو ذوقه أو استحسانه أو التمسك بعادة ما دمنا بصدد البحث عما به قوام المرأة وقوام حياتنا · وما تقدم من الكلام على تربية المرأة وفوائدها للهيئة الاجتماعية يوضح أن المسائل يرتبط بعضها ببعض فلا سبيل الى التربية الحقيقية مع بقاء الحجاب المعهود فلو عزل رجل فى الأربعين كما تعزل المرأة عند بلوغها فى منزل لشعر بانحطاط تدريجى فى قواه العقلية والأدبية ·

والتربية ليست خزن كمية من المعلومات بل تثقيف دائم للنفس والعقل بكل الوسائل الدينية والأدبية والعلمية من الميلاد حتى الموت فلا تقف عند سن معينة ولا فضيلة فى العفة القهرية بل فى الامتناع عن مقارفة الشهوات مع القدرة عليها ، ثم ان فساد المرأة لا يتأتى من الاختلاط بالرجل فحسب بل يأتى أيضا من الاختلاط بالفاسدات وحبس النساء فى البيوت لا يمنع سريان الفساد اليها ٠

ولهذا ينبغى أن يكون الحجاب فى حدود الشريعة مع تربية المرأة منذ طفولتها على أساس الدين والأدب فان « حسن التربية واستقلال الارادة هما العاملان فى تقدم الرجال فى كل زمان ومكان » وكذلك فى تقدم النساء ٠

المرأة والأمة

فى هذا الفصل يقرر المؤلف أن أمتنا لم يتهيأ لها من فرص التقدم ما تهيأ لها اليوم ولا تعرضت للأخطار كما تعرضت لها اليوم أيضا (هذا فى عام ١٨٩٨) فان تمدن أمم الغرب بفضل البخار والماء قد انتشرت آثاره حتى عمت كل بلاد العالم وكلما دخل سلطان الغرب بلدا حاول الاستيلاء على منابع ثروتها واستنزافها وتسخير أهلها لمصلحته وحده ولا يترك لهم من خيراتها غير ما يبقيهم لخدمته ، وهو غالبا يستعمل عقله فاذا لم تسعفه الحيلة استعمل العنف وهو فى ذلك لا يطلب الفخار ، بل الثراء وذلك بتحصيل ثروات البلاد الأخرى ولا نجاة من غوائله الا باتخاذ مثل قوته أو أشد ولا سيما القوة المعنوية « قوة العقل والعلم التى هى أساس كل قوة » ولا وسيلة لذلك غير تربية كل أفراد الأمة رجالا ونساء ٠

وخلع العادات السيئة وعدم اعتماد الجماهير فى ذلك على أية حكومة بل على أنفسهم ، فلابد أن يتحملوا مسئولياتهم ولا ينتظروا من الحكومة الا ما هو من شأنها وحدها دون الأفراد والهيئات ٠

وتخلف المسلمين عام وليس لاختلاف شعوبهم وأقاليمهم أثر فيه ، بدليل تخلفهم جميعا وليس شىء يجمع المسلمين غير الاسلام ولهذا اتهمه كثير من الغربيين وبعض المسلمين أنفسهم بأنه سبب التخلف ، وهو برىء منه ، وكل من عرف حقيقة الاسلام من أبنائه بل من الأجانب أيضا ـ يعظم قدره ويعترف بفضله فى نهضة كثير من الأمم التى اتصلت به ، ولكن كثيرا مما يزعمه بعض المسلمين دينا لا علاقة له بالدين ، بل بدع ألصقت به فاعتبر هذا الخليط اسلاما مع أن للاسلام مراجعه الكبرى التى تنكر هذه البدع !!

أثر الاسلام في ترقية البشرية

وقد وضح المؤلف أثر الاسلام فى رقى الشعوب التى اعتنقته يوم كان المسلمون لا يتركون « فرعا من العلوم ولا فنا من الفنون الا تعلموه وألفوا فيه وزادوا عليه ، فاشتغلوا بالعلوم الطبيعية والرياضيات والفلسفة والأخلاق وتوسعوا فى الصناعة والتجارة وبنوا الأساطيل تجرى فى البحار للتجارة وللحرب ، واستمر ذلك على تفاوت بحسب الأزمان ، ثم ابتلوا بوقائع التتار فزالت الخلافة فى الشرق وزالت دولة العرب فى الأندلس وانتقلت العلوم الاسلامية الى أوروبا فرجع المسلمون الى التخلف كالجاهلية الأولى ، ومنذ ذلك « انطفأ مصباح العلم فى الشرق بأجمعه واقتصر علماء الاسلام على النظر فى شيء من علوم الكلام وبعض شيء من قواعد اللغة وانصرفوا عن كل شيء عداها » . ولما ساد الجهل عقولهم عجزوا عن فهم حقيقة الاسلام ، وهنا أطبقت البلية بكل ظلماتها وظلمها ، واستمر الحال كذلك حتى ظهر أخيرا علماء متعمقون مضوا يكشفون حقيقة الاسلام اذ رجعوا الى القرآن والحديث دون أقوال المحققين من أهل المتون والشروح والحواشي فدعوا الى ما دعا اليه القرآن والحديث من تحرير العقل وتعلم كل ما يمكن تعلمه من المعارف الكونية والاشتغال بكل حرفة تنفع الناس ، فان انحطاط العقول هو الذى شوه الدين وحال دون الترقى ، وبصلاح العقول وتفتحها لادراك المصالح العامة تصلح الأمة ويعود للدين صلاحه .

وهنا يبين المؤلف ان المرأة لا تكون خلقا كاملا حتى تتم تربيتها جسميا وعقليا ، وسلامة العقل ترتبط بسلامة الجسم سواء فى الرجال أو النساء وصلاح الرجال بصلاح النساء ، لأن المرأة أم العائلة وميزانها ، فليست تربيتها من الكماليات بل هى من لزوم الضرورات لمصلحة الرجال والأمة جمعاء .

العائـــلة

فى هذا الفصل يتكلم المؤلف على أهم المسائل التى تمس المرأة فى العائلة وهى الزواج وتعدد الزوجات والطلاق ويبين ان الزواج عند الفقهاء عقد يملك به الرجل الاستمتاع بالمرأة وهذا يختلف عن معناه فى القرآن القائل : « **ومن آياته أن خلق لكم من انفسكم ازواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة** » ولسوء فهم بعض علمائنا هذا التعريف غفلوا وغفل

الناس معهم عن واجبات الزوجين فى الزواج قبل العقد وبعده ، فلابد فيه من معاينة كل من الزوجين الآخر ومعرفة صلاحه لحسن العشرة ، وللمرأة ما للرجل من حق اختيار الشريك فالقرآن يقول : « **ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف** » وقد ندب النبى الى ذلك لأنه أعون على المودة .

وتعدد الزوجات فى نظر المؤلف كسائر أنواع الحلال تعتريه الأحكام الشرعية من المنع والكراهة بحسب ما يترتب عليه من المصالح أو المفاسد ، فاذا غلب الجور أو نشأ من التعدد فساد فى العلاقات أو مجاوزة لحدود الشريعة فلأولى الأمر أن يمنعوه بشرط أو بغير شرط على حسب ما يرونه موافقا للمصالح العامة .

وأما الطلاق فقد وجد منذ وجد الزواج وكان معروفا فى كل الأمم ولم تمنعه المسيحية الا بعد نشأتها بزمن طويل ، ومنعه مطالبة للناس بالكمال المطلق وهو غير مستطاع ولا مراعاة فيه للمصالح ومع تسامح الكنيسة فيه شيئا بعد ذلك أحست أمم الغرب أن الشدة فى أمره لم تزل باقية فخففت تلك الشدة وشرعت له قوانين واسعة فانحسر سلطان الكنيسة عن كل ما لا يتفق وقوانين الطلاق فى كثير من الأمم .

فاذا رجعنا الى الشريعة الاسلامية وجدنا أنها وضعت أصلا يمكن أن ترد اليه جميع الفروع فى أحكام الطلاق ، وهذا الأصل هو أن الطلاق محظور فى نفسه مباح للضرورة وهو ما يستفاد من القرآن والحديث النبوى وأقوال كثير من الصحابة .

وقد راعى كل الأئمة على العموم هذا الأصل الذى من شأنه تضييق دائرة الطلاق ولكنهم عند التفريع على هذا الأصل لم يتفقوا فى التطبيق والفروع ويستطيع المسلمون اليوم أن يأخذوا من نصوص القرآن ما أخذ به كثير من فقهائنا فى مذاهبهم المختلفة ليقرروا للطلاق أحكاما تنظم فوضاه وتقلل منه بحيث تكون أقرب الى أصول الشريعة وأكثر تحقيقا لمصالح الأسرة وبذلك ترعى حرمة الدين وحق العشرة وأواصر النسب .

وهنا على سبيل المثال يضع المؤلف ـ وهو رجل متبحر فى القانون ـ نظاما للطلاق مؤلفا من خمس مواد يراها أقرب الى روح الشريعة وأصولها ، وانها تقلل الطلاق ، ثم يورد احصائية لحالات الزواج والطلاق فى القاهرة خلال فترة ثمانى عشرة سنة توضح أن كل أربع زوجات تطلق منهن ثلاث وهذا شىء فظيع مفزع !!

الخاتمـــة

تناول المؤلف فى الخاتمة موضوعين : العلم والعزم ، فالعلم وسيلة الأمة الى معرفة مطالبها وتخليصها من سيئات عاداتها ثم ترقية أحوالها لتعيش للمستقبل ، ومعرفة الشريعة تدلنا على أنها حدود عامة ولهذا يجد الناس فيها ما يوافق مصالحهم على اختلاف الأزمنة والأمكنة ٠

وأما العزيمة فهى تحث الارادة على تحقيق كل خير يكشفه العلم ، فاستحسان شيء لا قيمة له دون ارادة تنفيذه ، والرجل الحق من يحاول معرفة الخير ويجهد وسعه ليحققه فلابد لنا من العلم والعزيمة فى تحقيق التقدم ٠

وأخيرا اقترح المؤلف تكوين جمعية من الآبـاء الراغبين فى تعـليم بناتهم على هذه الطريقة لتحقيق تربية بناتهم والدعوة لاصـدار قوانين تضمن للمرأة حقوقها الشرعية دون التقيد بمذهب واحد كالمذهب الحنفى الذى تقيدت به بعض الدول ٠ ودعوة المؤلف الى عدم التقيد فى التشريع بمذهب واحد رأى غـاية فى السداد والتيسير فكل ما ورد فى المذاهب الاسلامية تراث اسلامى ينبغى أن نأخذ منه ما هو أنسب لنا ونستكمله بالاجتهاد ــ على وفق اصولنا اذا احتاج الى تكملة ولابد من تكملة ٠

نصوص مختارة من الكتــاب

١ ــ « عاشت المرأة فى انحطاط شديد أيا كان عنوانها فى العائلة، زوجة أو أما أو بنتا ليس لها شأن ولا اعتبار ولا رأى خاضعة للرجل لأنه رجل ولانها امرأة ، فنى شخصها فى شخص الرجل ولم يبق لها من الكون ما يسعها الا ما استتر من زوايا المنازل ، واختصت بالجهل والتحجب بأستار الظلمات ٠ واستعملها الرجل متاعا للذة يلهو بها متى أراد ويقذف بها فى الطرق متى شاء ، له الحرية ولها الرق ، له العلم ولها الجهل ، له العقل ولها البله ، له الضياء والفضاء ولها الظلمة والسجن ، له الأمر والنهى ولها الطاعة والصبر ، له كل شيء فى الوجود وهى بعض ذلك الكل الذى استولى عليه ٠ من احتقار المرأة أن يطلق الرجل زوجته بلا سبب ٠ من احتقار المرأة أن يقعد الرجل على مائدة الطعام وحده ثم تجتمع النساء من أم وأخت وزوجة ويأكلن ما فضل منه ٠ من احتقار المرأة أن يحال بينها وبين الحياة العـامة والعمل فى أى شيء يتعـلق بها ، فليس لها رأى فى

الأعمال ولا فكر فى المشارب ولا ذوق فى الفنون ولا قدم فى المنافع العامة ولا مقام فى الاعتقادات الدينية وليس لها فضيلة وطنية ولا شعور ملى » .

٢ ـ « أليس من جهل الأم بقوانين الصحة أن تهمل ولدهـا من النظافة فيعلوه الوسخ وتتركه متشردا فى الطرق والأزقة يتمرغ فى الأتربة كما يتمرغ صغار الحيوانات ؟ أليس من جهلها أن تدعه كسلان يفر من العمل ويضيع وقته الذى هو رأسماله مضطجعا أو نائما أو لاهيا مع أن سن الطفولة لا يعرف الكسل وهو سن النشاط والعمل والحركة ؟ أليس من أثر جهلها أننا جميعا مصابون بشلل فى أعصابنا حتى صرنا لا نتأثر من شىء مهما بلغ فى الحسن والقبح ؟ فاذا رأينا عملا جميلا مدحناه من طرف اللسان واذا شاهدنا فعلا قبيحا استهجناه بهز الرءوس وظاهر من القول بدون أن نشعر بانبعاث باطنى يقهرنا على الاندفاع الى الأول ولا على الابتعاد عن الثانى ؟ أليس من جهلها أن تسلك فى تأديب ولدها طريق الاخافة بالجن والعفـاريت وان تأخذ من وسائل صـيانته ووقايته من المضرات تعليق التعاويذ والطواف به حول القبور وفى زوايا الأضرحة وغير ذلك مما لا يبالى به الا الجاهلون بأصول الدين وفضائل الأعمال وله من الأثر السيىء فى أنفس الناشئين بل وفى أرواح الرجال ما يجر الى كل شر ويبعد عن كل خير ؟ » .

٣ ـ « وأما خوف الفتنة الذى نراه يطوف فى كل سطر مما يكتب فى هذه المسألة تقريبا فهو أمر يتعلق بقلوب الخائفين من الرجال وليس على النساء تقريره ولا هن مطالبات بمعرفته وعلى من يخاف الفتنة من الرجال ان يغض بصره كما أنه على من تخافها من النساء أن تغض بصرها والأوامر الواردة فى الآية الكريمة موجهة الى كل من الفريقين بغض البصر على السواء وفى هذا دلالة واضـحة على أن المرأة ليست بأولى من الرجـل بتغطية وجهها .

« عجبا لم لم يؤمر الرجال بالتبرقع وستر وجوههم عن النساء اذا خافوا الفتنة عليهن ؟ هل اعتبرت عزيمة الرجل أضعف من عزيمة المرأة ، واعتبر الرجل أضعف من المرأة عن ضبط نفسه والحكم على هواه ، واعتبرت المرأة أقوى منه فى كل ذلك حتى أبيح للرجال أن يكشفوا وجوههم لأعين النساء مهما كان لهم من الحسن والجمال ومنع النساء من كشف وجوههن لأعين الرجال منعا مطلقا خوف أن يفلت زمام هوى النفس من سلطة عقل الرجل فيسقط فى الفتنة بأية امرأة تعرضت له مهما بلغت من القبح وبشاعة الخلق ؟ » .

٤ ـ « وان سمح لى القارىء أن أبدى هنا كل ما أظنه صوابا ، أقول لا يمكننى أن أفهم ان الطـلاق يقع بكلمة مجرد التلفظ بها مهما كانت

صريحة . نعم ان الأعمال الشرعية لا تستغني عن الألفاظ ، اذ لو حللنا أي عقد لوجدناه مركبا من ظهور ارادة أو مطابقة ارادتين حصل الاستدلال عليها أو عليهما من الألفاظ التي صدرت شفاهيا أو بالكتابة ولذلك فليس الغرض الاستغناء عن الألفاظ وانما مرادنا ان اللفظ لا يجب الالتفات اليه في الأعمال الشرعية الا من جهة كونه دليلا على النية فينتج من ذلك أنه يجب أن يفهم ان الطلاق انما هو عمل يقصد به رفع قيد الزواج وهذا يفرض حتما وجود نية حقيقية عند الزواج وارادة واضحة في انه انما يريد الانفصال من زوجته لا أن يفهم كما فهمه الفقهاء وصرحوا به في كتبهم ان الطلاق هو التلفظ بحروف (ط ل ا ق) » .

قواعد المنهج في علم الاجتماع

دوركايم

١٨٩٥م

يمثل « دور كايم » نقطة تحول مهمة فى تاريخ الفكر الاجتماعى ونظرية علم الاجتماع فلقد تجنب الكثير من المشكلات التى أثارها علماء الاجتماع التطوريون فى القرن التاسع عشر ، وجعل اهتمامه منصبا على تحديد موضوع علم الاجتماع وتمييزه عن علم النفس وتحريره من الفلسفة الاجتماعية • وحاول جاهدا أن يحتفظ لعلم الاجتماع بكيانه الخاص كعلم وضعى يعتبر ضروريا وكافيا لتفسير الواقع الاجتماعى تفسيرا شاملا ، ودعم دور كايم موقفه هذا بمجموعة من الدراسات المتخصصة التى تناولت منهج علم الاجتماع وتقسيم العمل ، والانتحار ، والدين ، وبذلك كون مدرسة فكرية فى علم الاجتماع • بل ان تأثيره قد جاوز ميدان علم الاجتماع ذاته ، فانعكس على تفكير المتخصصين فى الاثنولوجيا والتاريخ وعلم النفس والقانون والاقتصاد واللغة والدين •

● خلفية تاريخية :

ولد اميل دور كايم فى ١٣ أبريل عام ١٨٥٨ فى مدينة ابينال بمقاطعة اللورين عن أسرة يهودية تتمسك بتقاليد الدين ، وقد أحب دور كايم منذ حداثته مهنة التدريس فصمم على أن يصبح مدرسا وليس رجل دين كما كانت ترغب أسرته • وقد ظل حتى الثامنة عشرة من عمره طالبا متفوقا بمدرسة ابينال ، ثم ما لبث أنه انتقل الى باريس حتى التحق بالليسيه وهى خطوة ضرورية للالتحاق بعد ذلك بمدرسة المعلمين العليا والتى كانت تمثل فى ذلك الوقت قمة اختيار الطلاب الأكاديميين فى فرنسا • وقد تمكن دور كايم من الالتحاق بها بعد أن اجتاز اختبارا تمهيديا عام ١٨٧٩ ، وكان قد بلغ من العمر ٢١ عاما ولقد كانت المدرسة مركزا هائلا للفكر فى ذلك الوقت الا أن علم الاجتماع لم يكن يحتل بعد مكانته اللائقة • والتقى دور كايم فى رحاب هذه المدرسة بزملاء له كانوا فيما بعد رواد الفلسفة والعلم ومن بين هؤلاء بيرجسون وجون جوريه وبلوندل وبيرجانيه والتون مايو • على الرغم من أن دور كايم قد عاصر كل المفكرين السابقين الا أنه لم يكن راضيا تماما عن موقفه ، فلقد أحب الفلسفة ولكنها ليست تلك التى نظر اليها بعض زملائه وأساتذته بوصفها هواية التفلسف « حول لا شىء » فهو يطالب بمعرفة فلسفية يمكن الافادة منها فى الميادين السياسية والاجتماعية • وأبدى دور كايم اعجابه الشديد بثلاثة من أساتذته هم : اميل بترو وفوستل دى كولانج ، ورجيلوس موتو ، ولقد مكنته

تلمذته على هؤلاء الأساتذة من التعرف على طرائق التفكير المنطقى فى تناول المشكلات ، ولكنه حينما بدأ مطالعاته الخاصة اكتشف أن أساتذته الحقيقيين هم أشخاص قرأ لهم ولم يلتق بهم فعلا من أمثال رينوفييه والذى كان أحد أعلام الفلسفة الأخلاقية وأوجست كونت وسان سيمون .

ولقد تميزت هذه الفترة أيضا بجو فكرى خاص - ففى عام ١٨٧٩ حينما التحق بالمدرسة كان قد مضى حوالى تسع سنوات على اعلان الجمهورية الثالثة فى فرنسا بعد أن هزمتها ألمانيا . وساد فى ذلك الوقت شعور قوى بين المفكرين بأن النظم القديمة يجب أن تستبدل بنظم أخرى جديدة نتيجة التحول الكبير الذى طرأ على فرنسا وقد أدى ذلك بدور كايم الى التفكير فى موضوعات ثلاثة : فأحس أولا أن هناك ضرورة تملى عليه التخصص فى البحث الاجتماعى بحيث يطبق مناهج العلوم الوضعية فى دراسة الشئون الانسانية وثانيا : وجد أنه يتعين عليه أن يعيد النظر فى الفلسفة المعاصرة وبخاصة فلسفة العلم وثالثا : نظر الى علم الاجتماع لا باعتباره علما مجردا ولكنه علم يصلح للتطبيق على المشاكل الاجتماعية التى تعانى منها فرنسا فى ذلك الوقت .

وبعد أن تخرج دور كايم من هذه المدرسة عمل فى سلك التدريس بالمدارس الثانوية لمدة خمس سنوات حصل خلالها على اجازة لمدة عام سافر فيها الى ألمانيا ليشهد الأرض التى عاش عليها كانط وهيجل ، كما زار ليبزج حيث أعجب فيها بفوندت كفيلسوف علمى ، وتأثر بمعمله السيكوفيزيقى .

وفى عام ١٨٨٧ دعى دور كايم لكى يشغل وظيفة مدرس لعلم الاجتماع بجامعة برودو ، ثم ما لبث أن أصبح أستاذا بها عام ١٨٩٦ .

وفى خلال هذه السنوات لم يكن التدريس هو كل ما ينشغل به ، فقد أتم رسالته للدكتوراه عن تقسيم العمل الاجتماعى ونشرها عام ١٨٩٣ .

وفى عام ١٨٩٥ نشر مقالة عن قواعد المنهج فى علم الاجتماع الذى عبر بصورة واضحة عن الاطار المنهجى والتصورى لعلم الاجتماع ثم نشر عام ١٨٩٧ دراسته عن الانتحار . وانشغل الى جانب ذلك كله بتحرير « حولية علم الاجتماع التى ظهر العدد الأول منها عام ١٨٩٨ بوصفها مجلة متخصصة تعرض مجموعة كتابات اجتماعية وفلسفية .

وفى عام ١٩٠٦ انتقل دور كايم الى جامعة السربون ليشغل كرسى التربية فيها وظل يقوم بتدريس التربية وبعض الدروس الأخرى فى الأخلاق والدين والزواج والأسرة . الى أن وافقت الجامعة عام ١٩١٣ على أن يصبح دور كايم أستاذا للتربية وعلم الاجتماع ، وهذا هو أول كرسى

له أهميته فى فرنسا يتضمن كلمة « علم الاجتماع » . وفى عام ١٩١٢ نشر دور كايم آخر أعماله وهو : « الصور الأولية للحياة الدينية » الذى قدم فيه نتائج دراساته للقبائل الاسترالية عن الدين والأخلاق والمعرفة . ولقد أصيب دور كايم بنوبة قلبية حادة عقب وفاة ابنه اندرى مما عجل بوفاته عام ١٩١٧ .

ولقد تميزت أعمال دور كايم بالتكامل المنطقى الشديد وباهتمامه بالدراسات الامبيريقية ، ولكن دور كايم تأثر بأعمال العلماء السابقين عليه وبخاصة أوجست كونت وسان سيمون وأعجب أيضا بتلك النزعة الجماعية التى عبر عنها من قبل مجموعة مفكرين فرنسيين من أمثال دى بونالد ودى ميستر حين ذهبا الى أن الجماعة الاجتماعية تسبق الوجود الفردى وتشكله وهى منبع الثقافة والقيم وان التغيرات الاجتماعية لا تتأثر بالارادة الفردية .

ولقد وجد أيضا أن كتابات سان سيمون عن ضرورة تطبيق مناهج العلوم الطبيعية فى دراسة الظواهر الاجتماعية ، والبرنامج الذى وضعه للفسيولوجيا الاجتماعية باعتبارها تبحث عن القوانين الضرورية للتطور الاجتماعى تتفق الى حد كبير مع أفكاره حول طبيعة علم الاجتماع ومنهج البحث الملائم له . والتقت هذه الأفكار مع اهتمام أوجيست كونت بالاجتماع وبالأسرة باعتبارها الوحدة الاجتماعية الحقيقية وحذفه لعلم النفس من تصنيفه للعلوم ، وأصبحت تشكل جميعا الأسس التى استندت اليها النزعة السوسيولوجية عند دور كايم . ويذهب بعض علماء الاجتماع الى أن كل هذه المؤثرات بالاضافة الى ظروف المجتمع الفرنسى فى عصره قد جعلت دور كايم يهتم بمشكلة النظام العام وطبعت نظريته بطابع محافظ ، ويظهر ذلك بوضوح منذ أعماله المبكرة حتى الصفحة الأخيرة من مقاله : مقدمة فى الأخلاق الذى كتبه باختصار قبل وفاته ..

● قواعد المنهج فى علم الاجتماع :

يعتبر كتاب قواعد المنهج فى علم الاجتماع الذى نشره دور كايم عام ١٨٩٥ أحد المؤلفات الكلاسيكية فى العلوم الاجتماعية . فقد تابع دور كايم فى هذا المؤلف التقليد الذى بدأه أوجست كونت من قبله والذى يطالب بضرورة اعتبار علم الاجتماع علما وضعيا شأنه شأن العلوم الطبيعية الأخرى . وحتى يستطيع علم الاجتماع أن يصل الى هذه الغاية يتعين أن نتعرف تماما على مناهج هذه العلوم وأن ندرك بوضوح كيفية استخدامها فى دراسة الظواهر الاجتماعية ويستند ذلك كله الى ركيزتين أساسيتين : فمن الضرورى أولا تحديد موضوع الدراسة فى علم الاجتماع

تحديدا لا يجعل هذا العلم يختلط بأية دراسة علمية أخرى ، ومن الضرورى ثانيا أن يكون هذا الموضوع من الموضوعات التى يمكن ملاحظتها وتفسيرها بنفس الطريقة التى نلاحظ ونفسر بها تلك الظواهر التى تدرسها العلوم الأخرى . وهاتان الركيزتان هما الأساس الذى قام عليه كل ما ذكره دور كايم من قضايا وأحكام وآراء منهجية فى مؤلفه قواعد المنهج . ومن هنا فان دور كايم لم يكتف بجعل هذا الكتاب مجرد مؤلف فى مناهج البحث الاجتماعى أو طرائق البرهان العلمى وانما ضمنه المبادىء الأساسية للتفسير والتحليل السوسيولوجى .

محتـــوى الكتـــاب

وهو يرى فى الفصل الأول من الكتاب ضرورة تحديد طبيعة هذه الظواهر قبل الشروع فى بيـان قواعد المنهج الذى يستخدم دراسـتها . وهذا أمر له أهميته الكبرى اذ لو لم تكن هناك ظواهر اجتماعية مستقلة عن الظواهر التى يدرسها علم النفس مثلا لما كان ثمة داع الى انشاء علم جديد يكون تكرارا لعـلم سابق . لذلك نجده يحرص هنـا على تعريف الظاهرة الاجتماعية وبيان خصائصها التى تميزها عن غيرها فهذه الظاهرة ليست هى كل شىء يحدث فى المجتمع كما ظن بعض الباحثين والا لكان النوم والأكل والشرب والتأمل بل الهذيان ظواهر اجتماعية ، فمن الضرورى اذن أن توجد طائفة معينة من الظواهر لها خواصها الذاتية التى تجعلها صالحة أن تكون موضوعا لعلم خاص .

وقد ضرب « دور كايم » أمثلة للظواهـر الاجتماعية بالواجبـات الأخلاقية التى يحددها العرف والقانون وبالعقائد والطقوس الدينية واللغة والنقود وجميع الوسائل الاقتصـادية التى يستخدمها المرء فى علاقاته التجارية والتقـاليد . فكل هذه الأمور ظواهر اجتماعية لانها موضوعية أى أن لها وجودا خاصـا خارج شعور الأفراد ، لانها ليست من صـنعه بل هو يتلقاها من المجتمع الذى نشأ فيه وليس يمكن أن يقال انها وليدة التفكير الذاتى بل الأولى القول بأنها هى التى تلون هذا التفكير لدى مختلف الأفراد بطابع متجانس الى حد كبير أو قليل حسب درجة التقدم التى وصل اليها المجتمع ويترتب على خاصية الموضوعية خاصة القهر أو الالزام ، فلما كانت الظواهر الاجتماعية ضروبا من الشعور أو السلوك التى توجد خارج ضمير الفرد فلا بد من أن تفرض نفسها على شعوره وسلوكه . والحق أن الفرد لا يشعر فى كثير من الأحيان بهذا القهر لانه يستجيب له بحسب العادة لكن سرعان ما يفطن الى سـلطان الظواهر الاجتماعية متى حاول

الخروج عليه . ويؤكد لنا « دور كايم » أن فكرة القهر لديه ليست فكرة ميتافيزيقية كفكرة المحاكاة التي حاول « تارد » تفسير الظواهر الاجتماعية بها ، وانما هي احدى خواص الظواهر الاجتماعية التي تبدو له أكثر ملاءمة لتحديد طبيعة تلك الظواهر .

ولما كانت الظواهر الاجتماعية ذات طبيعة خاصة فمن الضروري أن تختلف عن الصور التي تعكسها في ضمائر الأفراد . ومن الممكن فعلا أن نفصل أية ظاهرة اجتماعية عن مظاهرها أو تجسداتها الفردية ، فمثلا يحدد لنا علم الاحصاء عدد الزيجات والطلاق والانتحار ويعطينا رسوما بيانية تصدق في المتوسط الى حد كبير . لكنه لا يعين لنا بالدقة الأفراد الذين سيتزوجون أو ينفصلون أو ينتحرون ويرجع ذلك الى أن كل فرد له ظروفه النفسية الخاصة ، ومع هذا فان هذه التجسدات الفردية لا تخلو من عنصر اجتماعي فهي وسط بين الظواهر الاجتماعية والظواهر السيكولوجية . ومن الممكن أن ينشأ لها علم خاص هو علم النفس الاجتماعي أما الظواهر الاجتماعية بمعنى الكلمة كالعقائد والعادات والتقاليد والأخلاق الخ فهي تراث انساني يفرض نفسه على الأجيال المتعاقبة بدلا من أن يقال ان الأفراد هم الذين يخلقونه بدءا في كل عصر . وهذا يكشف لنا عن حقيقة مهمة ، وهي ان الظواهر الاجتماعية مستقلة عن الصور الفردية التي تتشكل بها عند انتشارهـا في أحد المجتمعات وبهذا كله يهدف « دوركايـم » الى معارضة تلك النظريات التي حاولت ارجاع علم الاجتماع الى أحد العلوم التي سبقته من حيث النشأة كعلم الحياة أو علم النفس وهو حريص على دحض تلك النظريات اذ لو سلم بها لما أمكنه أن يبرر مشروعية علم الاجتماع الذي بذل « كونت » كل الجهد لانشائه .

ولكن « دوركايم » يلح في تأكيد فكرته فيقول ان الظواهر الاجتماعية وان كانت نفسية بحسب طبيعتها ، فانها تختلف تماما عن الظواهر النفسية الفردية . وقد فسر هذا الاختلاف الجوهري بأن تركيب الحالات النفسية الفردية يؤدي الى مركب جديد تختلف خواصـه عن خواص العنـاصر الداخلة فيه كما تختلف خصائص الخلية الحية عن خصائص الجزئيات غير العضوية التي تتألف منها .

ومهما يكن من أمر فانه يرى أن الظواهر الاجتماعية نفسية ، ولكن من نوع فريد . وقد حاول ارجاع الظواهر الاجتماعية التي تجسدت ماديا اذا صح هذا التعبير الى حالات نفسية من ذلك النوع فالوحدات الأولية التي يتكون منها المجتمع والناحية المورفولوجية الخاصة بالأشكال المادية للمجتمع من طرق مواصلات وأشكال المنازل وطريقة توزيع السكان الخ كلها ترجع في التحليل الأخير الى ضروب من السلوك أو الشعور أو التفكير . وهكذا

ينتهي تعريف الظاهرة الاجتماعية بأنها « كل ضرب من السلوك ، ثابتا كان أم غير ثابت يمكن أن يباشر نوعـا من القهر الخارجي على الأفراد ، أو هي كل سلوك يعم في المجتمع بأسره ،وكان ذا وجود خاص مستقل عن الصور التي يتشكل بها في الحالات الفردية » .

قواعد ملاحظة الظواهر الاجتماعية

أما الفصل الثاني وهو من أهم فصول الكتاب فقد خصصه «دوركايم» لبيان القواعد الخاصة بملاحظة الظواهر الاجتماعية ، والفكرة هنا تسير في الاتجاه العام لفلسفة « أوجست كونت » الوضعية . فكما أن هذا الأخير ينادي بضرورة دراسة الظواهر الاجتماعية بطريقة علمية مجردة من كل تأثير لاهوتي أو ميتافيزيقي ، كذلك يتحدث « دوركايم » عن الآراء الوهميـة . وغير الممحصـة التي صحبت العـلوم مرحلة كبيرة في أثناء تطورها . وهو يبرر نشأة هذه الآراء عن الظواهر الطبيعية والكيمائية بأن الفرد لا يستطيع الحياة وسط الطبيعة دون أن يكون لنفسه فكرة عنها تساعده على تحديد سلوكه . وربما كان الجديد هنا انه يربط هذه الآراء الوهمية بطريقة التأمل الباطني التي سيطرت على علم النفس الى عهد قريب وكأنه يرى في ذلك دليلا جديدا على ضرورة فصل علم الاجتماع عن علم النفس بل على ضرورة تطبيق المنهج الموضوعي في علم النفس أيضا . ويعترف « دوركايم » في مقدمة كتابه ان علماء القرن العشرين قد أنشأوا علم نفس « يعتمد على تلك القاعدة الأساسية التي توجب على الباحث أن يدرس الظواهر النفسية من الخارج ، أي على أنها أشياء أفلا يجب من باب أولى أن تطبق هذه القاعدة نفسها على الظواهر الاجتماعية ؟ وذلك لأن الشعور الذي يعجز من معرفة حياته الخاصة لأشد عجزا عن معرفة هذه الظواهر » .

وبناء على هذه الملاحظات السابقة يحدد لنا دوركايم القواعد الخاصة بملاحظة الظواهر الاجتماعية : فالقاعدة الأولى هي القائلة بأنه يجب على عالم الاجتماع أن يتحرر بصفة مطردة من كل فكرة سابقة « وهذه هي قاعدة الشك عند ديكارت وفكرة التحرر من الأصنام عند « بيكون » . أما القاعدة الثانية فتتلخص في أنه من الواجب أن ينحصر موضوع البحث في طائفة خاصة من الظواهر التي سبق تعريفها ببعض الخواص الخارجية المشتركة بينها . ومن الواجب أن ينصب نفس البحث على كل الظواهر التي تتوافر فيها شروط ذلك التعريف . وهذه القاعدة خاصة بتصنيف الظواهر الاجتماعية في طوائف متجانسة كظاهرة الجريمة والأسرة والعشيرة

والعائلة الأبوية الخ ... ويقتضى ذلك تحديد المصطلحات العلمية التى تعبر تعبيرا دقيقا عن طبيعة الظواهر . « ومع وضوح هذه القاعدة فان العلماء لم يراعوها فى دراسة الظواهر الاجتماعية ... فانه يخيل الى عالم الاجتماع فى كثير من الأحيان أنه ليست ثمة فائدة فى تعريف هذه الظواهر تعريفا مبدئيا دقيقا » هذا الى أن بعض الباحثين يختار نخبة من الظواهر ويهمل طائفة كبيرة منها وهذه طريقة مبتورة ، لأن الحذف يتم هنا بناء على فكرة سابقة . أما القاعدة الثالثة فهى « من الواجب على عالم الاجتماع لدى شروعه فى دراسة طائفة من الظواهر الاجتماعية أن يبذل جهده فى ملاحظة هذه الظواهر من الناحية التى تبدو فيها مستقلة عن مظاهرها الفردية » وهذا شرط ضرورى حتى يمكن العثور على الصفات الثابتة التى تتيح لنا الكشف عن حقيقة الظواهر ، ومن ثم تسمح لنا بالكشف عن القانون الذى تخضع له .

الظواهر الاجتماعية السليمة والمعتلة

وفى الفصل الثالث من هذا الكتاب يحدد لنا « دوركايم » بعض القواعد الخاصة بالتفرقة بين الظواهر الاجتماعية السليمة والظواهر الاجتماعية المعتلة أو المرضية وهو يطلق الأولى على كل ظاهرة تعم فى المجتمعات المتحدة أو المتقاربة فى الدرجة ، ولكن بشرط أن يكون وجودها فى هذه المجتمعات فى مرحلة من مراحل تطورها . أما المرضية فهى الظواهر الشاذة التى لا ترتبط بشروط الحياة الاجتماعية . وليس من الضرورى أن تكون الظاهرة عامة حتى تكون سليمة بل هى لا تكون كذلك الا اذا ارتبطت بالشروط الأساسية للحياة الاجتماعية والا كانت من الرواسب الاجتماعية التى تستمر فى البقاء بحكم العادة وحدها . « وعندئذ لاتكون الظاهرة سليمة الا بحسب الظاهر » . كما أن بعض الظواهر التى تبدو شاذة فى نظر العامة قد لا تكون كذلك فى نظر العالم . وقد ضرب دوركايم لذلك مثالا بظاهرة الجريمة فانها وان بدت شاذة الا أنها ترتبط بشروط الحياة الاجتماعية وهى تلاحظ بصفة عامة فى معظم المجتمعات التى تنتهى فى تطورها الى نوع معين بل يمكن القول انه ما من مجتمع يخلو من الجريمة ومن ثم فهى ظاهرة سليمة فى حد ذاتها . لكن من الممكن أن تتشكل بصورة شاذة — وهذا هو ما يحدث عندما تزيد نسبة الاجرام زيادة كبيرة فهذه الزيادة هى الظاهرة الشاذة . ويعترف بعد ذلك بأن الجريمة ظاهرة بغيضة وان كانت طبيعية فى المجتمع ، وقد اتهم بعض الناس « دوركايم » بأنه يبرر الجريمة لانه يعدها ظاهرة سليمة فقال هو : « لئن صح أن يوجه الينا هذا الاعتراض فانه اعتراض صبيانى وذلك لانه

اذا كان وجود الجرائم فى كل المجتمعات ظاهرة سليمة فمن الطبيعى أيضا أن يعاقب مقترفوهـا ، ٠٠٠ فاذا أردنا محو الجريمة فلا مناص لنا فى هذه الحال من محو الفروق الفردية التى توجد بين ضمائر الأفراد » ٠

وقد استخلص دوركايم فى هذا الفصل قواعد التفرقة بين هذين النوعين من الظواهر وهى :

أولا : تعد الظواهر الاجتماعية سليمة بالنسبة الى نموذج اجتماعى معين ، وفى مرحلة معينة من مراحل تطوره اذا تحقق وجودها فى أغلب المجتمعات المتحدة معه فى النـوع واذا لوحظت هذه المجتمعات فى نفس المرحلة المماثلة فى أثناء تطورها هى الأخرى ٠

ثانيا : يمكن التحقق من صدق نتائج القاعدة السابقة ببيان أن عموم الظاهرة فى نموذج اجتماعى معين يقوم على أساس من طبيعة الشروط العامة التى تخضع لها الحياة الاجتماعية فى هذا النموذج نفسه ٠

ثالثا : وهذا التحقق ضرورة اذا وجدت هذه الظاهرة فى بعض أنواع المجتمعات التى لم تنته بعد من جميع مراحل تطورها ٠

تحديد النماذج الاجتماعية

أما الفصل الرابع فيعالج فيه فكرة تحديد النماذج الاجتماعية فى مقابل وجهة نظر المؤرخين والفلاسفة ٠ ذلك ان الأولين يرون أن كل مجتمع من المجتمعات يكون وحدة قائمة بذاتها ، وانه لا سبيل الى المقارنة بين هذه المجتمعات نظرا لأن لكل شعب سيماه الخاصة به ، أما الآخرون فهم يذهبون مذهبا متطرفا عندما يحاولون ادماج هذه المجتمعات المؤقتة فى الوجود الاجتماعى الحقيقى وهو الانسانية ٠ « ومن ثم فان المؤرخين يرون أن التاريخ ليس الا سلسلة متتابعة الحلقات من الحوادث التى لا يتكرر وجودها على نمط واحد ٠ أما الفلاسفة فيقولون انه لا قيمة ولا أهمية لهذه الحوادث نفسها الا على انها أمثلة جزئية تتمثل فيها القوانين العامة التى تخضع لها » ويريد « دوركايم » أن يتخلص من هذا التعارض بين الاتجاهين اذا سلم بوجوب مجتمعات هى وسط بين المجتمعات التاريخية وبين المجتمع الانسانى الكلى ٠

أما الفصل الخامس فهو يعدل الفصل الثانى فى أهميته وهو يبرز الفكرة الرئيسية عند « دوركايم » اذ لما كانت الظواهر الاجتماعية توجد خارج شعور الأفراد ويجب أن تدرس على أنها أشـياء طبقـا لمنهج علمى موضوعى فمن الطبيعى أن يكون تفسيرها علميا أيضا ٠ ولن يكون الأمر

كذلك الا اذا فسرت بشيء آخر سوى العوامل النفسية الفردية · ولذا نجده ينقد النظريات السابقة ويعيب رأى هؤلاء الذين يعتقدون امكان تفسير الظواهر الاجتماعية بناء على الخدمات التى تؤديها · وهذا نوع من التفسير الغائى الذى حاربه « كونت » من قبل ، ومع ذلك فقد ارتضاه عندما فسر قدرة النوع الانسانى على التقدم بأحد الميول الرئيسية التى تدفع المرء الى مستواه ، كذلك وقع « سبنسر » فى هذا الخطأ عندما فسر نشأة المجتمع ببعض المزايا التى يؤدى اليها التعاون · وليس معنى ذلك ان « دوركايم » ينكر أن تكون للظواهر الاجتماعية بعض الفوائد أو الغايات ولكنه ينكر أن يكون المجتمع قد نشأ على هذا التفكير الغائى · ويجب عدم الخلط بين الأسباب الفعالة الحقيقية التى أدت الى نشأته وبين الغايات التى ترتبت على هذه النشأة · « فمثلا اذا أرادت احدى الحكومات أن تسترد النقود الذى لا وجود لها الا به فلا يكفى أن يشعر الناس بهذه الحاجة ، بل يجب الاتجاه مباشرة نحو المصادر الوحيدة التى تنبع منها كل أنواع النفوذ ··· كذلك يجب أن يصعد المرء بعيدا فى سلسلة الأسباب والمسببات حتى يجد نقطة يستطيع أن يتدخل عندها ·· » وبالجملة ليس ثمة صلة بين السبب الذى يؤدى الى وجود الشيء وبين الغاية أو الوظيفة التى يؤديها هذا الشيء · فمثلا لم يفكر الناس فى تقسيم العمل حتى يحققوا مزاياه · لكن قسم العمل لأسباب اجتماعية ثم تبينت فائدته ، ففطن الناس الى أهمية التخصص الدقيق ، وأيا كان الأمر « فلسنا فى حاجة الى الرجوع الى المذهب الغائى ولو رجوعا جزئيا ، لأننا لا نرفض الاعتماد أحيانا على بعض الحاجات الاجتماعية فى تفسير الظواهر الاجتماعية ، ولكن هذه الحاجات لا تستطيع التأثير فى التطور الاجتماعى الا اذا كانت تخضع هى الأخرى لقانون التطور ·

واذن فالقواعد التى يجب اتباعها فى تفسير الظواهر الاجتماعية تلخص على النحو الآتى :

« يجب البحث عن السبب فى وجود احدى الظواهر الاجتماعية بين الظواهر الاجتماعية السابقة لها ، لا بين الحالات النفسية التى تمر بشعور الفرد » ويمكن اكمال هذه القاعدة بما يأتى : « يجب البحث دائما عن الوظيفة التى تؤديها الظاهرة عن طريق دراستنا للصلة التى تربط هذه الظاهرة باحدى الغايات الاجتماعية » · ولما تجاهل علماء الاجتماع هذه القاعدة غلب الطابع الشخصى على نظرياتهم مما دعا الى بعث الريبة لدى المؤرخين حيال علم الاجتماع · واذا كان « دوركايم » لا يريد تفسير الظواهر الاجتماعية بعوامل سيكولوجية فليس معنى ذلك انه يحرم على عالم الاجتماع أن يدرس الظواهر النفسية الفردية بل يرى على العكس من ذلك « ان حاجة عالم الاجتماع الى ثقافة سيكولوجية (نفسية) أكثر من

حاجة الى ثقافة بيولوجية ، ولكن لن تكون هذه الثقافة النفسية مجدية الا اذا تجاوز نطاقها وأكملها بثقافة اجتماعية بمعنى الكلمة » •

مرحلة تحقيق الفروض

أما الفصل السادس والأخير فهو خاص ببيان القواعد الخاصة باقامة البراهين أى بالمرحلة الأخيرة في المنهج العلمي تلك التى نطلق عليها اسم مرحلة تحقيق الفروض ونلاحظ أن دوركايم أغفل التعرض لمرحلة الفرض في المنهج الاجتماعي ولعله متأثر هنا بعداء « كونت » للفروض فى المرحلة الثانية من حياته العلمية • ومن المعلوم أن طرق البرهان فى المنهج العلمى هي طريقة الاتفاق وطريقة الاختلاف وطريقة التفسير النسبى وطريقة البواقى وأفضل الطرق فى نظر « دوركايم » وهي طريقة التغير النسبى التى يجب اكمالها بالطريقة التاريخية • أما طريقة البواقى فلا يمكن استخدامها فى دراسة الظواهر الاجتماعية ، اذ أنها تستخدم فقط فى العلوم التى قطعت شوطاً كبيراً في الكشف عن القوانين ، وهذا ما لم يتم بعد فى علم الاجتماع • وقد بين « دوركايم » الصعوبات التى تعترض تطبيق كل من طريقة الاتفاق وطريقة الاختلاف « ففى الواقع تقوم كل من هاتين الطريقتين على أساس الفرض الآتى : وهو أن جميع الحالات التى يقارن بينها المرء تتفق أو تختلف من جميع الجهات ما عدا جهة واحدة فقط » وهذا ليس بالأمر الأكيد فى علم الاجتماع على الأقل • أما طريقة التغيير النسبى فيكفى فيها أن نقارن بين التغيرات التى تمر بها ظاهرتان للوقوف على العلاقة السببية بينهما وهى لا توقفنا على هذه العلاقات من الخارج بل من الداخل لانها ترينا أن كلتا الظاهرتين تتأثر بالأخرى •

« وهناك سبب آخر كانت من أجله طريقة التغير النسبى أفضل الطرق ••• ففى الواقع لا يمكن استخدام الطرق الأخرى استخداماً مجدياً ••• الا بشرط أن يكون عدد الظواهر التى يقارن الباحث بينها كبيراً جداً فلئن عجز المرء عن الاهتداء الى مجتمعين يختلفان أو يتفقان فى جميع الوجوه ما عدا وجهاً واحداً فانه يستطيع أن يتحقق على الأقل من أن ظاهرتين من الظواهر توجدان معاً أو يتنافى وجودهما بصفة عامة جداً ، ومتى برهن المرء على أن ظاهرتين من الظواهر تتغيران تغيراً نسبياً فى عدد من الحالات استطاع التأكد حينئذ من أنه يوجد وجهاً لوجه مع أحد القوانين وهكذا يمكن تحديد قواعد البرهان على النحو الآتى :

لن يستطيع المرء تفسير أية ظاهرة اجتماعية معقدة بعض الشيء الا بشرط أن يتبع بملاحظته جميع مراحل التطور التى تمر بها الظاهرة

فى جميع الأنواع الاجتماعية · ويمكن اصابة هذا الهدف بأن نلاحظ المجتمعات التى نقارن بينها فى مرحلة مشتركة من مراحل تطورها · وهكذا نحكم بتقدم الظاهرة أو بتقهقرها أو ببقائها على حالها الأولى تبعا لما يعتورها من قوة أو ضعف فى أثناء وجودها فى كل مجتمع من هذه المجتمعات ··

أشعار طاغور

طـــاغـــور

١٨٩٠ - ١٩٤١م

« اننى فقدت أمى وأنا صبى صغير ولعلى كنت وقتذاك فى العاشرة أو الحادية عشرة من عمرى •• لقد صحبت أبى قبل وفاة أمى فى رحلة الى تلال « دالهوزى » عن طريق بلدة « أمرتسبار » وكانت هذه الرحلة هى تجربتى الأولى مع العالم الخارجى •• ولا يوجد شك فى أن هذه الرحلة أثرت فى كتاباتى الى حد كبير • وفى هذه الشهور الثلاثة التى لازمت أبى فيها تعلمت على يديه الانجليزية والسنسكريتية فى دروس منتظمة وقضت معه أمسيات كثيرة أدرس النجوم والفلك •• وفى رحاب الطبيعة الطلقة تذوقت طعم الحرية التى كانت خارج جدران المدرسة •• ومن أجل ذلك تركت المدرسة نهائيا عند عودتى •• ولقد كفرت عن ذلك بأن أنشأت مدرسة فى شيخوختى وأنا الآن لا أستطيع أن أتركها بل اننى أحرص على ألا يفر منها تلاميذى » •

بهذه الكلمات البسيطة أشار الشاعر الفيلسوف القصصى الموسيقى « رابندرانات طاغور » الى بداية حياته •• وكيف اكتسب عن طريق الطبيعة شخصيته وقام يصقلها ••

ان طاغور ليس مجرد شاعر أو حكيم أو فيلسوف •• انه فكرة لن يموت صاحبها فهذا الرجل عبر فى عام ١٨٨٩ عما يكنه من الاحتقار الشديد للحروب •• ومفاسد الأجانب الدخلاء حينما يتولون حكم بلد يحتلونه •• !! عبر عن كل ذلك منذ حوالى ١٠٠ عام وكانت بلاده ترزح تحت نير الاستعمار البريطانى بكل قسوته •• واذا كان كلام طاغور فى مسرحيته « الملك والملكة » قد كتب فى عام ١٨٨٩ الا أن ما يحدث الآن فى كثير من البلاد •• وما نراه من عروش تتهاوى ومن حروب انما يذكر بهذا الفيلسوف الذى عاشت فلسفته وستعيش قرونا عديدة نبراسا لمن يريد أن يهتدى ويتعلم •••

ولد طاغور فى مدينة « كلكتا » فى عام ١٨٦١ وهو أصغر اخوة سبعة من أبيه « مارشاشى رابندرانات » وكان أبوه أميرا كبيرا فانحدر بذلك طاغور من سلالة الأمراء وكانت مدينة كلكتا ــ مسقط رأسه ــ عاصمة الهند فى ذلك الوقت •

وكان طاغور من بين أسرة برهمية • وبرهما اسم الله فى اللغة السنسكريتية الهندية وهو عند البراهمة الاله الموجود بذاته لا تدركه

الحواس ويدركه العقل ، وهو مصدر الكائنات كلها لا حد له وهو الأصل الأزلي المستقل الذي يستمد العالم وجوده منه · وكانت كلمة برهما في الأزمنة القديمة تعني الصلاة التي تصحب القربان ولا يظهر أنها كانت تعني شيئا آخر ·

وقد نشأ طاغور على الديانة البرهمية ولكنه أصبح صاحب نزعة فلسفية خاصة · تأمل وهو يناجي ربه :

هذه صلاتي اليك ياربا ه ·

انزع هذا البخل من قلبي واجتثه من جذوره وامنحني القوة حتى أصبر على الاتراح والأفراح

وامنحني القوة حتى لا أحتقر الفقير أو أخضع للقوة الطاغية ·

امنحني القوة حتى أجعل حبي مقرونا بالتفاني ·

امنحني القوة حتى أسمو بروحي فوق توافه الحياة ·

امنحني القوة حتى أهيم بحبك وأبقى رهن مشيئتك ·

وهكذا يناجي طاغور ربه في ضراعة وخضوع ··· وما العالم في مظهره الغني سوى ملعب يمزح فيه المبدع الأسمى ويتلهى بالخلق والتكوين وان الله يتراءى في ابهى شيء ···· يتراءى في النور والبستان والوجه الجميل كما تتراءى قدرته في أهون مخلوقاته ·

وقد أصيب طاغور في صباه بحمى شديدة فصحبه أبوه الى مكان هادىء على شاطىء البحر فكان لهذه الفترة أثر كبير في رهافة حسه ورقة ذوقه وعمق احساسه بالجمال فتأثر بمنظر البحر الساحر والزوارق التي تتهادى على صفحة اليم في جمال وجلال والزبد المتطاير كالقطن المندوف والموج الذي يتهادى في خفوت وهمس حينا ، ويصطفق في جلبة وضجيج حيناً آخر ·

وعندما سافر طاغور الى البنغال نظم مقطعات عذبة من الشعر وطفق يناجي بلاده العزيزة من أعماق القلب وأغوار الفؤاد نجوات عذبة · وفي احدى هذه النجوات يقول طاغور : « بلادي العزيزة انك تعملين آناء الليل وأطراف النهار تكدين وتكدحين وعلى ثغرك تتلألأ ابتسامة راضية ··· والعمل يمضي بلا توقف في حقولك وفي مراعيك ومعابدك وعلى صفحة نهرك المقدس » ·

وعاش طاغور فترة من عمره في بلبور في البنغال ·

وفي عام ١٨٧٧ سافر طاغور الى انجلترا ليواصل دراسة القانون وكان محافظا على ردائه الشعبي وقد حاول أن يحصل على شهادة الميتروكليشن ولكنه لم يكن متفانيا في الدرس لانه أبساه كان دائما في ترحال وكانت أمه تتركه لدى الخدم وعن هؤلاء الخدم تلقن طاغور صورة عن المجتمع الذى كان يعيش فيه فقد سمع منهم « لم يكن نظام الملكية في تاريخ الهند نظاما يدعو الى البهجة » ·

وقد صدر لطاغور ديوانه الشعرى الأول عام ١٨٧٧ وهو فى الخامسة عشرة وكتب في ذلك الوقت طائفة من المقالات التى أشار فيها الى ضرورة امتزاج الحضارة الأوربية بحضارة الشرق ·

وتزوج طاغور وهو فى الثانية والعشرين ولكن زوجته لم تلبث أن توفيت في عام ١٩٠٢ · وأول انتاجه المشهور جمع فى مجلد باسم « جيتانجالى » أو قربان الأغانى واتجه الشاعر بعد شعره الليريكى أو الغنائى الى المذهب الرمزى فى التأليف من عام ١٩٠٥ الى عام ١٩١٩ ·

و « جيتانجالى » مختارات من أشعاره الأولى المتفرقة فى عدة كتب · وعن أعماله الأدبية الى سن الستين — وفى مقدمتها هذا الديوان الضخم الذى ترجمه هو الى الانجليزية — استحق الشاعر جائزة « نوبل » فى الأدب عام ١٩١٣ ·

وفى عام ١٩١٩ أعلن رفضه لقب « سير » الفخرى من ملك انجلترا عندما منحه هذا اللقب احتجاجا على سياسة انجلترا الظالمة فى الهند ·

وجدير بالذكر أن طاغور طاف بكثير من بلاد العالم فزار الولايات المتحدة وانجلترا وألمانيا وايطاليا والنمسا وتشيكوسلوفاكيا ويوغوسلافيا والسويد والدانمارك والصين واليونان وايران وكان يقابل فى هذه البلاد كلها بترحاب شديد وحفاوة بالغة وقد ألقى فى أثناء زيارته لانجلترا عدة محاضرات فى جامعة « أكسفورد » فى علم الفلسفة المقارن وكان موضوع محاضراته « ديانات الانسان » وعندما زار روسيا ألف كتابه المشهور « رسائل من روسيا » ·

وعندما صدر لطاغور كتاب « البستانى » نشرت الديلى نيوز مقالات قرظت فية الكتاب جاء فيه « ان أشعار البستانى تفوق حتى الأحسن والأفضل من قرابين الأغانى رقة وابداعا » ·

وقالت جريدة (الأوبزيرفر) : (هذا الشاعر يتناول الهنات المألوفة فى أمور الناس ، ويصوغها دررا متألقة فى السماء بجلال الحب والحياة) ·

واستطاع طاغور فى كتاب (السادهانا) أن يلم بأهم قضايا الفكر البشرى الماما يدل على عمق دراسته وطول باعه · وطفق يناقش فى هذا

الكتاب مسائل الخير والجمال ، كما أخذ يبصر الانسان بمعنى الألم · ويرشده الى مكانه الحقيقي في الكون واللانهاية ، ويدعوه الى تحقيق ذاته في الحياة وفي الحب وفي الفن · وفي ذلك يقول طاغور : (ان أقيم درس يمكن أن يستفيده الانسان من الحياة هو انه لا يوجد هناك ألم في الوجود · وفي مقدور الانسان أن يتخلص منه ، وينأى عنه ، ويحيله في نفسه الى سعادة ومسرة ، وبهجة وأنس ·· ان ما يؤهل الانسان لكي يكون انسانا ـ وهذا شيء طبيعي في حقوقه ـ هو أن يكابد الشعور بالألم) ·

ويشير طاغور في (السادهانا) الى ضرورة تقبل الحياة على علاتها ، كما أن الكمال لا يمكن أن يتحقق في الوجود ، انما هناك نقص يشيع في الحياة ·· وهذا النقص يشيع في الحياة ·· وهذا النقص يتراءى في منازع الحياة المختلفة ، ولا مندوحة عنه ولا مفر منه ·

وعلينا أن نتقبل الحياة بما فيها من وجوه النقص دون سخط أو تبرم ، ودون ضيق أو انزعاج ونقنع أنفسنا بأن الحياة لا يمكن الا أن تكون ناقصة ، وان تاريخ العلوم هو تاريخ الأخطاء التي وقع فيها الجنس البشري في مختلف العصور · ولا يمكن أن يسمى العلم علما الا اذا واجه النقص والخطأ والخطل والخلل ، ولكن الشر في الحياة مآله الى الزوال ، كما أن الخطأ مآله الى الاصلاح ··· ومهمة الحياة سعى في سبيل الاصلاح واتقاء الأخطاء ، وتقويم الشرور · وعلينا أن نقبل تجارب الحياة بنفس راضية مرضية حتى نصل الى الخير ، وندرك كنه الحياة الذي يغيب عنا ·

وحياة الانسان تختلف عن حياة الحيوان في السمو والرفعة والاستعلاء عن الغرائز البهيمية ··· لان الحيوان لا يدرك نفسه الا عن طريق اشباع الشهوات أما الانسان فلابد أن يتمسك بأهداب التضحية والايثار حتى يكون أسمى من الحيوان وحتى يحقق حياة أفضل وعيشة أسمى ·

وقد أشار طاغور في «السادهانا» الى قول الفيلسوف «يوبانيشاد» ان الكائنات جميعا انما خلقها ابتهاج الله وسروره الذي لا يحد ولا يفنى ولكي نفهم ان فكرة الخليقة انما هي سرور الله بالكائنات يجب أن نبدأ فهمنا بتقسيم الكائنات الى كائنات جميلة وكائنات مفتقرة الى الجمال ، وينبع فهم الجمال من صدمة عنيفة توقظ وجداننا من سباته الأزلي ويدرك فهمنا للجمال أغراضه من الاغراق في التفريق بين ما هو جميل من الكائنات وما ليس منها على شيء من الجمال ··· لهذا كان ادراكنا البدائي يخضع لما يكسو الحياة من ألوان بهية مبهجة تاخذنا بزهوها وبهجتها ·

على أن هذا ليس الا ادراكا مبتسرا للجمال اذ كلما نضج فهمنا للجمال كنا أكثر بعدا عن تأثير المظاهر التي تشعها الحياة على مداركنا وتحول ما فى الكائنات من شذوذ متنافر مع أحاسيسنا الى نغم متوافق رخيم ومنظوم وادراك الجمال وفهمه لا يمكن أن يأتى دفعة واحدة فالنفوس تعانى الأمور حتى تفهمها ٠٠٠ لذلك كان علينا أولا أن نمارس نقد الجمال بما يحوطه من شعث ، ثم نعزله بعيدا لفهم ما به من خصائص وطبائع وبعد هذه المعاناة نستطيع أن ندرك الجمال ونتبينه فى سهولة مهما التوت عليه السبل فأنغامه المنظومة لابد أن تجلى احساسنا فندركها ولو اختلطت بنغم شاذ مضطرب فالجمال الذى يثير عواطفنا ليس فى حاجة الى مظهر ، فما كانت الموسيقا لتثيرنا بما يدخل عليها من جلبة وصياح أو صوت جهير ، فالموسيقا تأبى الشدة والعنف وتهوى الى قلوبنا بحقيقة لا ريب فيها وهى أن السكون والجمال والوداعة جميعا سترث الأرض بعد حين ٠

وقد وهب الله طاغور صوتا عذبا مؤتلفا ، فكان يؤلف الأغانى ويلحنها لنفسه ويترنم بها بين أحبابه وأصدقائه وقد قال مخاطبا ربه : « لا أدرى كيف تنشد يا مولاى ٠ إنى أنصت فى ذهول صامت ٠ ان صوت موسيقاك ينير العالم ٠ أنفاس حياة موسيقاك تجرى من سماء الى سماء ٠ ان قلبى يتوق الى الاتصال بغنائك ولكنه عبثا ما يبحث مناضلا عن صوت ٠ ان مجرى موسيقاك المقدس يجتاز كل العقبات الصخرية ويندفع الى الأمام ٠ أنى أود الكلام ولكن الكلام لا يصير أغنية فأصبح مغلوبا على أمرى لقد جعلت قلبى أسيرا فى الشرك اللانهائى لموسيقاك يامولاى » ٠

وقد امتزج طاغور فى فلسفته بالكون حتى صار جزءا منه وفى ذلك يقول : « لقد قبلت هذه الدنيا بعينى وأعضائى لقد طويتها فى قلبى طيات لا عد لها لقد غمرت نهرها ولياليها بالأفكار حتى صارت حياتى والعالم جزءا واحدا وأنا أحب حياتى لانى أحب ضوء السماء المنسوج فى » ٠

وديوان طاغور « قطف الثمار » من أروع ما كتب هذا الشاعر العظيم لما يضمه هذا الديوان من معان صوفية رائعة ومن خيال محلق جميل ومن صلوات خاشعة الى الله تعالى وفيه يقول : « مرنى فأقطف ثمارى وأحملها الى فنائك فى سلال ملأى ولو أن بعضها فقد والبعض لم ينضج بعد ٠٠٠ فالموسم يبدو مريعا بفيضها ، وهنا ناى الراعى الحزين تحت الفىء » ٠

« مرنى فأبحر على النهر ان رياح مارس المتناوحة تداعب الأمواج الفاترة فينبعث منها أنين لقد آتت الحديقة أكلها وفى الأمسيات الكليلة يبلغنى نداؤك صادرا من قلب دارك ٠٠٠ من لدن الشاطىء المنغمر فى الغروب ٠٠٠ » ٠

« في ريق الشباب كانت حياتي كزهرة ··· زهرة نزلت عن ورقة أو ورقتين من ترائها حين أقبلت أنفاس الربيع تدلف لدى بابها تستجدى ثم لم تستشعر فقدها والآن حين أوشكت نضرة الشباب أن تذوى أصبحت حياتي كثمرة ··· ثمرة لا تجد ما تضن به وهى تنتظر لتلهب نفسها كاملة وما تنضم عليه من حلاوة » ·

وفي موضع آخر يقف طاغور مخاطبا ربه الأعلى : « ان لغتك سهلة يا الهى وهى على نقيض لغة الذين يتحدثون عنك اننى أعى حديث كواكبك وصمت أشجارك وأنا واثق بأن قلبى سيتفتح كالزهرة وأن حياتي أترعت نفسها من ينبوع خفى ··· وأغانيك كأنها طيور الجهات الثلجية النائية نرف وتريد أن تبنى أعشاشها فى قلبى لتستشعر دفء أبريل وأنا أرقب بهجة هذا الفصل فى رضا » ·

ويلتفت طاغور الى الليل الساجي الذى يهبط من حوله وينشر أرديته السوداء على الأحياء والأشياء ويقول : « اجعلنى شاعرك أيها الليل ! أيها الليل المقنع ان ناسا كثيرين قضوا فى ظلامك أجيالا صامتين فدعنى أرتل أغانيهم · خذنى على عربتك وانطلق فى غير جلبة من دنيا الى دنيا ··· أنت يامليكا فى قصر الزمان أنت أيها الجمال المظلم » ·

وقال فى الليل كذلك : « الليل سياج وهجعتك فى سكون حياتي عميقة فاستيقظى يا آلام الحب لأننى لا أعرف كيف أفتح الباب ··· ان الزمان سيأتى والكواكب ترقب والرياح نائمة ولكن هذا الصمت ثقيل على قلبى فاستيقظ أيها الحب لتستيقظ وأترع كأسى الفارغة وأزح الليل بأنفاسك الغنائية » ·

وقد ربط طاغور فى فلسفته بين مناحى الجمال · فالجمال فى نظره وحدة متماسكة لا انفصام لها سواء أكان جمال الطبيعة أم جمال المرأة ··· فهو ينبع من معين واحد ماؤه الرغبة الصادقة فى معرفة الحقيقة والتطلع الى المعرفة وكشف الأستار ورفع الحجب ·

والحب عنده أشبه بالثمرة الجميلة ··· حتى اذا ما أتت النحلة ونفثت فيها لقاحها وبدأت ثمارها فى النضج نفضت الزهرة عن نفسها هذه الغلائل الحسان التى توشيها وأصبحت فى شغل عن كل شىء لانضاج الثمرة ·

وقد كتب طاغور كتابا لمعالجة شئون البيت والأسرة سماه « البيت والعالم » والكتاب رواية يتقاسم بطولتها « نيكهل » الزوج و « بيمالا » الزوجة ويتضح من سلوك الزوجة أنها امرأة كريمة تحرص حرصا شديدا على سعادة زوجها وتعمل على راحته وهناءته وتقدس الحياة الزوجية

تقديسا يوشك أن يكون عبادة ولعل طاغور يرمي في هذا الكتاب الى الاشارة الى حياته نفسه مع زوجه واخلاصها له ٠

ويؤخذ من هذا الكتاب أن طاغور يحبذ مساندة المرأة للرجل ولا مانع عنده من مؤازرتها له في العمل ولكنه يؤكد ضرورة ايمان المرأة بمعنى الزوجية فتصبح ديانة لها كما يصبح زوجها موضع اجلالها وتقديسها ٠

وهو يرى أن سعادة الزوج لا تتحقق الا مع زوجة حرة تثق في نفسها وتعتز بشخصيتها وتحافظ على كيانها ٠

أما تصوف طاغور فلم يكن زهدا أو تشاؤما أو انصرافا عن الحياة وعما فيها من متع وجمال ٠٠٠ انما كان فناء في مجالي الكون ٠ وفي ذلك يقول : « لن أكون ناسكا يا رفيقي ، ولتذهب بك الظنون ٠٠٠ لن أكون ناسكا اذا هي لم تشاركني هذا النسك راضية ، لن أكون ناسكا اذا لم أوفق الى ركن ورفيق يشاركني نسكي ٠٠٠ هذا ما انتهيت اليه أخيرا فلن أهجر داري ولن أترك مرقدي لأمضي الى عزلة الغابة ووحدتها ما لم تملأ الغابة ضحكات الأمل السعيدة وليهفهف رداؤها الاقحواني فوق عزلتي وليحضرني همسها في نسكي لتزداد الغابة سكونا وصمتا ! » ٠

فالتصوف في شعر طاغور عمل روحي وجهد نفسي ، هو معرفة الله وادراك الحق وشمول الروح واتساعها لمعاني الحياة كلها ٠ وتصوفه تدبر ونظر في مذاهب الهند الصوفية المتطرفة وهو في الواقع تصوف في مطالب الروح ورغباتها وانعكاس من النفس لمعالجة مشكلاتها الروحية والاجتماعية من طريق اللين واليسر وادراك الحقيقة ٠

وقد هيأ له ذلك « البصيرة الباطنة » التي وشت شعره بغلالة رائقة من الجلال والجمال فهو يقول في احدى مقطعاته : « اللهم أرهف مشاعري وامزجها بعالمك هذا تحية لك واجلالا كغيم تمور المحمل بالأمطار وسحائبه المثقلة بالماء ٠ أخفض لك هامتي تحية واجلالا حتى تأتلف كل نغمات حبي لحنا واحدا يتلاشى في الصمت الرهيب تحية واجلالا ٠٠٠ كسرب من الحمائم ألح عليه الشوق ويرح به الحنين فآب الى وكناته الجبلية ولم تذق عينه طعم الكرى ، لأرحل بحياتي الى مقرها الأبدي تحية لك واجلالا » ٠

وقد مزج طاغور غزله بتلك الناحية الصوفية الصادقة ووشاه بهذه الغلائل الرقيقة من سبحات الروح وشطحات الخيال فقال : « يا حياة حياتي ! سأعمل دائما أبدا في صيانة جسمي نقيا لان أطرافك الجميلة تلامس كل عضو من أعضائي ٠٠٠ سأعمل دائما أبدا في اقصاء فكري عن الضلال لانك الحق الذي أجج نيران العلم في عقلي سأعمل أبدا في دفع كل خبث عن فؤادي وكل تصنوح يسري في زهر غرامي ، لان مثواك

فى أغوار قلبى ··· وحين يغيب عنى محياك يفقد قلبى الهدوء والراحة ويصبح عملى نصبا متواصلا فى بحر رحيب · واليوم أشرق الصيف على نافذتى بهمزة ولمزة وتسارعت النحلات يغازلن أزاهير الرياض ··· هى الساعة المواتية دعنى أجلس فى هدوء خيالك وجها لوجه دعنى أغنى فى غمرة هذا السكون الرهيب ! » ·

وهكذا يكون غزل طاغور شعرا روحانيا يرفعنا فوق آليات الحياة وينأى عن الشهوة العارمة والرغبة الجامحة · وقد أسس طاغور مدرسة « سانتيكيتان » آى دار السلام ، فالله هو السلام التام والصلاح التام ··· وهو الفريد الوحيد وهو سلوة النفس وفرحة القلب وسلامة الروح · والماء ليس فى رأيه هو ذلك الشىء الذى ينظف الجسد فحسب ولكنه يطهر القلب لانه يمس الروح ، والأرض ليست ذلك الشىء الذى يمسك الجسم فحسب ولكنه شىء يسر الخاطر وصلتها بنا فوق الصلة الجسمية لانها كائن حى ·

وساهم طاغور الى جانب جهوده فى ميدان التصوف والأدب بجهود أخرى فى ميدان العلم فالف كتابا عن « العالم الواسع » باللغة البنغالية نقلته الى الانجليزية السيدة « أندودت » ويبهرنا طاغور فى هذا الكتاب بمعرفته العلمية الواسعة ومن ذلك قوله :

« ان قطر الشمس ٨٦٤ر٠٠٠ ميل ولو اجتمعت مائة وعشر من الأرض ووقفت كل واحدة الى جانب الأخرى فى خط مستقيم لبلغ مجموع عرض هذه الأرضين مقدار عرض الشمس وحدها من طرفيها · والشمس اذا وزنت تبلغ ضعف وزن الأرض ٣٣٠ ألف مرة وهى لذلك تستطيع أن تبدى جذبا مغناطيسيا يتعادل وذلك المقياس · والشمس تربط الأرض الى مدارها بالضغط المغناطيسى ولكن الأرض بفضل ما أوتيت من سرعة من حركتها الدائرة على أن تحتفظ بمسافة ابتعادها عن الشمس » ·

والكتاب يضم الى جانب هذه الحقائق العلمية الطريفة حقائق أخرى تزيد من اعجابنا بهذا الشاعر المتصوف الذى أخذ من كل شىء بطرف · ولو أن عالما متخصصا قال هذا لما وجدنا فيه شيئا من العجب ولكن أن يقوله شاعر تبلغ تمثيلياته الشعرية فى لغته الأصلية نحو ١٥٠ ألف بيت وتبلغ مقالاته الفلسفية ورواياته وقصصه القصيرة ومقالاته فى النقد والتراجم الذاتية قدرا كبيرا وتبلغ أغانيه التى أعدت للغناء ويستمع اليها الآن أكثر من ١٥٠٠ أغنية فهذا هو العجب العجاب !

وقد منحته جامعة اكسفورد الدكتوراه الفخرية فى الأدب عام ١٩٤٠ وفى عام ١٩٤١ انتابه المرض وقامت الهند كلها تصلى وتدعو له بالشفاء

ولكن وطأة المرض ازدادت عليه ولم يلبث أن فاضت روحه الى بارئها بعد أن ظل في غيبوبة كاملة طيلة يومين وبعد أن ترنم بلحن الوداع :

« أنا راحل فزودوني بالوداع يا اخواني . اني أنحني اليكم محييا وأنصرف ... الآن أرد مفاتيح بابي وكل حقوقي في داري اني أسألكم فقط كلمات شفيقة أخيرة لقد كنا جيرانا طويلا ولكني أخذت أكثر مما قدرت أن أعطيه ... قد ذر الآن فجر النهار وخمد المصباح الذي أنار ركني المظلم . جاءت الدعوة وأنا على أهبة الرحيل » .

وقد توفي طاغور في ٧ من أغسطس عام ١٩٤١ وهو في الواحدة والثمانين وقد نثرت على جثته الأزهار والعطور ، ثم أحرقت بين مظاهر الحزن والأسى وأشعل حفيده النار فيها ثم ووري هذا الرماد التراب في زجاجة صغيرة في « سانتيكيتان » .

روح الانسانية عند طاغور

العقيدة الدينية التي يدين بها رابندرانات طاغور هي — كما أسماها هو — عقيدة شاعر لم يأخذها من كتاب ولم يسمعها من رسول لكنه استلهم فيها وجدانه واستوحى خبرته الواعية وخلاصتها أن « الانسان الأزلي » هو نفسه الله الذي حقت على أفراد الناس عبادته والمقصود بالانسان الأزلي هو فكرة الانسانية التي تمثلت في هذا وذاك من الأفراد ، فهؤلاء الأفراد فانون والانسانية باقية وهؤلاء الأفراد حادثون يحيون حينا ثم يطويهم الموت . والانسانية أزلية منذ القدم لا أول لها في الزمان ولا آخر وهؤلاء الأفراد يختلفون ويتقاتلون ويتحاسدون ويتناحرون والانسان الأزلي الأبدي واحد لا كثرة فيه ولا تباين وهؤلاء الأفراد تدفعهم شهواتهم هنا وتجذبهم غرائزهم الدنيا هناك أما الانسان الخالد فلا شهوة فيه ولا غريزة انما هو مستقر هادىء ساكن عاقل حكيم فماذا يدعو الأفراد الى اخاء أكثر من أن يعلموا أنهم جميعا — على اختلافاتهم الظاهرة — ملتقون هناك عند الأب الكبير وحدة واحدة لا تشقق فيها ولا تمزق ؟ .

والفرق بين الفرد المتغير والانسان الخالد الباقي هو نفسه الفرق بين النفس والروح فالأولى هو السطح المضطرب والثانية هي الأعماق الصامدة والأولى هي مجال الاختلاف والكثرة والثانية هي مركز الالتقاء والوحدة ولطالما تبزغ الروح من أعماقها فتوجه هذا الفرد أو ذاك توجيها يناقض التوافه التي تمليها عليه نوازع حياته اليومية ويقلب خطط رغباته الأنانية رأسا على عقب فاذا هو يعمل لصالح المجموع لا لصالح نفسه واذا

هو ينطق بلسان الكل ويعبر عن روح الكل ولا ينطق بلسان نفسه ولا يعبر عن ذات نفسه وها هنا قد يتساءل هو ويتساءل الناس معه : أنى له هذه القوة الدافعة التي لا يقوى على صدها والتي يضطر الى خدمتها بغض النظر عن صوالحه هو العاجلة حتى ليموت مضحيا بحياته الفردية كلها هي وترضى ؟ انها هي الروح الكلية الخالدة التي ما جئنا أفرادا الا لتحقيق أهدافها وعندئذ لا يكون فرق بين فرد وفرد وتنمحي الفوارق الجنسية واللونية جميعا ونصبح جميعا جنودا مجندة مجندة لها تدعو من تشاء لحمل رسالتها ــ رسالة الحق والخير والجمال ــ فيحملها راضيا أو مكرها لا ابتغاء مرضاة نفسه بل استجابة لنداء ما يستحيل رد ندائها : روح الانسانية جميعا ٠

كانت الخطوة الأولى نحو أن تنكشف هذه الحقيقة لطاغور هي شعور الألفة بينه وبين الطبيعة ٠ وهو لا يعني بالطبيعة هنا تلك الطبيعة التي نتصل بها عن طريق أبداننا اتصالا نستمد منه معارفنا عن هذه الظاهرة من ظواهرها أو تلك بل يعنى بالطبيعة جوانبها التي تحقق ذواتنا وتخصب حياتنا وتحرك خيالنا بما فيها من صور وألوان وأصوات وحركات جاءت كلها متناغمة متجاوبة في نشيد واحد ٠ كلا انها ليست الطبيعة التي نجردها في رموز رياضية ليعالجها العلم في صيغ ومعادلات حتى تختفي الطبيعة في لبها وصميمها وراء ما تقدمه للعلم من شواهد على وجودها وعلى حقيقتها بل الطبيعة المقصودة هنا هي التي تمس الانسان صميمها بصميمه وروحها بروحه فيكون جزءا منها وتكون جزءا منه ٠

لا ٠ بل اننا لنتخذ من العلم ذاته شاهدا على صدق ما نقوله من أن وراء أنفس الأفراد روحا انسانية شاملة وذلك ان رجال العلم ينبئوننا بأن معيار علمهم هو « الحق » والحق يختلف عن الخير وعن الجمال في أن هذين يتوقفان على ميل ذاتي عند الانسان فالخير خير لان الانسان يراه خيرا وكان يمكن ألا يراه كذلك والجمال جمال لان الانسان يراه جمالا وكان يمكن ألا يراه كذلك ، وأما الحق فهو حق لأن الانسان مرغم على قبوله ولا دخل لاهوائه فيه فبينما الخير والجمال تابعان من داخل الانسان ترى الحق يفرض نفسه عليه فرضا لا حيلة له فيه وتسأل رجال العلم قائلا : وكيف نتصور الحق مستقلا عن العقل الانساني ؟ فيجيبونك بأن هذه حقيقة قد تثير العجب وتستعصى على التعليل ولكن هكذا أمرها على كل حال ٠٠٠ وهنا يتوجه اليهم شاعرنا طاغور بهذا السؤال : أفلا يجوز أن يكون « الحق » الذي هو مستقل عن عقول الأفراد ومفروض عليها من خارجها فرضا أقول أفلا يجوز أن يكون هذا الحق حقا لأنه صادر عن العقل الكلي العام الذي يشتمل على عقول الأفراد كما يشتمل الأصل على فروعه ؟ لاننا اذا قلنا ان الحق ــ كما تراه عقولنا ــ قائم خارج الانسانية كلها

فانما ننقض العلم بقولنا هذا ، لأن العلم لا يسلك فى مدركاته وتصوراته العقلية الا تلك الحقائق التى هى فى مستطاع الناس أن يعلموها ويفهموها وما المنطق الا أداة التفكير كما اصطنعها الانسان لنفسه • واذن فلا مناص لنا من ربط الصلة بين « الحق » وبين العقل ربطا يجعل الأول معتمدا على الثانى وليس مستقلا عنه فان رأيناه غير معتمد على عقول الأفراد حكمنا باعتماده على عقل كلى عام •

ان ظهور الانسانية الواحدة العامة مشتتة فى أفرادها لا ينفى وحدانيتها وتكثر العقول فى بنى الانسان لا ينفى وجود العقل الكلى العام فليس ما يثير فينا العجب هو أن نقول ان الأجزاء تترابط فى وحدة تضمها ، بل كان العجب ليأخذ بألبابنا اذا وجدنا الأجزاء مفككة فرادى لا تجد الرباط الذى يوحدها فالصلات الرابطة هى من الحقائق الأساسية فى عالم الظواهر الذى نعيش فيه بحواسنا وأجسادنا وأجدر بها أن تكون كذلك من الحقائق الأساسية فى عالم العقل والروح خذ — مثلا — قطعة من الفحم تجد لها خصائصها المميزة المعروفة لنا من حيث هى قطعة من فحم ونستخدمها على هذا الأساس فنحقق باستخدامها ما نريد من أغراض لكن حلل قطعة الفحم هذه الى مقوماتها الأولية تنقلب لك عددا كبيرا من الكترونات وبروتونات وبذلك تختفى قطعة الفحم التى عهدناها ذات خصائص معينة محددة أفيكون لنا من مناص سوى أن نقول ان هذه الوحدات الأولية الكثيرة انما تستمد حقيقتها لا من حيث هى قائمة مفككة فرادى بل من حيث هى متصلة مترابطة فى قطعة الفحم أو فى غيرها من أشياء هذا العالم وما الخلق الا اندراج الوحدة البسيطة فى الكل المركب وكذلك قل فى العالم الروحانى الذى يتحقق بانكار الذوات المقررة وطيها تحت الذات الواحدة الشاملة وان يكن هنا الأمر أعصر منه فى الأشياء الطبيعية لأن الوحدات المفردة فى حالة الانسان — على خلاف ما نراه فى وحدات الأشياء الطبيعية — ذات ذكاء وذات ارادة قد يعصيان على عملية التوحيد ولابد لهما من رياضة وتدريب حتى ينصاعا الى الروح فتنطوى الأفراد فى أصلها العام •

لقد جاء فى آية من « اليوبانشاد » ان وحدة عليا تضم هذا العالم بكل ما فيه من حركة فيستحيل على الانسان أن يبلغ سعادته الكبرى اذا هو اقتصر على اشباع شهواته الجشعة انما طريق النشوة الحق فى تجرد الانسان عن نفسه المفردة ايفنى فى الروح الخالدة هذا الروح الأسمى الذى تتحد به أنفسنا الفردية فتفنى فى غمرته ليس عقلا صرفا بل هو كذلك خيال وهو حب وهو حكمة فاذا أحببته أحببت كل الكائنات وطعمت لذة التضحية فى سبيل من تحب ، وبهذا يصبح غاية الحياة التى لا غاية وراءها هى فناء الفرد فى سبيل المجموع •

الانســان الأســمى

ان للانسان من وجهة نظر طاغور ثلاث حيوات فى حياة • ولكل من الحيوات الثلاث عللها التى تسقمها ولكل منها كذلك علاجها الذى يشفيها• أما الحياة الأولى فحياة الجسد التى لا تكون على أتمها الا اذا اتسق هذا الجسد مع سائر أجساد الدنيا الطبيعية المحيطة به فالعين يقابلها الضوء والأذن يقابلها الصوت والمعدة يقابلها الطعام وهكذا • فجانب أو جوانب من الجسم الانسانى يتصل بجانب أو جوانب من الطبيعة الخارجية فان جاءت الصلة بينهما ميسرة فخير والا كان الجسم معلولا يريد البرء من علته لتستقيم صلاته ببيئته مرة أخرى • وأما الحياة الثانية فحياة العقل فثمة معقولات كقوانين العلم مثلا ويراد لعقل الانسان فهمها وقبولها فان فعل كانت حياته العقلية سوية سليمة والا فالانسان عندئذ يوصف بالبلادة والغباء والجهل • وأما الحياة الثالثة فحياة الروح التى تتنـاول علاقة الشخصية الفردية بالشخصية الانسانية العامة فالى أى حد تتسق نوازع الواحد وعواطفه وأهدافه مع نوازع الانسانية وعواطفها وأهدافها ؟ اللهم ان كان الجانبان على اتفاق فحياة الروح عندئذ تكون معافاة سليمة وأما ان كانا على تباين واختلاف فحياة الروح اذن مصابة عليلة تحتاج الى التطبيب والمعالجة لتشفى ••• وفى هذه الحيوات الثلاث جميعا نستطيع أن نتبين العلاقة بين الفرد الواحد والكل الذى يحتويه ونستطيع نتيجة لذلك أن نتبين معنى الحرية فى وجوهها المختلفة فحرية الجسم مرهونة بعلاقته بالطبيعة المادية وحرية العقل مرهونة بعلاقته بعالم المعقولات وأما حرية الروح فمرهونة بعلاقتها بعالم الروح •

وفى الحديث عن حرية الروح لابد لنا من التفرقة بين « النفس » و « الروح » ، فالنفس هى المنوط بها مناشط الانسان الخاصة بطبيعته الفردية المحدودة وأما الروح فهى التى نتجاوز بها حدودنا الفردية لنواجه الحقيقة الكلية أعنى « الانسان الأسمى » • ولئن كانت « النفس » تجد سعادتها فى تقرير الفرد لذاته بغض النظر عما عداه وعمن عداه فان سعادة « الروح » هى فى انكار تلك الذات الفردية من أجل تحقيق ذات أسمى وأشمل على أن انكار الذات الفردية هنا لا يعنى — من وجهة نظر طاغور — سحقها ووأدها بل يعنى توجيهها نحو تحقيق ما يراد تحقيقه وهو أن يلتمس الفرد طريقه الى الاتحاد مع المثل الأعلى الذى يضم فى ذاته ضروب الكمال كلها أى أن يسعى الفرد نحو حياة توفق بينه وبين الانسان اللامتناهى الخالد فمن وجد ذاته محققة فى « الكل » تكشف له الله الحق

الذى كان خبيئا فى نفسه عندما كان معزولا فى فردية يباعد بينه وبين الآخرين •

وفى عالم الفن خير مثال نسوقه للحرية التى تستشعرها النفس اذا ما تحررت من فرديتها الضيقة فانظر الى النشوة الفرحى التى تملؤك اذا ما نظرت الى شيء ما من حيث يخدم غرضا من أغراضك بل من أجل ذاته فعندئذ لا يقيدك الصالح الفردى الشخصى الضيق بل تنفك عنك هذه القيود وتحس أنك قد علوت عن ذاتك ونظرت نظرة تنفذ الى حقيقة الأشياء فى ذواتها • تلك هى النظرة الفنية للأشياء وللعالم وكذلك هى النظرة الروحية • ففى النظرة الروحية تحلل « الروح » من أغلال « النفس » أو الذات الفردية وتصبح قادرة على التمتع بالأشياء تمتعا لا شأن له أبدا بتحقيق مصالح اللحظة الراهنة والظروف العابرة بل هو تمتع منزه من الغرض ولذلك فهو نفسه التمتع الذى يصاحب الابداع الفنى كما يصاحب النظرة الفنية الى هذا الابداع •

هذه الدعوة التصوفية الى عقيدة تحطم حدود الفرد لتؤمن «بالانسان» الواحد المشترك ربما بدت غريبة لمن ألفوا الى الأمور نظرة واقعية علمية ولهذا أراد طاغور أن يطمئن هؤلاء أنه بهذه الدعوة لم يبعد كثيرا عما يفعله العلم ذاته وليس من شطط القول أن يوصف العلم بأنه تصوف فى عالم المعرفة المنصبة على الطبيعة المادية فما معنى ذلك ؟ معناه ان العلم يجاوز بنا حدود الظواهر البادية للحس ليصل بنا الى حقائق الأشياء من باطن ، وهى حقائق تتخذ صور المبادىء العامة والتجريدات التى لا هى مشخصة ولا متعينة • فهو اذن يحرر عقل الانسان من عبودية الحواس حتى ينطلق فى عالم من الحرية العقلية •

طاغور المربى

قل من الأفذاذ من يتسع نبوغه الى مثل الآفاق التى تغلغل فيها طاغور فهو فيلسوف متعمق • وفنان خلاق • أنارت آراؤه الطريق للملايين فى الهند حتى وصفه غاندى بأنه حارس الهند العظيم ونفذ فكره الثاقب فى كثير من نواحى الحياة ومجد الطبيعة والانسان والانسانية حتى استحق عن دراساته ومؤلفاته جائزة نوبل سنة ١٩١٣ وترجم كثير من كتبه وأشعاره الى عدد كبير من لغات العالم وترنم بأغانيه وموسيقاه الكثير من الناس وشهدت صوره وفنه البلاد المختلفة حيث أقيمت فيها المعارض لهذا الفن الرفيع •

ولم يقصر نشاط طاغور على هذه الميادين بل تعداه الى ميدان التربية الذى اتجه اليه هذا العقل اللامع بعد سن الأربعين. ورسم طاغور مذهبه فى التربية والتعليم واضحا بسيطا بل طبق مذهبه عمليا فى الحياة فأنشأ مدرسة سانتينيكتان التى تطورت الى الجامعة العالمية بعد ذلك وهى تعد الآن من أعظم جامعات الهند وتضم طلبة وطالبات من أنحاء العالم ويقوم على تربيتهم وتعليمهم وتوجيههم أساتذة من جنسيات مختلفة ويعيش الجميع معا فى جو من التفاهم والتعاطف والتقدير المتبادل كما أراد ذلك طاغور .

ولقد كان وراء آراء طاغور فى التربية والتعليم عوامل مختلفة وخبرات من حياته المليئة انصهرت جميعا لتصنع تلك الآراء وتحفزه على انشاء مدرسته .

وكان طاغور ينادى دائما بضرورة تعليم الطفل جغرافية بلاده وتاريخها وتراثها حتى يفهم نفسه ويفهم بلاده وحتى يقوم تعليمه بعد ذلك على أساس مكين من تراثه وثقافته الأصيلة .وكان مر الانتقاد للنظم المدرسية وبرامج التعليم التى قامت فى الهند منقولة عن الغرب ويرى فيها تعويقا للنمو الفكرى فى هذه البلاد وأنها لا تؤهل الا للوظائف والقيام بالأعمال المهنية بشكل رتيب لا يفتق الذهن لابتكار أو اجراء بحث علمى أو القيام باضافات للرقى بالعلم أو المهنة .

ويقول طاغور فى ذلك :

« نحن نقول ان الشىء الوحيد الخاطىء فىالتربية عندنا هو أننا لا نتحكم فيها تماما ، ان السفينة جديرة بالبحر ولكن يجب أن تكون الدفة فى أيدينا حتى ننقذها من التهلكة نحن ننسى أن الخطأ نفسه موجود فى خلقنا أو فى ظروفنا التى لا مناص من أن تجرنا الى منحدر التقليد الزلق.. ان حريتنا حينئذ تكون حرية فى تقليد المعاهد الأجنبية وبذلك يوقعنا الحظ التعس تأثير عاملين ضارين : هما التقليد وسوء التقليد وبذلك نتج تصنعها ، آليا آلة فاسدة .

ان الشر والفساد يأتيان من أننا حينما نفكر فى جامعة تثب الى ذهننا صورة جامعة كمبردج أو أكسفورد وحشد آخر من الجامعات الأوروبية يتدفق ليملأ جميع فكرنا ونتخيل بعد ذلك أن تحررنا قائم على اختيار أحسن ما فى هذه الجامعات ثم نرقع بعضها ببعض فى تنظيم كامل وننسى أن الجامعات الأوربية هى أجزاء عضوية حية من حياة أوروبا حيث وجد كل منها مولدها الطبيعى . ان ترقيع أنوفنا وأجزاء وجوهنا الناقصة بجلود وعضلات من أعضاء أجنبية أمر مسلم به فى الجراحة الحديثة ولكن أن نبنى الانسان بكليته من أجزاء فانه أمر تعجز عنه ممكنات العلم ليس

فى الوقت الحاضر فقط ولكن آمل بكل قوة أن يكون كذلك فى جميع العصور القادمة » .

وليس معنى هذا أن طاغور كان لا يؤمن بأية ثقافة أجنبية بل على العكس كان يعتقد فى ان هذه الثقافة ضرورية لبث الحياة فى الفكر مهما تعارضت مع الثقافة الأصلية ويضرب مثلا لذلك روح المسيحية الذى لا يتعارض فقط مع ثقافة أوروبا الكلاسيكية ولكنه يتعارض أيضا مع المزاج الأوربى تماما وبالرغم من ذلك فان روح المسيحية كان أهم وأعظم عامل فى النهوض بالمدنية الأوربية وتغذيتها بسبب هذا التعارض وهذا الأمر نفسه حاصل فى الهند فان الثقافة الأوربية قد غزت الهند ليس فقط بما تحويه من علم ومعرفة بل وبسرعتها الهائلة . ومع أن تمثل الهند لهذه الثقافة كان ناقصا فانها أثارت الحياة الفكرية وأخرجتها من سكونها وعاداتها الشكلية وأثارت فيها حرارة الادراك بسبب هذا التعارض بينها وبين التقاليد الفكرية القومية .

ولكن ما يعترض عليه طاغور هو ذلك النظام المصطنع الذى من شأنه أن يسمح للتربية الأجنبية أن تملأ العقل القومى كله وبذلك يقتل الفرص الخلاقة المبتكرة لقوى فكرية جديدة تتوالد من تفاعل الحقائق الأجنبية مع التراث القومى أو على الأقل يقف عثرة فى سبيل ذلك .

وهذا هو ما جعل طاغور يلح فى تقوية جميع عناصر الثقافة القومية الأصيلة لا لتقاوم الثقافة الغربية ولكن لتقبلها وتتمثلها حتى تصبح هذه الثقافة لا أن يعيش على هامشها .

ويضرب طاغور مثلا لذلك بالاسلام الذى وجد طريقه للهند من الخارج محملا بخزائن المعرفة والمشاعر الزاخرة وديمقراطيته الروحية العظيمة . ففى ميادين الموسيقا والعمارة والفن والأدب قدم الاسلام اضافات ثمينة للثقافة الهندية ومن يدرس حياة القديسين الهنود فى العصور الوسطى ومؤلفاتهم وجميع الحركات الدينية التى بزغت فى أثناء الحكم الاسلامى يدرك تماما أى دين عميق تدين الهند به لهذا التيار الذى وفد من بلاد العربية وامتزج تماما بالحياة الهندية .

ولم تقتصر دراسة طاغور على الناحية الفكرية من التربية بل انها امتدت الى الناحية الوجدانية أيضا التى هى بحاجة الى أن تعكس عليها الأضواء كما عكست أضواء الفكر على الحياة العقلية حتى تلمع وتزدهر كما لمعت الحياة الفكرية وازدهرت .

لقد خلد طاغور اسمه بين عباقرة الفلاسفة والأدباء والشعراء والفنانين على مر العصور ، كذلك أصبح اسمه خالدا بين علماء التربية

بما نشر من مبادىء سامية وتعاليم قوية عمل على تطبيقها فى مدرسته التى انشاها منذ تسعين سنة ونمت وازدهرت حتى أصبحت جامعة عالمية يحج اليها الدارسون والعلماء من جميع أنحاء العالم ٠

وفى سنة ١٩٤٠ أوفد « متحف الحضارات البدائية » فى باريس الى الهند m.l. Gommes فى مهمة رسمية لدراسة الشعوب وتطور الحضارة فأقام فترة طويلة بجوار رابندرانات طاغور فى جامعة « شانتينيكتان » وبلغ اعجابه بهذا الشاعر العبقرى أروع المظاهر وأشاد بالرسالة الضخمة التى تحققها جامعة طاغور فى التسامي بالفكر البشرى ودعم السلام بين الشعوب ٠ وحين عاد الى فرنسا سنة ١٩٤٢ وأراد رفع تقرير عن زيارته هذه لم يستطع أن يحصر فيض اعجابه فى صفحات موجزة فوضع كتابا فى ٨٤ صفحة واختار له عنوانا متواضعا لاقتناعه بأنه لا يمكن أن يفى طاغور حقه فى الدراسة فأسماه : « مقدمة عن طاغور » ٠

ولقد قدم كتابه للقراء بهذه الكلمات :

« ان هذا الكتاب الا دعوة لمعرفة أبرز شخصية متكاملة فى عصرنا هذا تلك الشخصية التى حين التقت بالعالم وبالناس تجسمت فيهم واستطاعت ان تفهمهم وتحبهم بصورة لم يستطعها أحد آخر » ٠

وجاء فى مقدمة هذا الكتاب :

« اننا نستطيع أن نجزم أستاذ « شانتينيكتان » قد اخترق حدود عالمنا الروحى وتوغل فيها بفضل تسامى فكره وعمق بحوثه فلقد طاب لهذا الشاعر العبقرى أن يصبح معلما ومربيا فوضع فنه فى خدمة المبادىء الجوهرية التى طمست معالمها حياتنا العادية ٠ فلم يقنع بالدفاع عن الحقائق الروحية بل دأب يسعى فى أن يعلم الانسان من جديد معنى الفكر الروحى وأماط اللثام عن كل ما يقتل الحياة من سيطرة المادة التى تصيب النفس بالشلل والسلطان الآلى الذى يصيب الروح بالتصلب ٠ وهكذا جاءت تعاليمه وأقواله عملية فعالة تكشف لنا معنى الحياة وحقيقتها ٠

لذلك كانت أناشيده التى يتغنى فيها بالحياة وبالحرية جديرة بأن يتقبلها بالترحيب كل من يرى الحضارة المادية تنهار فى حضيض البشاعة والفزع ٠

كما أن رسالة الشاعر الهندى يمكنها أن تعين العالم الغربى على أن يدرك ادراكا أفضل قيمة الثروة التى لديه وأن يوجه ارادته توجيها عاليا ساميا واننا نناشد الغرب أن يفتح آذان قلبه وروحه لتلقى هذا الصوت الأخوى القادم من أعماق الشرق » ٠

وسالة محبة : أن أبرز ما استرعى نظر منظمة اليونسكو فى مؤلفات طاغور التى تبلغ مائة وعشرين مجلدا كانت دعوته الى السلام ونشر المحبة بين الناس مما حدا بهذه المنظمة العالمية أن تشيد بذلك وتخصه بأعمدة طويلة فى عدد ابريل سنة ١٩٦٠ من جريدتها ٠

ففى الواقع لم يكتف طاغور بالتغنى بالسلام والمحبة بل كان هو نفسه يحب الناس جميعا وخاصة البسطاء والفلاحين مما يذكرنا بالأديب الروسى تولستوى ولعل تأثير ذلك يرجع الى زوجته التى غرست فيه حب الفقراء « أطفال الله الكبار » على حد قولها ٠

هذا الحنان العميق للمساكين الودعاء والصغار فى هذا العالم ٠ وهذا العطف الشديد على « الفقير والضعيف والضال » هو الأساس المتين الذى تبنى عليه الانسانية رسالتها فى التوجيه الايجابى لحركة السلام العالمى ٠

طاغور يؤمن بأن « الحب هو المعنى الأسمى لكل ما يحوطنا »سادهانا» و « ان نور الشمس يفتح باب الكون كما أن نور الحب يفتح كنوز العالم » وتتبلور العقيدة الطاغورية فى أنه « يجب أن تحب لكى تعمل ويجب أن تعمل لكى تحب » ويذهب به ايمانه بالحب الى أن يقول : « عليك ان تؤمن بالحب حتى لو جلب عليك الألم » ٠

ولقد أعجب الأديب الفرنسى المعاصر « ماركل أشارد » بهذه العبارة الأخيرة الى حد أنه اتخذها شعارا له ٠ وحين انتخب عضوا فى الأكاديمية الفرنسية ١٩٦٠ قال فى أصدقائه : « لقد اتخذت من الحب دينا لى » وبعد ذلك بعام يكتب مقالا فى مجلة أيلى الفرنسية يردد فيه عبارة طاغور هذه ثم يضيف : « ان الحب لا يضيع أبدا ٠٠ فالحب هو بداية المعرفة كما أن النار هى بداية النور » ٠

ان احياء اسم طاغور ليس احياء لفكرة منعزلة انما هو احياء لرجل أيقظ العالم أجمع أصداء عميقة فى الفلسفة وفى الأدب وفى الفنون فتوطدت بذلك الدراسات المقارنة بين الشرق والغرب فى هذه الألوان المختلفة من المعرفة والثقافة ٠

وفى أعلى الحواجز والحدود التى تفصل بين الأجناس والأوطان أخذت تحلق روح ذلك الذى طالما تمنى للفكر البشرى انتشارا عاليا دوليا وتعاونا فى روح المحبة والسلام ٠

لقد تحققت نبوءة أبيه :

« سيدعى رابندرا — أى الشمس — لانه مثل الشمس سيطوف العالم والعالم سيضىء بنوره » ٠

وهذه أمثلة رائعة من شعر طاغور :

الخطايا الأربع

لماذا انطفأ المصباح ؟ .. لقد أحطته بردائى لأجعله فى مأمن من الريح لهذا انطفأ المصباح .. هذا هو التهور .

لماذا ذبلت الوردة ؟ .. لقد ضممتها الى صدرى فى لهفة وقلق لهذا ذبلت الوردة هذا هو خداع الحب .

لماذا جف النهر ؟ .. لقد أقمت حياله سدا ليخدمنى أنا وحدى .. لهذا جف النهر . هذه هى الأنانية .

لماذا انكسر وتر العود ؟ .. لأنى أردت ارغامه على تأدية نبرة عالية .. لهذا انكسر وتر العود ..

هذه هى الكبرياء .

فردوس الحرية

هنا حيث العقل لا يعرف الخوف والرأس شامخ .

هنا حيث المعرفة تصطخب كأمواج البحر .

هنا حيث العالم لا يجزأ بين جدران ضيقة منفصلة .

هنا حيث تتصاعد الألفاظ من أعماق الصدق :

هنا حيث المجهود المطرد يمد ذراعيه نحو الكمال .

هنا حيث مجرى العقل الصافى لم يسر ضالا الى الفناء فى صحراء العرف والتقاليد القاحلة .

هنا حيث يتقدم الذهن تحت قيادتك نحو التوسع الدائم فى الفكر والعمل .

اذنك يا الهى أن تجعل وطنى يستيقظ فى فردوس الحرية هذا !

الشاعر والعصفور

برغم المساء الذى يدنو وئيد الخطى مسكتا كل الأناشيد .

وبرغم رحيل رفيقك وتعبك ·

وبرغم الخوف الذي يسري في الظلمات ·

وبرغم السماء المقنعة ··

استمع الى اليها العصفور · يا عصفورى الصغير ايـاك أن تطوى جناحيك !

ان الظلمة التى تكتنفك ليست ظلمة أوراق الغابة · انها البحر الذى ينفتح كثعبان هائل ·

ان أزهار الياسمين التى ترقص أمامك انما هى زبد الأمواج الذى يبرق تجاه عينيك · أنت بعيد ·· بعيد جدا ·· أين ، هى ضفتك الخضراء المشمسة ؟

أين هى حياتك أين هو عشك ؟

أمازلت تأمل فى العودة اليه ؟

استمع الى أيها العصفور يـا عصفورى الصغير : ايـاك أن تطوى جناحيك !

الليل يتمدد على الطريق ·

والفجر يغفو خلف الجبيلات المظلمة ·

والنجوم البكماء تعد الساعات ·

والقمر الشاحب يسبح فى الظلام العميق ·

كل ما فى الكون يخيفـك ··· كل ما فى الكون يطردك ويدفعك مكرها الى عشك ·

ومع ذلك فاستمع الى أيها العصفور يا عصفورى الصغير : اياك أن تطوى جناحيك ·

لقد تضاربت الظلمات واختلطت الأجواء وعصفت بالسماء ريح عاتية ·

انتهى كل شىء ·· لم يعد لك أى أمل !

لم يعد فى وسعك أن ترسل لا تأوهات ولا غمغمات ولا صراخات !

لم يعد لك عش ولا فراش للراحة !

ليس لك غير جناحيك والسماء اللانهائية ·

فعلام الخوف وعلام الحزن ؟

حلق في الجو مجاهدا . اضرب في الفضاء ما استطعت . عش طليقا حرا برغم الظلام والريح والموت . واياك اياك يا عصفورى الصغير أن تطوى جناحيك .

ايهـا المـوت

أيها الموت ياموتى قل لى ماذا تهمس في أذنى بمثل هذا الخفوت ؟

لقد تسللت الى في هدأة المساء . والزهر يذبل والماشية تعود الى المذود . ثم جلست خفية بجوارى . وطفقت بكلام لا أفهمه .

أتعتقد انى أخافك ؟ .. أتأمل بكلامك انك تداهننى فتأسرنى . ثم ترقدنى في غمغمة خاطفة تحت أفيون قبلاتك الباردة أيها الموت يا موتى ؟!

أريد أن يقام لعرسنا قداس رائع ! ..

اريد أن أبصر اكليلا من الياسمين منعقدا حول جدائل شعرك الوحشى !

أريد أن ترسل الى من يتقدمك حاملا علمك !

اريد أن تلتهب الظلمة كلها من نار مشاعلك الحمراء . أيها الموت ياموتى !

فتعال اذن .. تعال على نغم اصطفاق صنوجك الصدفية . تعال في ليلة فارقها النعاس ألبسنى الرداء القرمزى وضم يدى الى يدك وخذنى لتكن عربتك ببابى على استعداد ، ولتصهل خيولك من عدم اصطبارها .

أمط اللثام وانظر الى مواجهة وفى أنفة وأنقذنى . انقذنى من غدر الحب وغدر الأمل وغدر الحياة ، أيها الموت يا موتى !

الشوقيات

أحمد شوقي

١٩٠٠ - ١٩٣٢م

شوقى .. نشأته وأطوار حياته

هبط الأرض كالشـعاع السـنى بعصـا سـاحر وقلب نبى

لمحة من أشعة الروح حلت فى تجاليـد هيكـل بشرى

ذلكم هو الشاعر يهبط الأرض على رفوف من نور وجناح من الوحي والسحر فيعيش فيها ما عاش وقلبه مشدود النياط الى عالم من الرؤى أو الأحلام ، فيتملى من تلك المفاتن ما شاء ان يتملى ثم يبثها فى الناس أهازيج تهز نفوس البشر ، ويبسم لها طربا سكان السماء ·

والله سبحانه وتعالى اذا أراد الخير لأمة من الأمم أرسل اليها الشعراء فكانوا فيها ألسنة الملأ الأعلى ، يبث شعرهم الدعوة للخير والحق والجمال ويرقى بالنفوس الى أجواء من السمو والرفعة تنسيها أكدار الأرض وأقذاء الحياة وتعلمها كيف تختلج الجـوانح لكل جميل جليل وكيف تتحرك المشاعر لصيحات الحق وسبحات الخيال ·

وما عرفنا شاعرا صيغ له من قلائد المدح ونظم فيه من عقود الثناء ما صيغ ونظم فى شوقى فهو الملقب بأمير الشعراء وكل قصيدة له تنعت بالغصماء ، وكل منظومة من منظوماته تعد شوقية غراء · كلماته الدر النظيم ، ومعانيه الجوهر اليتيم · هكذا تصـفه سيارة الصحف وهكذا يقول فيه رواة شعره ·

ولقد استحق الكثير من هذا الوصف : فهو شاعر الغزل والنسيب وناظم الحوادث والتاريخ ، صاحب الحكم الرائعة والأمثال الذائعة ترجمان العاطفة الوطنية والذائد عن العقيدة الدينية محيى دارس الآثار ومستنهض الهمم الى الأعمال الـكبار الداعى الى الاتحاد والوئام والمستخلص خالد الحقائق من الأحلام ·

.. وفى أبريل من عام ١٩٢٧شهدت دار الأوبرا المصرية مهرجانا ضخما لتكريم أحد أعظم شعراء العربية الذين شهدهم القرن العشرون ، وتمت مبايعة أحمد شوقى أميرا للشعر والشعراء بحضور شعراء الأمة العربية يتقدمهم زعيم الأمة سعد زغلول بوصفه زعيما للشعب ورئيسا

لمجلس النواب ونهض شاعر النيل حافظ ابراهيم ينشد قصيدته المشهورة في مدح شوقي :

أمير القوافي قد اتيت مبايعـــا
وهذي وفود الشرق قد بايعت معي

ويجمع نقاد الأدب العربي ـ قديمه وحديثه ـ على أن عرش الشعر ظل خاويا بعد المتنبي الى ان خرج أحمد شوقي على امته كالمعجزة امتدادا للاتجاه الكلاسيكي المحافظ بحكم انتمائه لمدرسة البعث والاحياء التي كان رائدها رب السيف والقلم الشاعر محمود سامي البارودي حيث الأصالة والفخامة والحيوية والسمو واستلهام التراث العربي القديم الذي خلفته عصور الازدهار في الشعر العربي ، واذا بشوقي على قمة مدرسة الاحياء يجمع في شعره بين فخامة المتنبي وصياغة البحتري وصناعة ابن تمام وسخرية أبي العلاء وسلاسة ابن الرومي ، على أنه لم يكتف بالاصـــالة وسعى الى المعاصرة فسبق كل شعراء جيله وكان له فضل الريادة في انشاء المسرحية الشعرية في الأدب العربي .

وقد عاش أحمد شوقي على أحمد شوقي ـ ٦٢ ـ عاما منذ خروجه للحياة في منتصف أكتوبر من عام ١٨٧٠ وحتى رحيله في منتصف أكتوبر من عام ١٩٣٢ .

شوقي يتحدث عن نفســه

ولما كانت لمقدمة شوقي للشوقيات أهمية خاصة يلقى الضوء فيها على حياته وشعره رأينا نشرها .

كتب أمير الشعراء :

الحمد لله الذى علم البيان وجعله أثرا من روحه عند الانسان . والصلاة والسلام على نبي الأمة القائل ان من الشعر لحكمة .

(أما بعد) فمازال لواء الشعر معقودا لأمراء العرب وأشرافهم وما برح نظمه حبيبا الى علمائهم وحكمائهم يمارسونه حق المراس ويبنون كل بيت منه على أمتن أســـــاس موفين اجلاله حافظين خلاله مدنين الى الأذهان خيـــاله .

قال امرؤ القيس واصفا وحاكيا وضاحكا وباكيا وناسيا وغازلا وجدا وهازلا وجمع شملة بحيث تعد المنظومة الواحدة له اثرا في البيان مستقلا وبنيانا قائما برأسه .

ونظمه أبو فراس فخرا عاليا ونسيبا غاليا وحكما باهرة وأمثالا سائرة لكنه لم يقلة فوضى فى نظمه الخلط فان قصيدته المشهورة التى يقول فى مطلعها :

أراك عصى الدمع شيمتك الصبر   أما للهوى نهى عليك ولا أمر

ليست الا عقدا توحد سلكه وتشابهت جواهره ودق نظامه . تعاونت فيه ملكة العربى وسليقة الشاعر على حسن الحكاية فاذا فرغت من قراءتها فكأنك قد قرأت أحسن رواية . وهذا وكونها أشبه شىء بالشعر فى شعور الأنفس هما سر بقائها متلوة الى الأبد .

وكان أبو العلاء يصوغ الحقائق فى شعره ويوعى تجارب الحياة فى منظومه ويشرح حالات النفس ويكاد ينال سريرتها ومن تأمل قوله من قصـــيدة :

فلا هطلت على ولا بأرضى   سحائب ليس تنتظم البلادا

وقابل بين هذا البيت وبين قول ابن فراس :

معللتى بالوصول والموت دونه   اذا مت ظمآنا فلا نزل القطر

ثم نظر الى الأول كيف شرع سنة الايثار وبالغ فى اظهار رقة النفس للنفس وانعطاف الجنس نحو الجنس والى الثانى كيف وضع مبدأ الأثرة وغالى بالنفس ورأى لها الاختصاص بالمنفعة فى هذه الدنيا تعيش فيها جافية ثم تخرج منها غير آسية .

علم ان شعراء العرب حكماء لم تغرب عنهم الحقائق الكبر ولم يفتهم تقرير المبادىء الاجتماعية العالية وانهم أقدر الأمم على تقريبها من الأذهان واظهارها فى أجلى وأجمل صور البيان .

وكان أبو العتاهية ينشىء عبرة وموعظة وحكمة بالغة وموقظة . وكان أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنة يرجع الية كذلك فى الوعظ والارشاد والتحذير من الرذائل والاغراء بالفضائل .

وكان الشافعى رحمه الله وهو القائل :

ولولا أشعر بالعلماء يزرى   لكنت اليوم أشعر من لبيد

تجرى ألفاظه بالشعر وله مقاطيع مختارة وحكم فى الناس سيارة وحسبك أن الطب جميعه لو جمع ما خرج عن البيتين المنسوبين اليه وهما :

ثـــلاث هن مهلكة الأنـــام   وداعية الصحيح الى السـقام

دوام مدامـــــة ودوام وطء   وادخال الطعام على الطعـــام

ولو انفسح لهؤلاء وأمثالهم المجال من الزمان والمكان وشهدوا عصر البخار كما نشاهده وكابدوا الدهر في الهرم مثلنا نكابده لامتلأت الصدور من محفوظ أشعارهم ولضاقت المطابع على تنافسها على نشر آثارهم ٠

ثم يحدد شوقي أسس نجاح الشاعر في الأمور التالية :

« الأول » ثقة الانسان من كون الشعر في طباعه وهذا هو الشرط الأوجب وانه لأمر يعني الآباء والأساتذة أكثر من سواه ولا ينبغي لهم ان يتصرفوا في مستقبل الأطفال الذين هم أمانة الله في أيديهم بمقتضى أميالهم الشخصية وأفكارهم الخصوصية ، بل عليهم اذا أنسوا هذه الهبة عند الطفل ان يأخذوا بيده ويعينوه عليها ولو كانوا ممن ينظرون الى الشعر بعين السخط لأن الله سبحانه وتعالى وهو الواهب قد رأى له ذلك وما يرى الله أفضل ٠ واذا وجدوه دعيا في الشعر دخيلا منذ الطفولة وجب عليهم تبغيضه اليه وممانعته عن نظمه لو كانوا من محبي الشعر ونصرائه ٠

« والثاني » أخذ العلوم وتناول التجارب لأن الشعر لا يخرج من كونه اخبارا وحكمة لا يكونان الا من عليم مجرب ٠

« والثالث » ألا يتخذ الشعر حلية على عطل من سائر أمور الدنيا وأشغالها ٠ فان كان ولابد من التفرغ للأدب حبا به أو طلبا للكسب فليكن الشعر هو اليتيمة القعساء في عقد علومه وصاحب العلم في موكب فنونه لا يتنافى تعاطيه الكتابة نثرا في جميع المطالب وضروب المواضع فانك لا تجد الشعر وسلطانه عندئذ الا مرشدين أمينين وذخرين ثمينين ٠

فمن جمع بين هذه الأمور الثلاثة وكان عاملا متقنا لعمله حريصا عليه مترقيا فيه يخاف الله في الغرور ويخشاه في ايذاء خلقه فقد انكشف له سر النجاح وأحرز قصب السبق في حلبة الكتاب والشعراء ٠

الآن ادخل في الحديث مع فريق طلبوا مني ان أجعل صورتي في هذه المجموعة وآخرين رغبوا الي في كلمة تقـال عنها وعن صـاحبها والا يقولها سواي ٠

معذرتي الى الفريق الأول ان من يعرض صورته على الناس كمن يعرض وجهه عليهم واعوذ بالله وبالمحبين أن أكون ذلك الرجل على أن صورتي ما عشت بينهم ينظرون اليها فاذا مت فليأخذوها من أهلي اذا وجد بهم الحرص عليها ٠

وللآخرين اقول اني لا أزال في أول النشأة وان حياتي لم تحفل بعد بالعجائب ولم تمل من الفوائد ولا المصـائب حتى أحدث النـاس بأخبارها ٠ لكن لا أثق بيومي الآتي وأخاف بعدي رجوم الظن وضلالته

الحديث فلى العذر ان أجيب طلبهم على أن يكون الحديث بيني وبينهم كما يكون بين الأحباب .

سمعت أبى رحمه الله يرد أصلنا الى الأكراد فالعرب ويقول ان والده قدم هذه الديار يافعا يحمل وصاة من أحمد باشا الجزار الى والى مصر محمد على باشا وكان جدى وانا حامل اسمه ولقبه يحسن كتابة العربية والتركية خطا وانشاء فأدخله الوالى فى معيته ، ثم تداولت الأيام وتعاقب الولاة الفخام وهو يتقلد المراتب العـالية ويتقلب فى المناصب السامية الى أن أقامه سعيد باشا أمينا للجمارك المصرية فكانت وفاته فى هذا العمل عن ثروة راضية سددها أبى فى سكرة الشباب ثم عاش بعمله غير نادم ولا محروم وعشت فى ظله وأنا واحده أسمع بما كان من سعة رزقه ولا أرانى فى ضيق حتى اندب تلك السعة فكأنه رأى لى وكما رأى لنفسه من قبل ألا أقتات من فضلات الموتى .

أما جدى لوالدتى فاسمه أحمد بك حليم ويعرف بالنجدة لى نسبة الى نجدة احدى قرى الأناضول ، وفد على هذه البلاد فتيا كذلك فاستخدمه والى مصر ابراهيم باشا من أول يوم ثم زوجه بمعتوقته جدتى التى أرثيها فى هذه المجموعة وأصلها من مورة جلبت منها أسيرة حرب لا شراء وكانت رفيعة المنزلة عند مولاها وكان زوجها محبوبا عنده كذلك فمازالا كلاهما مغمورين بنعمة هذا البيت الكريم حتى توفى جدى وهو وكيل لخاصة الخديو اسماعيل باشا فأمر بنقل مرتبه الى أرملته ، وأن يحسب ذلك معاشا لا احسانا وكان الخديو المشار اليه يقول عنهما :

« لم أر أعف منه ولا اقنع من زوجته ولو لم يسمه أبى حليما لسميته عفيفا لعفته » .

أنا اذا عربى . تركى . يونانى . جركسي بجدتى لأبى . أصول أربعة فى فرع مجتمعة تكفله لها مصر ، كما كفلت أبويه من قبل ومازال لمصر الكنف المأمول والنائل الجزل . على انها بلادى وهى منشأى ومهادى . ومقبرة أجدادى ولد لى بها أبوان ولى فى ثراها أب وجدان . وببعض هذا تحبب الى الرجال الأوطان .

أما ولادتى فكانت بمصر القاهرة وأنا اليوم أحبو الى الثلاثين حدثنى سيد ندماء هذا العصر المرحوم (الشيخ على الليثى) قال : لقيت أباك وأنت حمل لم يوضع بعد فقص على حلما رآه فى نومه فقلت له وأنا أمازحه : ليولدن لك ولد يخرق كما تقول العامة خرقا فى الاسلام .

ثم اتفق انى عدت الشيخ فى مرض الموت وكانت فى يده نسخة من جريدة الأهرام فابتدر خطابى يقول : هذا تأويل رؤيا أبيك يا شوقى فوالله

ما قالها قبل فى الاسلام لحد ، قلت : وما تلك يا مولاى ؟ قال : قصيدتك فى وصف (البال) التى تقول فى مطلعها :

حف كاسها الحبب فهى فضة ذهب

وها هى فى يدى اقرؤها • فاستعذت بالله وقلت له الحمد الله الذى جعل هذه هى « الخرق » ولم يضر بى الاسلام فتيلا •

أخذتنى جدتى لأمى من المهد وهى التى أرثيها فى هذه المجموعة وكانت منعمة موسرة فكفلتنى لوالدى وكانت تحنو على فوق حنوهما وترى لى مخايل فى البر مرجوة • حدثتنى أنها دخلت بى على الخديو اسماعيل وانا فى الثالثة من عمرى وكان بصرى لا ينزل عن السماء من اختلال أعصابه فطلب الخديو بدرة من الذهب ثم نثرها على البساط عند قدميه فوقعت على الذهب أشتغل بجمعه واللعب به فقال لجدتى : اصنعى معه مثل هذا فانه لا يلبث ان يعتاد النظر الى الأرض ، قالت : هذا دواء لا يخرج من صيدليتك يا مولاى • قال جيئى به الى متى شئت انى آخر من ينثر الذهب فى مصر •

ولا يزال هذا الارتجاج العصبى فى الابصار يعاودنى ، وكان المرحوم الشيخ على الليثى كلما التقت عينه بعينى ينشد هذا المصراع للمتنبى :

« محاجر مسك ركبت فوق زئبق » •

دخلت مكتبة الشيخ صالح وانا فى الرابعة وهى من أهلى جناية على وجدانى اغفرها لهم ثم انتقلت منها الى المبتديان فالتجهيزية فكنت التلميذ الثانى لهذه المدرسة •

وأنا فى الخامسة عشرة وكان ناظرها المرحوم صادق باشا شنن قد حصل لى من النظارة على « المجانية » يوجه لى الاستثناء لى عن حاجة اليها ولكن على سبيل المكافاة ، ثم رأى لى أبى أن أدرس القوانين والشرائع فدخلت مدرسة الحقوق وكان ناظرها المأسوف عليه « فيدال باشا » لا يرانى أهلا لذلك بالسن فمازال استاذى وصديقى المهذب يحيى بك ابراهيم وكيل المدرسة يومئذ يؤيدنى عند رئيسه الى ان قبلت ثم لم يكفه ذلك حتى حصل لى من النظارة على مائتى قرش فى الشهر فدرست الحقوق سنتين ثم ارتأت الحكومة ان ينشأ بمدرسة الحقوق قسم للترجمة يتخرج فيه المترجمون الأكفاء فنصح لى الوكيل ان أدخل هذا القسم ففعلت ••

واقمت فيه سنتين ثم منحتنى نظارة المعارف الشهادة النهائية فى فن الترجمة • وبينما أنا أتردد على المغفور له على باشا مبارك فى شأن ورد

عليه مرسوم من المعية السنية بطلبي اليها فكان سروره بذلك أضعاف فرحتي بالنعمة المفاجئة فذهبت الى السراى وهنالك اســتؤذن لى على المرحوم الخديو توفيق باشا ، فلما مثلت بين يديه ولم أكن رأيته من قبل ولكن مدحته مرارا وأنا في المدرسة خاطبني بهذا اللفظ الشريف « قرأت يا شوقى فى الجريدة الرسمية انك أعطيت الشهادة النهائية وكنت انتظر ذلك لالحقك بمعيتى لكن ليس بها الآن محل خال فهل لك فى الانتظار ريثما يهيىء الله لك الخير » فاستلمت اذيال العزيز وقبلتها ثم قلت حسبى يا مولاى انك قد ذكرتنى من تلقاء نفسك الشريفة وأى خير يهيىء الله لعبدك أفضل من هذا ، فاطرق هنيهة ثم قال : قد سمعت ان أباك عطل من الخدمة فبلغه انى ربمـــا أدخلته فى عمل قبلك ثم تهلل وأذن لى بالانصراف .

فلبثت فى المعيه بضعة شـــهور انتظر فرجا يأتى به الله وكان المرحوم على باشا مبارك لم يقطع عنى الراتب الى ان كان يوم كثر غيمه وتثاقل مطره فخرجت قبيل الأصيل فى حاجة لى على حمار أبيض كان لوالدى وبينما أنا عائد الى منزلى أجتاز ميدان عابدين بصرت بالعزيز فى بهو السراى يشرف منه ، فنزلت عن الدابة أمشى كرامة للمليك المطل وأمرت الخادم أن يبتعد بها وأن يلاقينى خلف القصر ثم مشيت على الأقدام حتى اذا انتهيت من الميدان اعترضنى رســـول من الأمـير يدعـونى اليه فوافيت حضرته وأنا لا أعرف السبب وكان معه ساعتئذ المرحــوم عبد الرحمن باشا رشدى فتحلى الحليم بصورة الغضب ثم قال أليس لى أن أطل من بيتى حتى نزلت من حمارك والجأتنى الى الاتثناء قلت عفوا يا مولاى هكذا أدبنا الأوائل حيث يقول شاعرهم :

واذا المطى بنا بلغن محمدا . فظهورهن على الرجال حرام

فتبسم ضاحكا . ثم قال انكم معشر الشعراء تتفاءلون بالغيوب فهذا اليوم من أيامكم فاسمع للباشا فان عنده لك فالا فالتفت الباشا عندئذ الى وقال الآن أمرنى أفنــدينا أن أبلغك تعيين أبيك مفتشا فى الخاصة الخديوية وأما أنت فتعين بعد شهر ثم مد العزيز الى يده فقبلتها واجما قد غلب على السرور حتى انسانى الشعر وكان ذلك وقته ثم لم يحل على حول فى الخدمة الشريفة حتى رأى الخديو أن أبلغ التأديب فى أوروبا فخيرنى فى ذلك وفيما أريده من العلوم فاخترت الحقوق لعلمى انها تكاد تكون من الأدب وان لا قدم فيها لمن لا لسان له فأشار الأمير على عندئذ أن أجمع فى الدراسة بينها وبين الآداب الفرنساوية بقدر الإمكان ، ثم سافرت على نفقته فكنت أنقد ستة عشر جنيها فى الشهر نصفها من المعية

ونصفها من الخاصة وأعطاني يوم سفري مائة جنيه أرسل نصفها الى مدير الارسالية ليهيىء لي جميع ما أحتاج اليه حال وصولي ودفع لي النصف الآخر بيده الشريفة وما أنسى من مكارمه رحمة الله عليه لا أنس قوله لي في ساعة الوداع : « لا حاجة بك منذ اليوم الى أهلك فلا تعنتهم بطلب النقود وأعنت أباك هذا الغنى » .

فركبت البحر لأول مرة أؤم مرسـيليا فلما قدمتها وجدت مدير الارسـالية في انتظاري فأخبرني بأن أقضي عامين في مدينة مونبلييه وآخرين في باريس وكان المدير قادما من مونبلييه للقائي فعاد بي اليها على الفور وهنالك قدم لي جميع ما احتاج اليه وادخلني مدرسة الحقوق الجامعية ثم رجع الى العاصمة فلما انقضت السنة الأولى التمست من ولي النعم أن يأذن لي في الأوبة الى مصر لقضاء زمن العطل بين أهلي فأوقع الى أمره أن هذا من نزق الشباب وانه يرى لي أن أقيم أربع سنوات كاملة في أوروبا وألا أضيع منها دقيقة واحدة ثم أرسل الى خمسين جنيها لأنفقها في رحلة أزمعها الى أي بلد اشاء الا مصر وكانت الدعوات قد توالت على من الفرنساويين رفقائي في المدرسة بالذهاب الى مدنهم المتفرقة في الجنوب وقضاء بعض الأيام في ضيافتهم هنالك فقضيت نحو شهرين كنت فيهما قرير العين طيب النفس ناعم البال حيث التفت رأيت حولي مناظر رائقة ومجالي شائقة ومعالم للحضارة في إقاصي القرى شـاهقة وآثارا لدولة الرومان تزداد حسنا على تقادم الزمان وعرفت الفلاح الفرنسي في داره وكنت ألقاه في مزرعته وأماشيه في الأسواق فيخيل الى انه قد خلف العرب على قرى الضـيف واكرام الجار وكان أعجب ما رأيته مدينـة (كركسون) وجدتها قسمين والفيت القوم عليها صنفين فمنهم الباقون الى اليوم كما كان عليه آباؤهم في القرون الوسطى بناؤهم ذلك البناء ولباسـهم ذلك اللباس وعاداتهم واخلاقهم تلك العادات والأخـلاق . والآخرون خلق جديد وشعبه كسائر شعب الأمة في أخذهم بأشياء التمدن العصري . وبالجملة كانت نتيجة هذه النقل من أجل نعم الله على وأسنى أيادي الخديو السابق عندي .

ثم ماكدت انتهى من السنة الثانية حتى كتب لي مدير الرسـالة المصرية يستقدمني لباريز ويخبرني انه ذاهب بتلامذته الى انكلترا لقضاء أكثر أيام العطلة فيها ، وان الأمير رحمه الله أدى نفقة هذه السياحة عني اذا رغبت فيها فبرحت مونبلييه على عجل أيمم باريز للمرة الأولى فأقمت بها يومين ريثما اهبت للرحلة ثم سافرنا الى عاصمة انكلترا فلبثنا فيها نحو شهر نغشى من معالمها في الحضارة ونشاهد من دوران دولاب التجارة والصناعة فيها ما ينتهى اليه العظم والجلال في هذ لعصر لكننا لم نلبث ان سئمناها وهذا أكبر عيوبها فخرجنا الى بعض المدائن على بحر الشمال

وهناك وجدنا راحة الخاطر وقرة الناظر وان يكن الجو كثير التقلب غدارا في غالب الأحيان • فلما كانت السنة الثالثة وهي الأولى لى في باريز أصبت بمرض شديد كنت فيه بين الحياة والموت فاستخدمت ممرضة تسهر على وتعمل باشارتي في الحركة والسكنة فكنت اسمعها وانا في سكرات الحمى تقول : « أفي مثل هذا الشباب تذهبون ! » ثم تكفكف الدمع لكن الله خيب ظنونها ومن على بالشفاء وعندئذ أشار على الأطباء ان أقضي أياما تحت سماء أفريقيا على زعم ان الذى بي من الضجر والسآمة ليس الا حنينا الى الوطن فوقع اختيارى على الجزائر فرحلت اليها مع أحد قضاتها الفرنساويين فنفعتني مرافقته وظل دليلي على الهدى عاصمة المستعمرة نحو عشرين يوما ثم برحها الى أوران •

أما جو الجزائر فلا يعدله بين الأجواء في صحوه وطيب نسمته مع توقد شمسه الا جنوب فرنسا ولم أتأثر فيها كتأثرى من رؤية المصريين في القهاوى البلدية اذ أكثر اصحابها وغلمانها منهم وكان قد بلغهم جلوس مولانا الخديو القائم عباس باشا على الأريكة المصرية فكنت أراهم فرحين بالنبأ واسمعهم يدعون لسموه ولا عيب في الجزائر سوى انها قد مسخت مسخا ، فقد عهدت مساح الأحذية فيها يستنكف من النطق بالعربية واذا خاطبته بها لم يجبك الا بالفرنساوية على ان حركة العمران في المدينة عجيبة وآثار التمدن الفرنساوى بادية عليها ولكن المسلمين من أهلها لا يشاركون القوم في شيء من ذلك ولا يتهافت مترفوهم الا على مضمار التمدن وأسوائه فكأن حظنا واحد في كل مكان •

أقمت بالجزائر اربعين يوما أو تزيد ثم حثثت الرحال عنها قافلا الى باريز وهناك تمت لى السنة الثالثة في الحقوق وحصلت على الشهادة النهائية فيها ، فرأى لى الجناب العالى أيده الله أن أقضي في العاصمة ستة شهور أتمكن فيها من معرفة أشياء باريز وأهلها وقد كان في الدراسة ما يشغل عن ذلك ويحول دونه ثم انقضت تلك المدة على ما رسم لى الرأى العالى أيده الله فعدت الى الوطن وأنا نضو فراق • تهزني اليه الأشواق •

وفي سنة ١٨٩٦ للميلاد ندبني جنابه الفخيم لأنوب عن حكومته السنية في مؤتمر المستشرقين الذى كان انعقاده في مدينة جينيف عاصمة سويسرا •

فكانت خير فرصة تغتنم لمشاهدة هذه البلاد التي هي المجلى البديع لعروس الطبيعة فرحلت اليها واقمت بها شهرا ثم انفض المؤتمر فبرحتها الى بلجيكا لمشاهدة عاصمتها وزيارة المعرض الذى أقيم بمدينة انفرس في ذاك العام •

ولما كانت السنة الماضية وكنت قد سئمت الحضر على أثر رمد طال أمده خرجت الى الاستانة طلبا للعافية على ضفاف البسفور فأذن الله وكان ما رجوت وعدت من عاصمة الاسلام وأنا أعتقد أن خطرات النسيم فيها تفعل في أربعين يوما مالا يفعله طب الأطباء في أربعين شهرا ٠

هذه هي أيام صباى وخطوات شبابي وأوائل نشـــأتي أجبت عنها السائل ليعلم كيف تقضت وفيم أنفقت وأين ذهبت وأنا أستغفر الله لي ولأهلي ولمن ينظر الى هذا الكتاب بعين الكريم المتجاوز أو المنتقد العدل ٠

جمعتني باريز في أيام الصبا بالأمير شكيب ارسلان وانا يومئذ في طلب العلم والأمير حفظه الله في التماس الشفاء فانعقدت بيننا الألفة بلا كلفة وكنت في أول عهدي بنظم القصائد الكبرى وكان الأمير يقرأ ما يرد عليه منها منشورا في صحف مصر فتمنى ان تكون لي يوما ما مجموعة ثم تمنى على اذا هي ظهرت أن أسميها الشوقيات ٠

ثم انقضت تلك المدة فكأنها حلم في الكرى أو خلسة المختلس أو هي كما قلت :

صحبت شكيبا برهة لم يفز بها ... ســـواى على ان الصحاب كثير

حرصـــت عليهـــا آنـــة ثم آنـــة ... كما ضـــن بالماس الـــكريم خبير

فلما تســـاقينا الوفـــاء وتم لي ... وداد على كل الـــوداد أمـــير

تفرق جسمي في البلاد وجســـمه ... ولم يتفرق خاطر وضـــمير

هذا أصل التسمية سبقت به اشارة لا تخالف ودفعت طاعة واجبة وأنا بين هاتين هدف للقال والقيل يظن بي نسبة الأثر الضئيل ٠ الى الأسم القليل ٠

كانت وفاة والدي من نحو ثلاث سنوات فكان لي عجبا ان وجدت بين أوراقه شيئا كثيرا من مشتت منظومي ومنثوري ما نشر منها وما لم ينشر قد كتب بعضه بالحبر والبعض الآخر بالرصاص والكل خط يد المرحوم وقد لفه في ورقة كتب عليها هذه العبارة « هذا ما تيسر لي جمعه من أقوال ولدي أحمد وهو يطلب العلم في أوربا فكنت كأني أراه واني آمره أن يجمعه ثم ينشره للناس لأنه لا يجد بعدي من يعتني بشئونه وربما لم يوجد بعده من يعني بالشعر والآداب » ٠ فبينما انا ذات يوم تعب بهذه الأوراق حيران لوصية الوالد كيف أجريها زارني صديقي مصطفى بك رفعت فحدثته حديثي فسألني أن أعيره الأوراق أياما ثم يعيدها الى ففعلت ثم لم يمض شهر حتى بعث بها الى واذا هي قد نسخت بقلم مليح يؤيده ذوق صحيح بحيث لم يبق الا أن تدفع الى المطابع ، فأخذتها وبودى

لو وفيت صديقي المشار اليه حقه من شكر الصنع وأنا أقول في نفسي لئن صدق أبي في الأولى لقد ظلم في الثانية فان الخير لايزال في الناس •

على ان ما جمع في « الشوقيات » ثم طبع ليس هو كل ما قيل فقد أسقطت منه الكثير وعثرت على غيره ولكن في الزمن الأخير فأما ما أسقط عمدا فأكثره من تولى في زمن الصبا الذي لا يؤمن فيه على المرء الغرور • ولا يسلك الفتى فيه سبيلا الا هو مظلل عثور • وقد خشيت ان يقع مثل ذلك في أيدي الناشئة فأسأل عن سوء وقعه ويكون اثمه أكبر من نفعه ، لكنني حرصت على اثبات بعض الشيء منه كما يحرص الانسان على ذكر ما طاب من أيام الشباب • وأما ما عثرت عليه والمجموعة في أيدي الطباع فلم يكن في الوسع أخذه لئلا يختلط الكتاب ويختل ترتيب الأبواب على أنه محفوظ لينشر في الجزء الثاني ان شاء الله تعالى مع سائر القصائد التي أقيلت بعد الاعلان عن الشوقيات ولم يتيسر ادخالها في أبواب هذا الجزء •

وقد عزمت بحول الله ومشيئته على ان أنشر في آخر كل عام هجري ما يحصل عندي من منظوم ومنثور ولو قل عدده وصغر حجمه وان أجعل ذلك بمثابة أجزاء متتالية « للشوقيات » تسمى باسمها وتكون لها متممة •

شوقي •• وشعره الانساني

عاش شوقي انضر أيامه مع الأحداث — مع أحداث العالم بشتى ظواهره ومع أحداث العالم الاسلامي بمختلف قضاياه وعديد نوازعه ومشكلاته • ومع أن أيامه كانت بعيدة عن الاختلاط بالشعب تقريبا وفي « برج من العاج » كما صوره بعض النقاد •• الا أن الواقع لم يكن كذلك فقد كان « ملتزما » نحو كل قضية أو ظاهرة تمس مصر والشرق ، قومية كانت هذه القضية أو اجتماعية فكان يعبر عنها بصدق وباحساس متقد ••

وهذا يفسر لنا ان نظرية « الفن للفن » لا تتعارض قط مع « الالتزام » •

فالشاعر ابن بيئته •

ومهما حاول أن يبتكر للأحداث التي تحيط بقومه وبمجتمعه •

ومهما بلغ ايمانه بنظرته « الفن للفن » لا يستطيع ان يفصل « ذاته » عن كيانه وان يتجرد عن « مجتمعه » •

وقد يقول قائل انه مادام شوقى شاعرا فهو وليد تجارب عديدة وأطوار وصور وأحداث ومواقف من المفروض أن يكون بينها ، موقفه الانسانى حيال ما ينظم ٠

ولكن الرد على ذلك يتصل بما يحمله الشاعر بين جنبيه من حساسية مفرطة وعاطفة مشبوبة هى التى تكون بارزة فيما نحن فيه من حديث فان الشاعر يمتاز عن زميله بفارق الحساسية والمشاعر والصدق والعاطفة المتقدة وبهذا يتفاوتون فى الموازين ٠

والشعر ينبع من الشعور وكل ما يثير العاطفة ويلعب بأوتار القلوب فهو شعر ولكن درجات الحساسية والتأثر العاطفى عند تناولهم النواحى الانسانية تتباين فيما يعالجون من أهداف عظام فى نظمهم لما يحسون به ويطرحونه على الناس فى هذا المجال ٠

وان تفانى الفنان فى فنه واندماجه فيه ، حمل فان جوخ الرسام الهولندى الأشهر على أن يقول انه عندما يرسم زهرة يصبح هو نفسه زهرة أى يتجسدها ويصبح هو الزهرة وهذا من فرط اندماجه فيما بين يديه وأمام ناظريه من مادة يريد ان يخضعها لفنه أولا ولمشاعره وأحاسيسه ثانيا ، وهو فى ذلك أشبه ما يكون بالممثل الذى يندمج فى دوره حتى يصبح هو صاحب الشخصية التى يقوم بتمثيلها وليس هو الممثل المعروف بين زملائه باسمه أو شخصه أو صفاته ٠



كانت هذه الظاهرة تتمشى مع شعر شوقى وتنساب حتى تكاد تعم كل ما نظم فى أى باب وفى أى زمان وفى أى مكان فهو انسان يفعم بالانسانية اذا خاطب حجرا فانه يخاطبه كما لو كان انسانا تجرى فى عروقه الدماء ٠ وكان شوقى قد عرف بمحبته للحياة محبة عارمة تحمله على أن يحيط نفسه بكل ما هو حى حتى لو كان جمادا أو نباتا أو حجرا :

اسمعه وهو يخاطب أبا الهول :

تحرك أبا الهول هذا الزمان تحرك ما فيه حتى الحجر
أبا الهول لو لم تكن آية لكان وفاؤك احدى العبر

أو اسمعه وهو ينظر الى بقايا معبد « أنس الوجود » ، « فيله » من أحجار تترنح وهى توشك أن تنقض :

قف بهذى القصور فى اليم غرقى ممسكا بعضها من الذعر بعضا
كعذارى أخفين فى الماء بضا سابحات به وأبدين بضا

لم ينس وهو يخاطب الأحجار حبه للجمال ونظرته الى بياض السيقان التى اختفى منها ما اختفى وكشفت عن أجزاء متها لتغرى بها الناظرين .

وشوقى شاعر موكل بالجمال يعرضه بعد ان يتم صياغته كأتقن ما تكون عليه صياغة الصائغ الفنان ويطرح ما صنع أمام الأعين ويدعو كل البشر للتنعم بهذا الجمال والحسن الأخاذ اينما وجد حسن وحينما أطل جمال من صنع الله فى هذا الوجود :

لا والقوام الذى والأعين اللاتى — ما خنت رب القنا والمشرفيات
ولا سلوت ولم أهم ولا خطرت — بالبال سلواك فى ماض ولا آت
وخاتم الملك للحاجات مطلب — وثغرك المتمنى كل حاجاتى

أو اسمعه يقول :

ردت الروح على المضنى معك — أحسن الأيام يوم أرجعك
مر من بعدك ما روعنى — أترى يا حلو بعدى روعك !
كم شكوت البين بالليل الى — مطلع الفجر عسى أن يطلعك
موقعى عندك لا أعلمه — آه لو تعلم عندى موقعك

وشعر شوقى العاطفى ينم عن نفس عفيفة وقلب يكتوى ويسلم أمره للمقادير وهذه صفات لا تتردد ولا ينبض بها الا قلب من غلبت انسانيته على عاطفته الحسية .

وهو فى عشقه وحبه انسان وفى يحب ويغتر بمن أحب فهو يقول :

بينى وبينك فى الهوى — سبب سيجمعنا متينه
الروح ملك يمينه — تفديه ما ملكت يمينه

وهو صاحب مبدأ فى الحب ، انسانى النزعة ، فهو على يقين من انه مادامت قامت علاقة حب بين انسان وانسان فان هناك وراء الغيب من يرعاها ويحفظها طالما كانت عفيفة طاهرة .

ثم يشكو ما فعلت به العيون شكوى انسانية تسأل الرحمة :

أدارى العيون الفاترات السواجيا — وأشكو اليها كيد انسانها بيا

قتلن ومنين القتيل بالسـن من السحر يبدلن المنايا أمانيـا
وكلمن بالألحـاظ مرضى كليـلة فكانت صحاحا فى القلوب مواضيا



وشوقى من أبرز الشعراء فى تعمقه الأشياء حتى يصل الى اغوارها ثم يتحدث بما أحس وما انتهى اليه من شعور حديث صاحب التجربة من ناحية أخرى .

والفن فى رأيى ، الى جانب تعمقه للحيـاة ، فانه محاولة لاعادة تشكيل المرئيات على نسق ينبع من داخلنا ومن ذات مشاعرنا ومما تركه فينا من أحاسيس ومشاعر .

وسئل فيلسوف عن خير تعريف للفن فأجاب :

الفن هو امتزاج الانسان بالحقيقة والطبيعة . والحقيقة مصـدر الشعور الصادق والطبيعة ملهمة للفنان بما تعرضه من مفاتنها عليه وهى أدرى بما تثيره تلك المفاتن فى النواظر والمشاعر فتكشف عما يوقظ القلب العطوف الشفيف ، وما يزال حتى يختار خيرها ويستأثر بما أثار لبه وعاطفته ويعود للطبيعة التى ألهمته كل هذا البهاء ليرد فضلها ويدها عنده ، بأن يسجل افتتانه بآلته التى اختصه الله بها شعرا أو نثرا أو نقشـا أو نحتا أو لحنا أو غناء .

وكان شوقى يمتزج بالطبيعة فى شعره امتزاجا يتحول فيه الى جزء منها لا انفصام منه عنها فهى فى نظره الانسانى شىء حى والحى يألف الحى .

استمع اليه فى هذا النظم :

هل تيم البان فؤاد الحمام فناح فاستبكى جفون الغمام
أم شقه ما شـفنى فانثنى مبلبل البـال شريد المنـام
يهـزه الأيـك الى الفـه هز الفراش المدنف المسـتهام
وتـوقد الذكرى بأحشـائه جمرا من الشوق حثيث الضرام
كذلك العاشـق عند الدجى ياللهـوى مما يثير الظلام !

والقارىء للشوقيات تستوقفه ظاهرة عجيبة انه يقف أمام رجلين مختلفين جد الاختلاف لا صلة بين أحدهما والآخر . الا ان كليهما شاعر مطبوع يصل فى الشعر الانسانى الى علياء سماواته وأن كليهما مصرى عربى شرقى يبلغ حبه لوطنه مرتبة القداسة والتفانى والعبادة له ، لأنه من خلق الله . أحدهما مؤمن عامر القلب والنفس بالايمان وانسان يقف

نظمه ومشـــاعره على كل ما يتأثر به وجدانه ما اقترب منه مما يثيره أو ما ابتعد عنه غاية البعد ولكنه يتصوره وتحس روحه الشفيفة به ٠

وهو حكيم يرى الحكمة نبراس العقل والايمان وهو متعصب للغته العربية حريص على أن تأخذ مكانها بين أرقى لغات الأرض فانه يراها لغة تتسع لكل صورة وكل فكرة وكل معنى وكل خيال ٠

أما الرجل الآخر فهو رجل دنيا ونعيم يرى ان الله خلق النعيم فى الدنيا ودعا الناس الى التمتع به فهو نعيم كفله الله لأبناء الحياة ليأخذوا منه بنصيبهم وهو متسامح تتسع نفسه للانسانية والوجود كله ٠

وهو مجدد فى اللغة لفظا ومعنى ومبنى لأنه يراها كما يرى كل ما فى الوجود كيانا حيا يجرى عليه ما يجرى على الأحياء ٠

نخلص من هذا الى أن الازدواج الظاهر فى شعر شوقى بين دين ودنيا قد لازمه منذ أول شبابه حتى آخر عمره الا قليلا ٠

وليس للازدواج النفسى عند الشعراء أو انقســـام الشخصية عند الشعراء دخل فى هذا الشأن وأمامنا مثل واضح فى ابى نواس وما كان يقول من شعر يتردد بين الشأنين فهل أبو نواس الذى قال فيما قال :

ألا فاسقينى خمرا وقل لى هى الخمر ... ولا تسقينى سرا اذا أمكن الجهر

هو نفس أبى نواس الذى لبس لبوس الحكماء وذهب يقول :

اذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت ... له عن عدو فى ثياب صديق

أو هو الذى كان يبتهل قائلا :

لبيـــك ان الحمد لك ... والملـك لا شريـك لـــك

وهناك رأى لباحث كبير فى مثل هذه الشئون النفسية ينطوى على منطق صـــائب وتحليل سليم ، فهو يقول ان هذا الأمر ليس ازدواجا فى الروح ٠ وما الحكمة الزاهدة التى هبطت على أبى نواس الا فتور نفس اجهدتها اللذة والمتعة فأضعفتها فأخافها الضعف الذى ألجاها الى حمى الحكمة والزهد والى استغفار الله والتوبة اليه ٠

وشوقى ــ كما ذكرنا ــ من هذا القبيل ففى شعره صورتان من صور الحياة يقوم كل منهما بدوره مستقلا عن الآخر كأنما قائلها شخص أجنبى تماما عن الأول فأنت تقرأ له :

حـــف كأســـها الحبب ... فهى فضـــة ذهـــب

أو يطالعك من شعره قوله :

رمضان ولى هاتها يا ســـاقى   مشتاقة تسعى الى مشـــتاق

وهنا ترى نفسك في حضرة شاعر مغرم بالحياة ومتاعها وأنعمها ، ثم لا تلبث أن ترى صورة مخالفة تردد في خشوع :

ولد الهدى فالكائنات ضـــياء   وفم الزمان تبســم وثنـــاء

أو تراه في موضع آخر يقول في نهج البردة :

ريم على القاع بين البـــان والعلم   أحل سفك دمى فى الأشهر الحرم

يانفس دنيـــاك تخفى كل مبكية   وان بدا لك منها حسن مبتســـم

الى ان يقول ق

لزمت باب أمـــير الأنبيـــاء ومن   يمســـك بمفتاح باب الله يغتنم

وشوقى وهو يتجسد هاتين الشخصيتين انما يكشف عن دخيلة نفس تمتلىء بالحياة والخيال ونور الايمان والتعلق بأسباب السماء واعلاء كلمة الحق لأنه قبل كل ذلك وبعد كل ذلك انسان يفيض حسه بالانسانية وبكل كوامن النفس البشرية التى تعتريها القوة كما يعتريها الضعف .



والشاعر الانسان في مثل نشأة أحمد شوقى وما حباه الله به من فيض عامر فى العاطفة والاحساس والخيال الرفيع والصدق فى التعبير يتدرج مع تاريخ وطنه منذ عهود الفراعنة وما تعاقب على مصر من رفعة تارة وانخفاض تارة أخرى ويقف وقفة المصرى الصـــادق العاطفة حيث تفيض عليه ربة الشعر بما يؤنسه فى هذا الترحال من قصص يرويها عن رمسيس وأبى الهول وتوت عنخ آمون وفرعون موسى الى أن يصـــل الى مصر العربية .

حيث تبين لقـــارىء نظمه ، روحه الانسانيـــة الشفيفة وهى تغوص ليستخرج اللآلىء من أعماق الأحداث ويعرضها فى موكب زاهر براق يبهر الأنظار ويوقظ الأفكار وكأنما هو قيثارة الهية يدفع اليها كل جيل بأصفى نسائمه ، ليتغنى ويشـــدو بأهازيج النصر تارة وبترانيم المسرة طورا وبشجو الألم أحيانا عندما يتعرض شباب ورجال جيله الى منازلة الغضب وما يلقونه على يديه من قهر وطغيان .

وله فى العلم والفن والعمل والجمال والترحال آيات بينات ينساب فيها روح الانسان الداعى الى التمسك بالخلق الصالح على اعتباره قوام الحياة فى الأمم ، وهو يرى ان الخلق القويم خير من الخلق القويم . وله

بيت فى قصيدة طويلة أصبح يتردد على كل لسان ، كما غدا مثلا وبات دستورا يدبر وينظم ويحكم :

وانما الأمم الأخلاق ما بقيت   فان همو ذهبت أخـلاقهم ذهبوا

وقد أكد هذا المعنى الرائع فى غير موضع من الشوقيات منها :

واذا أصـيب القـوم في أخـلاقهم   فأقم عليهـم مأتمـا وعويـلا

وأيضـا :

على الأخلاق خطوا الملك وابنوا   فليس وراءهـا للعـز ركـن

ولم يكن شوقى شاعرا لمصر وحدها فهو شاعر ينبض قلبه الكبير بحب الانسانية أينما وجدت وعلى أية صورة تكون . وهو لذلك لا تراه يفرق بين الأوطان ، فهو هو شاعر مصر كما هو شاعر العرب وشباعر الشرق وشاعر المسلمين وكل الأديان .

وهو فى موقفه من هذه الأحساسيس أشبه ما يكون بالرادار الانسان الذى ترتسم على مخيلته كل ما يقع فى أية بقعة من بقـاع الأرض من نكبات وأحداث أو من اعتزاز باختراع أو اكتشاف يدعو الى الافتخار ويطرح فى شعره المعبر ما أثار وجدانه حيال هذه الأحداث .

ففى العشرينات وقع فى طوكيو زلزال عنيف ، ما أن بلغ نبؤه مسامع الشاعر الانسان شوقى واطلع على فداحة الكارثة حتى بادر بنظم قصيدة طويلة عن النكبة بدأها بقوله :

قف(بطوكيو)وطف على(يوكوهاما)   وسـل القريتين أين القيـامه

قف تأمل مصـارع القوم وانظر   هل ترى من ديار عاد دعـامه

خسفت بالمساكن الأرض خسـفا   وطـوى أهلهـا بسـاط الاقامه

دولة المشرق وهى فى ذروة العز   تحـار العيـون فيهـا فخـامه

الى أن يقول :

لو تأملتها عشـية جاشـت   خلتها فى يد القضـاء حمامه

ثم يمضى يقول :

تجد الأرض راحـة حيث سـالت   راحـة الجسم من وراء الحجامه

مالها لا تضـج مما أقلت   من فسـاد وحملت من ظـلامه

ولقد أحس شوقي بعد عودته الى مصر من بعثته في فرنسا انه ليس شاعر مصر وحدها التي ينتمي اليها فقد كان قلبه وأحاسيسه تجيش بأخيلة وصور ومعان ولغة وبيان تتسابق لتحتل ارادته التي تلبث أن تطيع تلك الأحاسيس الجائشة ليطرحها شعرا علوى النسق والنسيج . فهو اذن موكل برسالة وهو اذن ممن أمسكت بهم شرارة الفن المقدسة فكيف يقنع بأن يكون شاعر مصر انه شاعر العرب أجمعين وشاعر المسلمين وشاعر كل العقائد وشاعر الشرق ووجد أن هذه المسئولية التي هي ارادة علوية مقدسة تتطلب منه ان يوفر لها أثمن ما لديه من أخيلة وصور ومعان ليكون شاعر اللغة العربية السليمة طالما كان هو لسانها وخطيبها والسباق الى ذكر مناقب العرب وما كان لهم منذ الفتح الاسلامي من عز وسؤدد ، ومن آثار ماتزال شاهدة على ما كانوا عليه من قوة ومعرفة وحضارة كان عليه ان يتزود من كتب الأقدمين ودواوين الشعر العربي الرصين منذ العصر الجاهلي حتى العصر الاسلامي عندما كان في مجده التليد .

ومما لا شك فيه ان الحكمة التي يستمدها شوقي من انسانيته التي تفيض بها مشاعره تجدها تسري في وصفه وفي غزله وفي رثائه وفي تهانئه وفي استخلاص العبرة من الأحداث التي تقع حوله بلسان عربي فصيح مبين منذ ان كان هو سجل هذه الأمة العربية والمتحدث عن أدق الأحاسيس الانسانية التي يراها في زهر أو جماد أو انسان .

وهو في كل ما نظم لا يشعر له بأنه تأثر بالحياة الغربية الا بمقدار ما تحتاج اليه الأمة العربية من نصح أو ارشاد أو تقليد لفضيلة يحسن انتاجها لفظه ومعناه ، ومرد ذلك الى ما رآه من ضرورة مقاومة النزعة القائمة التي تتحكم في نفوس كثيرة وتعمل على اهمال ما خلف السلف من تراث والأخذ بكل ما هو جديد أو مستحدث .

وهو في بعثه للقديم انما يصـــدر عن انســـانية تتشبث بالحياة ، وبالقديم ، فهو ادخال ما يزيد هذه الحياة نضارة وقوة وازدهارا هو ما رآه واجبا يحمل هو مسئوليته ويتولى شأن تقويمه .

فهو يعمد الى بعث القديم من الألفاظ التي نسيها الناس وتنكروا لها وسر ذلك عند شوقي ان البعث وسيلة من وسائل التجديد وعودة الروح . بل قد يكون البعث أكثر وسائل التجديد انتشارا ونجاحا والتجديد له الى جانب ربط السلف بالخلف معنى انساني يتمثل في الوفاء وتوقير القـــديم .

وشعر شوقي مليء بالأمثلة الدالة على قدرة فائقة لا تجارى في بعثه لألفـــاظ قديمة ، وأفاضته عليها من رقيق شعره ما يجعلهـــا تتسع لما لم تكن تتسع له من قبل من المعاني والأخيلة والصور ، وهكذا نراه

خلاقا ومبدعا وباعثا الحياة فى ألفاظ وجمل وتراكيب أوشكت أن تندثر ، فمضى كالطبيب الماهر يضفى عليها من عرفانه وقدراته بما يمدها بالحياة لأنه محب للحياة ولأنه ينظر الى كل ما حوله بمنظار انسانى تشيع فى جوانبه الحركة والقوة والنماء فهو انسان يحب كل انســـان مادام هذا الانسان قادرا على العطاء الطيب ومتمتعا بالخلق السوى فهو يرى ان الأخلاق هى أصل الحياة وركيزة الانسانية وقوام كل عمل جليل ٠

وهو يمجد كل شىء يعطى ويبعث الحياة ويمقت كل ما يدمر الحياة أو من يدمرها ويهلك من على الأرض بغرض القوة والسلطان ٠ ولأنه شاعر فهو محب للسلام وللجمال وللخير ويرى الحياة من حوله ربيعا مزدهرا بأينع الأزهار تؤنسه زقزقة العصافير ونواح الأطيار ، اسمعه فى موقف من هذه المواقف :

وشـدت فى الربا الرياحين همسا — كتغنى الطروب فى وجـدانه

نغم فى السـماء والأرض شـتى — من معـانى الربيع أو ألحانه ٠٠

الوطنيــة فى الشوقيات

فى قصـائده شوقى يسطع نور الوطنية ويتأجج لهيبها وهو أغزر الشعراء مادة وأوسعهم انتاجا فى هذه الناحية ولقد ظل يسـتلهم روح الوطنيـة طول حياته شابا وكهلا وشيخا ، بل ان شـعره الوطنى فى شيخوخته كان أقوى منه فى شبابه وقد يكون مرجع ذلك الى تجرده من الاتصال بالقصر بعد خلع الخديو عباس حلمى ثم الى نفيه من مصر فى أوائل الحرب العالمية الأولى ، فأثار البعد عن الوطن شاعريته وجاد بأبدع قصائده فى الحنين الى مصر وحبه لها والهيام بهـا الى درجة التقديس ومرجع ذلك أيضا الى تأصل عبقرية الشعر فى نفسه فلم تضعفها السن ولم ينال منها الزمن وظلت قوية تتدفق حيوية ونشاطا ٠

والوطنية فى شعر شوقى هى فيض الفطرة والالهام وليست من صنع الظروف أو التكلف ولذلك جاءت قوية جارفة عميقة رائعة ٠

فتأمل فى أول قصيدة فى ديوانه وهى التى قالها فى المؤتمر الشرقى الدولى المنعقد بمدينة جنيف عام ١٨٩٤ ومطلعها :

همت الفلك واحتواهـــا المـــاء — وحداهـــا بمن تقل الرجـــاء

تجدها آية فى شعر الملاحم أو الشعر التاريخى وتحس وأنت تقرؤها انها قبس من نور الوطنية فهى سجل ناطق (لكبار الحوادث فى وادى

النيل) وقد بلغ عدد أبياتها (تسعين ومائتى بيت) وعرض فيها عرضا أخاذا بديعا تاريخ مصر من أقدم العصور الى عام نظمها أشاد بعظمتها ومجد مفاخرها وحنا عليها فى كبواتها واستنزل السخط على كل من اعتدى عليهـــا ٠

فانظر الى قوله عن عظمة مصر :

قل لبان بنى فشـــاد فغـــالى ... لم يجز مصر فى الزمـــان بنـــاء

وقد سارت نهضة الشعر فى مصر الى جانب النهضة الوطنية التى هبت لمقاومة الاحتلال ومن هنا جاءت صلة الزعيم مصطفى كامل بشعراء عصره وكانت دعوته الوطنية تلقى صدى وتأييدا فى قصائدهم الغر بحيث يمكن القول بأن الشعر لم يتألق فى سماء مجده مثلما تألق فى عهد مصطفى كامل ومحمد فريد ٠

وقد ظهر التجاوب بين دعوة مصطفى كامل وشعر شوقى وزاد فى هـذا التجاوب أن شـوقى كان صـديقا حميما لمصطفى وكلاهما معجب بصاحبه أيما اعجاب ولا غرو فهما صنوان وفرسا رهان ٠ هذا فى ميدان الوطنية والجهاد وذلك فى دولة الشـعر والبيان ، وكان شـوقى يعتز بصداقته لمصطفى ومشاركته اياه فى تعهده الروح الوطنية وغرسها فى نفوس الجيل والى ذلك يشير فى قصيدته عن ذكرى مصطفى كامل سنة ١٩٢٥ اذ يقول فيها مخاطبا الفقيد :

أتذكر قبل هذا الجيـــل جيـــلا ... سهرنا عن معلمهـــم ونامـــا ؟
مهـــار الحق بغضنا اليهـــم ... شـــكيم القصرية واللجامـــا
(لواؤك) كان يسـقيهم بجـــام ... وكان الشـــعر بين يدى جامـــا
من الوطنيـــة اســـتبقوا رحيقـــا ... فضضنا عن معتقهـــا الختامـــا

وكان مصطفى يصف شوقى بأنه « الغدير الصافى فى القاف الغاب يسقى الأرض ولا يبصره الناظرون » وكان يخصص لقصائده اسمى مكان فى (اللواء) وفى ذلك يقول شوقى فى مرثاته الخالدة :

قد كنت تهتف فى الورى بقصائدى ... وتجـــل فـــوق النيرين مكـــانى

حبـــه وتقديسه للوطن

ان حب شوقى للوطن يتمشى فى معظم قصائده مما تراه فى ديوانه التى بلغ فيها حبه للوطن درجة التقديس والعبادة مما يجعلها تسير مسرى

الحكم والأمثال على تعاقب السنين والأجيال وتبعث فى نفوس المواطنين روح الاخلاص العميق للوطن والفناء فيه .

كقوله سنة ١٩٢٠ بعد عودته الى مصر من منفاه :

ويا وطنى لقيتك بعد يأس كأنى قد لقيت بك الشبابا
ولو أنى دعيت لكنت دينى عليه أقابل الحتم المجابا
أدير اليك قبل البيت وجهى اذا فهت الشهادة والمتابا

وقوله سنة ١٩٢٤ مخاطبا الشباب :

وجه الكنانة ليس يغضب ربكم ان تجعلوه كوجهه معبودا
ولوا اليه فى الدروس وجوهكم واذا فرغتم . فاعبدوه هجودا
ان الذى قسم البلاد حباكمو بلدا كأوطان النجوم مجيدا
قد كان ــ والدنيا لحود كلها ــ للعبقرية والفنون مهودا

وقوله وهو فى منفاه :

وطنى لو شغلت بالخلد عنه نازعتنى اليه فى الخلد نفسى

أى انه لو شغل عن الوطن بجنة الخلد وسكنها لبقيت نفسه تهفو الى الوطن وتنزع اليه . وقوله من قصيدته سنة ١٩٢٦ فى نكبة دمشق من الاستعمار الفرنسي :

وللأوطان فى دم كل حر يد سلفت ودين مستحق
وللحرية الحمراء باب بكل يد مضرجة تدق

وقوله :

لا تلوماها اليست حرة وهوى الأوطان للأحرار دين

وقال سنة ١٩٠٤ :

احبك مصر من أعماق قلبى وحبك فى صميم القلب نام

وبلغ حبه لمصر أن جعلها كعبة اشعاره قال :

وانى لغريد هذا البطاح تغذى جناها وسلسالها
ترى مصر كعبة أشعاره وكل معلقة قالها

وحدة وادى النيـــل

وقال فى يولية سنة ١٩٢٤ عن وحدة وادى النيل :

وان نرتضى ان تقـد القنـــاة ويبتر من مصر سودانهـــا
فمصر الريـاض وسودانهـــا عيـون الرياض وخلجانهـــا
وما هـــو مـــاء ولكنـــه وريد الحيـــاة وشريانهـــا
تتمم مصـــر ينـــابيعه كمـــا تمم العـين انسانهـــا
وأهلوه منـــذ جـرى عذبه عشيرة مصر وجيرانهـــا

ويحيى النهضة النسائية

كان مؤيدا ونصيرا لنهضة المرأة . ألقى هذه القصيدة سنة ١٩٢٤ فى جمع حافل من السيدات المصريات بمسرح حديقة الأزبكية وجعـل عنوانها فى ديوانه (مصر تجدد مجدها بنسائها المتجددات) قال :

قم حى هـــذى النـــيرات حى الحســـان الخـــيرات
واخفض جبينـــك هيبـــة للخـــرد المتخفـــرات
زيـن المقـــاصر والحجـــا ل وزين محـراب الصـــلاة
هـــذا مقـــام الأمهـــا ت فهل قدرت الأمهـــات ؟
لا تلـــغ فيـــه ولا تقـــل غـير الفواصـــل محكمـات
واذا خطبت فـــلا تكـــن خطبـــا على مصر الفتـــاة
اذكـر لهـــا اليـــابان لا أمـــم الهـــوى المتهتكـــات
ماذا لقيت من الحضـــا رة يا أخـــى الترهـــات
لم تلـــق غـــير الرق من عسر على الشرقى عـــنات
خـــذ بالكتـــاب وبالحديـــث وسـيرة السلف الثقات
وارجـــع الى ســـنن الخليـــقة واتبـــع نظم الحيـــاة
هـــذا رســـول الله لـــم ينقص حقـــوق المؤمنـــات

ويدعو الى الوحدة الوطنية

من قصيدة له فى رثاء بطرس غالى سنة ١٩١٠ :

الحق أبلج كالصباح لناظر … لو أن قوما حكموا الأحلاما
أعهدتنا والقبط الا أمة … للأرض واحدة تروم مراما
نعلى تعاليم المسيح لأجلهم … ويوقرون لأجلنا الاسلاما
الدين للديان جل جلاله … لو شاء ربك وحد الأقواما
يا قوم بان الرشد فاقصوا ما جرى … وخذوا الحقيقة وانبذوا الأوهاما
هذى ربوعكم وتلك ربوعنا … متقابلين نعالج الأياما
هذه قبوركم وتلك قبورنا … متجاورين جماجما وعظاما
فبحرمة الموتى وواجب حقهم … عيشوا كما يقضى الجوار كراما

قال مخاطبا الشباب فى قصيدة نظمها سنة ١٩٢٤ :

يا شباب الغد وابناى الفدا … لكم أكرم وأعزز بالفداء
هل يمد الله لى العيش عسى … أن أراكم فى الفريق السعداء
وأرى تاجكم فوق السها … وأرى عرشكم فوق ذكاء
من رآكم قال مصر استرجعت … عزها فى عهد (خوفو) و (مناء)
أمة للخلد ما تبنى اذا … ما بنى الناس جميعا للعفاء
انما مصر اليكم وبكم … وحقوق البر أولى بالقضاء
عصركم حر ومستقبلكم … فى يمين الله خير الأمناء
لا تقولوا حطنا الدهر فما … هو الا من خيال الشعراء
هل علمتم أمة فى جهلها … ظهرت فى المجد حسناء الرداء
باطن الأمة من ظاهرها … انما السائل من لون الاناء
فخذوا العلم على أعلامه … واطلبوا الحكمة عند الحكماء
واقرءوا تاريخكم واحتفظوا … بفصيح جاءكم من فصحاء
أنزل الله على ألسنتهم … وحيه فى أعصر الوحى الوضاء
واحكموا الدنيا بسلطان فما … خلقت نضرتها للضعفاء
واطلبوا المجد على الأرض فان … هى ضاقت فاطلبوه فى السماء !

ويدعو الى انكار الذات

وقال مخاطبا الشباب فى قصيدة قالها سنة ١٩٢٤ :

قالوا أتنظم للشباب تحية ... تبقى على جيد الزمان قصيدا
قلت الشباب أتم عقد مآثر ... من أن أزيدهمو الثناء عقودا
قبلت جهودهم البلاد وقبلت ... تاجا على هامتهم معقودا
خرجوا فما مدوا حناجرهم ولا ... منوا على أوطانهم مجهودا
خفى الأساس عن العيون تواضعا ... من بعد ما رفع البناء مشيدا

وتنساب فى شعر شوقى الحكم والعظات يخاطب بها مواطنيه ويبصرهم بعبر التاريخ وعظات الحوادث مما نذكر طرفا منه .

قال عن جلال الملوك وانه الى زوال ولا يبقى الا جلال الخلود :

جلال الملك أيام وتمضى ... ولا يمضى جلال الخالدينا

وقال سنة ١٩٢٣ عن الخلود وانه للعمل الصالح :

من سره ان لا يموت فبالعلى ... خلد الرجال وبالفعال النابه
ما مات من حاز الثرى آثاره ... واستولت الدنيا على آدابه
قل للمدل بماله وبجاهه ... وبما يحل الناس من أنسابه
هذا الأديم يصد عن حضاره ... وينام ملء الجفن عن غيابه
الا فتى يمشى عليه مجددا ... ديباجتيه معمرا لخرابه

وقال سنة ١٨٩٤ فى أول قصيدة له فى ديوانه ينبه الملوك الى قوة الشعوب ويدعوهم الى النزول على حكمها :

إن ملكت النفوس فابغ رضاها ... فلها ثورة وفيها مضاء
يسكن الوحش للوثوب من الأسر فكيف الخلائق العقلاء ؟
يحسب الظالمون ان سيسودو ... ن وإن لن يؤيد الضعفاء
والليالى جوائر مثلما جا ... روا وللدهر مثلهم أهواء

وقال سنة ١٩٢٢ يبشر بحكم الشعوب وزوال حكم الفرد :

زمان الفرد يا فرعون ولى   ودالت دولة المتجبرينا
وأصبحت الرعاة بكل أرض   على حكم الرعية نازلينا

وقال سنة ١٩٢٣ يندد بالمستبدين :

للمستبد يطاق في ناووسه   لا تحت تاجيه وفوق وثابه
والفرد يؤمن شره في قبره   كالسيف نام الشر خلف قرابه

وقال في هذا المعنى يخاطب توت عنخ آمون سنة ١٩٢٥ :

قسما بمن يحيي العظا   م ولا أزيدك من يمين
لو كان من سفر ايا   بك أمس أو فتح مبين
لرأيت جيلا غير جيـ   ـلك بالجبابر لا يدين
ورأيت محكومين قد   نصبوا وردوا الحاكمين
روح الزمان ونظمه   وسبيله في الآخرين
ان الزمان وأهله   فرغا من الفرد اللعين
فاذا رأيت مشايخا   أو فتية لك ساجدين
لاق الزمان تجدهمو   عن ركبه متخلفين
هم في الأواخر مولدا   وعقولهم في الأولين

ونظم هذه القصيدة الرائعة يتغنى فيها بالنيل ، فصور الحياة للوادي وأهله وأبدع في وصف روعته وجماله وجلاله ثم انتقل الى قدماء المصريين ومفاخرهم :

من أي عهد في القرى تتدفق   وبأي كف في المدائن تغدق
ومن السماء نزلت أم فجرت من   عليا الجنان جداولا تترقرق
وبأي عين أم بأية مزنة   أم أي طوفان تفيض وتفهق
وبأي نول أنت ناسج بردة   للضفتين جديدها لا يخلق
تسود ديباجا اذا فارقتها   فاذا حضرت اخضوضر الاستبرق
أتت الدهور عليك مهدك مترع   وحياضك الشرق الشهية دفق

تسـقى وتطعم لا اناؤك ضـائق بالواردين ولا خوانـك ينفـق

والمـاء تسـكبه فيسبك عسجدا والأرض تغرقها فيحيا المغـرق

تعي منابعك العقول ويستـوى متخبـط في علمهـا ومحقق ..

وظل شوقى يتغنى بالوطنية ويغرد للمواطنين الناطقين بالضـاد جميعا ألحان الحرية ويسمعهم أسمى معانى الانسانية حتى أدركته الوفاة وظل شعره بعد وفاته وسيظل على الدوام رمزا للحكمة والحرية والخلود .

تفسير الأحلام

سيجموند فرويد

١٩٠٠ م

تشغل الأحلام بال الناس منذ القدم وحتى وقتنا الحاضر تهتم نسبة كبيرة من الأفراد بأحلامهم ويحاولون ايجاد تفسير لها والتعرف على دلالتها ، وقد تسبب لهم أحلامهم الكثير من الحيرة والقلق !

والواقع ان هناك كتابات عديدة تعرض لآراء بالنسبة للأحلام ودلالتها وأسلوب تفسيرها ومن أشهر هذه الكتابات ما كتبه سيجموند فرويد فى كتابه « تفسير الأحلام » ·

والواقع أن فرويد قد أسهم فى القاء كثير من الضوء على جوانب عديدة من الأحلام ومنها الدوافع اللاشعورية على الأحلام ·



ما من شخص أثار فى علم النفس من الضجيج والعجيج قدر ما أثاره فرويد الطبيب النمساوى الذى بدأ حياته الطبية مختصا بعلم الفيزيولوجيا (علم وظائف الأعضاء) وأنهاها بوصفه أبا للتحليل النفسى وصاحب مدرسة فيه ·

على انه من غير الممكن أن تفهم فرويد وعمله اذا لم تلم ببعض الحقائق الأساسية :

وأولها : ان مؤرخى علم النفس الحديث متفقون على ان علم النفس الحديث على صلة وثيقة بعلم الفيزيولوجيا الحديث والحق أن علم النفس الحديث ولد على يد العالم الألمانى (فنت) فى مختبر بلايبزج الذى أسسه عام ١٨٧٩ ·

وقل الشيء نفسه عن فرويد وهو طبيب مختص بعلم الفيزيولوجيا · وبافلوف وهو عالم الفيزيولوجيا الروسى وآدلر وهو طبيب نمساوى وغيرهم كثير ·

وثانيهما : ان فرويد حلقة فى سلسلة من الأطباء الذين اهتموا بالأمراض النفسية والجسدية (وكانت تسمى عصبية) وأشهرهم (شاركو) الفرنسى وتلميذه (جانيه) الفرنسى أيضا وقد تتلمذ فرويد على أولهما ثم انتقل من مدرسته الى مدرسة (نانسى) فى فرنسا أيضا · وكلتا المدرستين كانت تستعمل التنويم (المغناطيسى) علاجا للأمراض العصبية النفسية على أن المهم فى هذا الصدد كون الجو العلمى مهيئا لهذه الدراسات مما مهد لظهور فرويد ·

وثالثهما : ان فرويد عاش فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين وشهد النهضة الصناعية الجبارة التى اجتاحت أوروبا وتعقد الحياة الاجتماعية فى المجتمعات الأوروبية وتشابك العلاقات الانسانية بين أفراد هذه المجتمعات ٠

ورابعها : ان فرويد يهودى وانه كان ليهـــوديته دخل كبير فى صياغة الكثير من نظرياته وفرضياته وتعليلاته ذلك بأنه كان ينتمى الى أقلية مكروهة بحكم صفاتها المعروفة التى أقل ما ينسب اليها حب المال والانغلاق والتعصب والتوحيد بين القومية والدين والمطامح الاقتصـــادية والحنين الى الماضى والعمل على بناء وطن قومى من نوع محدد ٠ وكان ذلك ضمن اطار معين ٠

حيـــاة فرويـــد

ولد سيجموند فرويد فى عام ١٨٥٦ من أبوين يهوديين فى مدينة فرايبرج بمورافيا التى تعرف الآن بتشيكوسلوفاكيا وفى سن الرابعـة انتقل مع أسرته الى مدينة فيينا حيث نشأ ودرس الطب فى جامعتها ٠

وقد اهتم فرويد اهتماما خاصا بالأبحاث الفسيولوجية والتشريحية المتعلقة بالجهاز العصبى واشتغل وهو لا يزال فى معمل ارنست بروك الفسيولوجى وقام بعدة أبحاث فى تشريح الجهاز العصبى ٠ وفى عام ١٨٨١ حصل على الدكتوراه فى الطب وعين مساعدا لارنست بروك فى معمله وفى عام ١٨٨٢ اشتغل طبيبا فى المستشفى الرئيسى بفيينا ونشر بعض الأبحاث المهمة فى تشريح الجهاز العصبى وفى الأمراض العصبية مما لفت اليه الأنظـار ٠ وفى عام ١٨٨٥ عين محاضرا فى علم أمراض الجهـاز العصبى ٠

ونشأت فى تلك الفترة صـداقة بين فرويد وجوزيف بروير أحد أطباء فيينا المشهورين وقد تأثر فرويد به تأثرا كبيرا ٠ وقد كان بروير يستخدم الايحاء التنويمى فى معالجة مرضاه واكتشف أثناء علاجه لفتاة مصابة بالهستيريا أن المريضة ذكرت أثناء نومها حوادث ماضية لم تستطع تذكرها أثناء اليقظة ورأى بروير ان ذكر المريضة لهذه الحوادث والتجارب الشخصية القديمة والافضاء بالعواطف والانفعالات المتعلقة بها والتى كانت من قبل مكبوتة كان له أثر كبير فى شفاء المريضة وقد سمى بروير فيما بعد هذه الطريقة فى العلاج « بطريقة التفريغ » وذكر بروير لفرويد قصة علاجه لتلك الفتاة فأعجب فرويد بطرافتها وبنجاحها فى شفاء المريضـة ولكنه لم يعلق عليها فى ذلك الوقت أهمية كبيرة ٠

وفى عام ١٨٨٥ رحل فرويد الى باريس للدراسة فى جامعة سالبتربير حيث كان شاركو يقوم بأبحاثه فى الهستيريا وشاهد فرويد بنفسه بعض هذه الأبحاث التى أثبتت امكان احداث أعراض الهستيريا بالايحاء التنويمى وامكان ازالتها بالايحاء أيضا وقد أكدت هذه التجارب التشابه التام بين الهستيريا التى تحدث عن الايحاء وبين الهستريا التى تشاهد بين المرضى ثم عاد فرويد الى فيينا عام ١٨٨٦ واشتغل طبيبا خاصا مع استمراره فى وظيفته التدريسية وأخذ فرويد فى تطبيق ما تعلمه من شاركو وحاول اقناع أطباء فيينا أن بامكانه احداث الهستيريا بالايحاء التنويمى فقوبل بمعارضة شديدة غير ان فرويد استمر فى مواصلة بحثه العلمى كطبيب خاص يعالج مرضاه بوساطة الايحاء التنويمى · ولم يلبث فرويد طويلا حتى اتضحت له بعض العيوب فى فنه التنويمى اذ تبين له انه لا يستطيع أن ينوم بعض مرضاه وقد جعله ذلك يشعر بأنه لا يزال فى حاجة الى تحسين فنه التنويمى فسافر فى عام ١٨٨٩ الى مدينة نانسى بفرنسا وقضى فيها عدة أسابيع فى اتصال بالطبيبين ليبولت وبرنهايم ·

ولما عاد فرويد بعد ذلك الى فيينا جدد اتصاله العلمى فى أسباب الهستيريا وطرق علاجها وقد نشرا معا فى عام ١٨٩٣ بحثا فى « العوامل النفسية للهستيريا » وفى عام ١٨٩٥ نشرا كتاب « دراسات فى الهستيريا » ويعتبر هذا الكتاب الأخير نقطة تحول مهمة فى تاريخ علاج الأمراض العقلية والنفسية فقد احتوى على البذور الأولى التى نمت منها فيما بعد نظرية التحليل النفسانى وقد أشار المؤلفان فى هذا الكتاب الى أهمية الدور الذى تلعبه الحياة العاطفية فى الصحة العقلية وبينا ضرورة التمييز بين الحالات العقلية الشعورية وبين الحالات العقلية اللاشعورية وذهبا الى أن الأعراض الهستيرية تنشأ عن كبت الميول والرغبات فتتحول تحت تأثير هذا الكبت عن طريقها الطبيعى وتتخذ لها منفذا عن طرق شـــاذة غير طبيعية هى الأمراض الهستيرية · وشرح المؤلفان « طريقة التفريغ » وبينـــا قيمتهـــا العلاجية فى شفاء الهستيريا · وتتلخص هذه الطريقة فى حث المريض أثناء التنويم المغناطيسى على تذكر الحوادث والخبرات الشخصية الماضية وعلى « التنفيس » عن العواطف والانفعالات المكبوتة ولذلك سميت هذه الطريقة فى العلاج بطريقة التفريغ · ويرجع الفضل فيما جاء فى هذا الكتاب من آراء جديدة الى « بروير » كما اعترف بذلك فرويد نفسه وقد ساعدت ملاحظات فرويد وتجاربه العديدة على تأييد آراء بروير واثبات صحتها ·

ثم أخذت آراء فرويد تختلف عن آراء بروير فدب بينهما الخلاف وانقطعت بينهما الصلة وحدث أول خلاف بينهما حينما حاولا تفســير

العوامل النفسية المسببة للهستريا ففسر بروير الانحلال العقلى الذى يصاحب الهستريا بانقطاع الصلة بين حالات النفس الشعورية وفسر الأعراض الهستيرية بحالات شبه تنويمية ينفذ أثرها الى الشعور • أما فرويد فقد كان يرى أن الانحلال العقلى يحدث نتيجة صراع الميول وتصادم الرغبات واعتبر الأعراض الهستيرية أعراضا دفاعية نشأت تحت ضغط الدوافع المكبوتة فى اللاشعور التى تحاول التنفيس عن نفسها بشتى الطرق ولما كان ظهور هذه الدوافع المكبوتة فى الشعور أمرا غير مقبول للنفس فانها تحاول التنفيس عن نفسها بطريق غير طبيعية هى الأعراض الهستيرية • وحدث الخلاف الثانى بين فرويد وبروير حينما أخذ فرويد الغريزة الجنسية السبب الأول فى حدوث الهستيريا ولم يوافق بروير على هذا الرأى وعارض فرويد فيه كما عارضه فى ذلك جمهور الأطباء فى عصره •

ومنذ ذلك الوقت أخذ فرويد يواصل أبحاثه منفردا فى عزم لا يلين وفى ثبات لم تزعزعه هجمات خصومه وبدأت تكشف له ملاحظاته وأبحاثه عن الدور المهم الذى تلعبه الغريزة الجنسية فى مرض الهستيريا وقد دفعه ذلك الى توسيع دائرة بحثه فأخذ يدرس الأنواع الأخرى من الأمراض العصابية ويبحث عن علاقة الغريزة الجنسية بها وقد أدت أبحاثه الى اقتناعه بأن اضطراب الغريزة الجنسية هى العلة الرئيسية فى جميع هذه الأمراض •

كان فرويد حتى الآن يستخدم « طريقة التفريغ » أثناء التنويم وهى الطريقة التى اكتشفها بروير ثم أخذ فرويد يفطن الى ما فى التنويم من عيوب فرأى ان بعض المرضى لا يمكن تنويمهم كما رأى أيضا أن الشفاء الذى ينتج عن التنويم كان مقصورا فقط على ازالة الأعراض المرضية ولم يتناول العلل الرئيسية التى تنتج عنها هذه الأعراض كما ان الشفاء كان وقتيا فقط لا يلبث ان يزول أثره بعد فترة طويلة أو قصيرة فتعود الأعراض نفسها أو غيرها الى الظهور مرة أخرى • ورأى فرويد أيضا ان نجاح العلاج يتوقف على استمرار العلاقة بين المريض وطبيبه ودعاه ذلك الى أن يفطن الى أهمية الدور الذى تلعبه الرابطة الانسانية فى العلاج ولم تكن الرابطة الانسانية تظهر بوضوح أثناء التنويم المغناطيسى •

لكل هذه الاعتبارات رأى فرويد أن يعدل من استخدام التنويم وبدأ يحث مرضاه عن طريق الايحاء وهم فى حالة اليقظة على تذكر الحوادث والتجارب الشخصية الماضية •

ثم ظهرت لفرويد — فيما بعد — عيوب هذه الطريقة أيضا فقد وجد أنه لا يستطيع دائما باستخدام الايحاء وحده دفع مرضاه الى تذكر الحوادث

والتجارب الشخصية الماضية التى سببت مرضهم ، هذا فضلا عما فى هذه الطريقة من مشقة وارهاق لكل من الطبيب والمريض فرأى فرويد أن يعدل عن هذه الطريقة وبدأ يطلب فقط من مرضاه ان يطلقوا العنان لأفكارهم تسترسل من تلقاء نفسها دون قيد أو شرط وطلب منهم أن يفوهوا بكل ما يخطر ببالهم أثناء ذلك من أفكار وذكريات ومشاعر دون اخفاء أى شيء عنه مهما كان تافها أو معيبا أو مؤلما وتعرف هذه الطريقة التى ابتكرها فرويد بطريقة « التداعى الحر » .

وباستخدام التداعى الحر بدأت تنكشف أمام فرويد حقائق مهمة لم يكن من المستطاع الاهتداء اليها من قبل حينما كان العلاج يتم فقط أثناء التنويم . ابتدأت تتضح لفرويد الأسباب التى تجعل تذكر بعض الحوادث والتجارب الشخصية الماضية أمرا صعبا فقد رأى أن معظم هذه التجارب مؤلم أو مشين للنفس وهكذا بدا لفرويد أن سبب نسيانها هو كونها مؤلمة أو مشينة . ولهذا السبب كانت اعادتها الى الذاكرة أمرا شاقا يحتاج الى مجهود كبير للتغلب على المقاومة الشديدة التى كانت دائما تقف ضد ظهور هذه الذكريات فى الشعور ومن هذه الملاحظات كون فرويد نظريته المهمة فى الكبت التى قال عنها انها الحجر الأساسى الذى يعتمد عليه جميع بناء التحليل النفسانى وأهم جزء فيه .

وذهب فرويد الى أن الكبت يحدث فى الأصل عن الصراع بين رغبتين متضادتين وذكر نوعين من الصراع بين الرغبات يحدث أحدهما فى دائرة الشعور وينتهى بحكم النفس فى صالح احدى الرغبتين والتخلى عن الأخرى وهذا هو الحل السليم للصراع الذى يقع بين الرغبات المتضادة ولا ينتج عنه ضرر للنفس وانما يقع الضرر من النوع الثانى من الصراع الذى تلجأ فيه النفس بمجرد حدوث الصراع الى صد احدى الرغبتين عن الشعور وكبتها دون اعمال الفكر فى هذا الصراع واصدار حكمها فيه وينتج عن ذلك ان تبدأ الرغبة المكبوتة حياة جديدة شاذة فى « اللاشعور » وتبقى هناك محتفظة بطاقتها الحيوية المحبوسة وتظل تبحث عن مخرج للانطلاق ، فتجده فى الأعراض المرضية التى تنتاب العصابيين . وعلى ضوء هذا التفكير رأى فرويد أن مهمة الطبيب النفسانى ليست هى دفع المريض الى (التفريغ) و (التنفيس) عن الرغبات المكبوتة كما كان يفعل بروير وفرويد من قبل بل هى الكشف عن الرغبات المكبوتة لاعادتها مرة أخرى الى دائرة الشعور لكى يواجه المريض من جديد هذا الصراع الذى فشل فى حله سابقا ، فيعمل الآن على حله باصدار حكمه فيه تحت ارشاد الطبيب النفسانى وتشجيعه . وبعبـــارة أخرى أصـبحت مهمة الطبيب النفسانى هى احلال الحكم الفعلى محل الكبت اللاشعورى . ومنذ ذلك الوقت أخذ فرويد يسمى طريقته فى العلاج بالتحليل النفسانى .

قضى فرويد عشر سنوات (١٨٩٦ ــ ١٩٠٦) منذ انفصال بروير عنه يعمل منفردا فى جمع ملاحظاته ومواصلة أبحاثه وتكوين نظرياته فى وقت حرمته المجتمعات العلمية كل تشجيع وتأييد • ثم ابتدأت الأمور تتبدل ابتداء من عام ١٩٠٢ حينما التف حوله لأول مرة قليل من شباب الأطباء المعجبين بنظريته الجديدة بقصد تعلم مبادئها واكتساب الخبرة فيها ثم أخذ عددهم يزداد رويدا رويدا وبدأ ينضم اليهم أفراد من غير الأطباء من أهل الأدب والفنون •

ثم أخذت المعرفة بالنظرية الجديدة تنتشر بين الأطباء فى كثير من البلاد وخاصـــة فى سويسرا حيث اكتسبت الحركة الجديدة صداقة « أوجين بلولر » المشرف على معهد الأمراض العقلية بالمستشفى العـــام بمدينة زيوريخ ، ويونج أحد مساعدى بلولر • وفى عام ١٩٠٨ عقد أول مؤتمر للتحليل النفســانى بمدينة زيوريخ بدعوة من يونج حيث تقرر إصدار مجلة التحليل النفسانى تحت ادارة فرويد وبلولر وأسندت رياسة التحرير الى يونج وكان ذلك بدء صفحة جديدة فى تاريخ حركة التحليل النفسانى •

وفى عام ١٩٠٩ دعت جامعـــة كلارك بالولايات المتحدة الأمريكية فرويد ويونج للاشتراك فى احتفال الجامعة لمناسبة مرور عشرين عاما على تأسيسها فاستقبل فرويد وزميله فى أرض الدنيا الجديدة استقبالا رائعا وقوبلت محاضرات فرويد الخمس والمحاضرتان اللتان ألقاهما يونج بجامعة كلارك مقابلة حسنة •

وفى سنة ١٩١٠ عقد المؤتمر الثانى للتحليل النفسانى فى مدينة نورمبرج حيث تم تأليف « جمعية التحليل النفسانى الدولية » وتقرر فى ذلك المؤتمر اصدار نشرة دورية تكون رابطة الاتصال بين الجمعية الرئيسية وبين فروعها الأخرى فى برلين برياسة أبراهام وفى زيوريخ برياسة يونج وفى أثينا برياسة ألفرد ادلر وبعد ذلك أصدر ادلر وشتيكل مجلة ثانية للتحليل النفسانى فى فيينا •

ثم توالت بعد ذلك مؤتمرات جمعية التحليل النفسانى وتكونت لها فروع فى معظم الأقطار الغربية وأخـــذت تعاليم التحليل النفســانى فى الانتشار وبدأت تجلب اليها كثيرا من الأصدقاء والأتباع لا من رجال الطب فقط بل من رجال العلوم والفنون المختلفة أيضا •



اتفق على ان علم النفس يختلف عن سائر فروع المعارف الأخرى فى انه أكثرها غموضـــا وأعظم لغز بينهـــا ، وأقل جميع العلوم قابلية للبرهـــان العلمى • ففى طبيعة الأشياء لا مفر من الزوغان وعدم قبول

التكهن لأن العالم النفسانى يتناول أعظم الظواهر الطبيعية غموضا ، فأية نظرية في الكيمياء أو فى علم الفيزياء يمكن تحقيقها أو البرهنة على صحة أية نظرية فى علم النفس ومن هنا نشأت عاصفة الجدل بين سيجموند فرويد والمحللين النفسانيين لمدة تزيد على الستين عاما !

وسواء قبلت نظريات فرويد البرهنة أو لم تقبلها فقد كان لها تأثير منقطع النظير على الفكر الحديث · وحتي اينشتين نفسه لم يمس تصورات معاصريه أو يتدخل فى حياتهم مثلما فعل فرويد · صاغ فرويد أفكارا ومصطلحات في محيط المناطق المجهولة من العقل وصارت جزءا من حياتنا اليومية · لقد أحس بآثار تعليمه كل مجال من المعارف — الأدب الفن والدين وعلم الأجناس البشرية والتعليم والقانون وعلم الاجتماع وعلم الاجرام والتاريخ وتاريخ حياة الأفراد وغير ذلك من دراسات المجتمع والفرد ·

رغم كل ذلك هناك بعض الحلاوة والضوء فى هذه التعاليم وقد أبدى أحد النقاد غير الأوفياء ملاحظته قائلا :

« عندما انتشرت نظريات فرويد ظهر أمام الرجل العامى كأعظم مفسد للسرور فى تاريخ الفكر البشري يحول مزاج الانسان ومرحه الى كبت محزن غريب ويجد العداوة فى جذور الحب والضغينة فى قلب الرقة ، والزنا بالأقارب فى المحبة والأجرام فى السخاء وكراهية الأب المكبوتة كطبيعة بشرية عادية موروثة » ·

ومع هذا فبسبب فرويد تختلف فكرة الناس اليوم عن أنفسهم · يعتقدون ان أفكار فرويد مثل تأثير عدم اكتمال الادراك على الوعى والأساس الجنسى لاضطراب وظائف الأعصاب ووجود الغريزة الجنسية لدى الأطفال ووظيفة الأحلام وعقدة أوديب والكبت والمقاومة وقراءة الأفكار ، ويعتقدون ان هذه الأفكار أمور عادية ثم ان عيوب الانسان كفلتات اللسان ونسيان الأسماء وعدم القدرة على تذكر الروابط الاجتماعية تتخذ أهمية جديدة عند النظر اليها من وجهة نظر فرويد ومن الصعب الآن ادراك مقدار التعصب الذي كان على فرويد أن يتغلب عليه عند نشر نظرياته اذ كان أشد بكثير مما لاقاه كوبرنيكوس وداروين ·

نظرية فرويد

قسم فرويد النشاط الذهنى للفرد على انه يحدث على ثلاثة مستويات أطلق عليها الايد ، والذات ، والذات السامية ، والايد ذات أهمية أولى ويقول فرويد ان « منطقة عمل الايد هى الجزء المظلم غير الممكن الوصول اليه من شخصيتنا والقليل الذى عرفناه عنها عرفناه عن طريق دراسة الأحلام وتكوين أعراض الاضطرابات العصبية » والايد هى مركز

الغرائز والانفعالات البدائية وتمتد الى الوراء الى الماضى الحيوانى وهى حيوانية وجنسية فى طبيعتها • انها غير واعية ويستطرد فرويد فيقول : « تحتوى الايد على كل شىء موروث وكل ما هو موجود عند الميلاد وكل ما هو ثابت فى تكون الشخص » الأيد عمياء متهورة وكل غرضها هو تحقيق رغباتنا وملذاتها دون تقدير للعواقب وبنفس ألفاظ « توماس مان » « لا تعرف أية قيم ولا خيرا ولا شرا ولا أخلاقا » •

الطفل الحديث الولادة نموذج الايد وبالتدريج تنمو الذات من الايد أثناء نمو الطفل وبدلا من أن تكون الذات منقادة تماما بمبدأ اللذة يحكمها مبدأ الحقيقة تعى الذات العالم حولها مدركة وجوب كبح ميول الايد الجامحة منعا لخرق قوانين المجتمع وكما قال فرويد ان الذات هى الوسيط « بين مطالب الايد الطائشة وتحريم العالم الخارجى » وعلى هذا تعمل الذات بمثابة رقيب على دوافع الايد وتلائمها تبعا للمواقف الحقيقية مدركة أن تحاشى العقاب أو حتى صيانة النفس ، قد تعتمد على مثل هذا الكبت وقد ينتج عن الصراع بين الذات والايد اضطرابات عصبية تؤثر على شخصية الفرد •

أخيرا هناك العنصر الثالث للعملية الذهنية وهو الذات السامية التى يمكن التوسع فى تعريفها بالوعى وكتب أ• أ• بريل وهو أعظم أنصار فرويد فى أمريكا كتب يقول :

« الذات السامية أرقى تطور ذهنى يمكن أن يصل اليه الانسان وتتألف من رواسب جميع المحرمات وجميع القواعد الشخصية التى يطبعها الوالدان فى الطفل والبدائل الأبوية ويتوقف الاحساس بالوعى كلية على نمو الذات السامية » •

وتشبه الذات السامية الايد فى كونها غير واعية وكلتاهما فى صراع دائم بينما تعمل الذات حكما بينهما وتكمن المثل الأخلاقية وقواعد السلوك فى الذات السامية •

عندما تكون الايد والذات والذات السامية فى انسجام معقول يكون الفرد طيب المزاج سعيدا • أما اذا صرحت الذات للايد بخرق القوانين أحدثت الذات السامية قلقا واحساسا بالاثم وغيرهما من مظاهر الوعى •

هناك عامل آخر قريب الشبه من الايد أوجده فرويد وهو نظريته عن الشهوة الجامحة فيقول ان جميع انفعالات الايد مشحونة بصورة من « النشاط النفسى » اصطلح على تسميته Libido أى الشهوة الجامحة « جوهر مذهب التحليل النفسى » ويعتبر جميع ما يتعلمه المرء من ثقافة وفن وقانون ودين وغير ذلك من تطورات للشهوة الجامحة • وبينما يشار الى الشهوة بأنها نشاط جنسى فالواقع ان كلمة « جنسى » تستعمل فى

بمعنى واسع جدا فتتضمن فى حالة الأطفال الحديثى الولادة أعمالا منها مص الابهام والرضاعة بالبزازة والتبرز وفى السنين اللاحقة قد تنتقل الشهوة الى شخص آخر عن طريق الزواج وتتخذ صورة انحراف جنسى أو يعبر عنها بخلق فنى أو أدبى أو موسيقى ــ وهذه عملية تعرف باسم « الاحلال » • والغريزة الجنسية فى رأى فرويد هى أعظم مصدر للعمل الخلاق •

عقــــدة أوديب

يقرر فرويد فى أعظم نظريات التحليل النفسى جدا انه تحت تأثير الشهوة الجنسية تنمو فى الطفل احساسات جنسية نحو والديه مبتدئا بأولى اللذات الجنسية المشتقة من التغذية بثدى أمه فتكون لدى الطفل صلة حب لأمه وعندما تتقدم به السن ، ولكن فى سن مبكرة تنمو لدى الطفل الذكر انفعالات جنسية قوية نحو أمه بينما يمقت أباه ويخافه كمنافس له • أما الطفلة الأنثى فقد تبتعد عن صلتها القريبة بأمها وتقع فى حب أبيها وتصير الأم موضع كراهيتها ومنافسة لها • وبتطبيق هذه النظرية على الطفل الذى يطلق عليها اسم « عقدة أوديب » التى أخذت اسمها من الشخصية الاسطورية الاغريقية القديمة « أوديب » الذى قتل أباه وتزوج أمه • وقال فرويد ان عقدة أوديب موروثة عن أسلافنا البدائيين الذين قتلوا آباءهم فى ثورات الغيرة وعندما يصل الشخص الطبيعى الى طور البلوغ تنمو فيه الدوافع الأوديبية أما الأفراد الضعاف فقد لا ينجحون اطلاقا فى قطع الصلة بالأبوين وبذا ينقادون الى سلسلة من الاضطرابات النفسية •

والواقع ان فرويد قرر يقول : « ان الاضــطرابات النفسية بدون استثناء اضطرابات للوظيفة الجنسية » وزيادة على هذا فلا يمكن القاء اللوم على الاضطرابات العصبية فيما يختص بالزيجات الفاشلة أو شئون الحب غير الناجح لدى البالغين ، بيد أنه يمكن أن نعزو كل هذه الى العقد الجنسية للطفولة المبكرة وبتطبيق نظريته على مجال علم الأجناس البشرية استنتج فرويد فى كتابه « الشعارات والمنبوذين » ان الطبيعة والأساطير الدينية للانسان البدائى نتيجة لعقد الأب والأم وكان يعتقد أن الدين مجرد تعبير عن عقدة الأب • وبعد تحاليل مفصلة لمئات الحالات التى جاءته للعلاج رفع الغريزة الجنسية والرغبات الجنسية الى دور بالغ الشان فى تكوين الشخصية كما جعلها السبب الرئيسى فى الاضطرابات العصبية وهذا حكم رفضه بعض مشاهير اخصائيى التحليل النفسى كما سنبين فيما بعد •

ولما أجبر المجتمع الفرد على أن يوقف الكثير من رغباته الملحة فانه يطوي نفسه على كثير من الكبت بطريقة غير واعية واذا استخدمنا مصطلح فرويد : ينجح وعى المرء فى منع « قوى اللاوعى المظلمة » التى كبتت ومنعت من الظهور مرة ثانية ورغم هذا فان الأشخاص المصابين بالاضطرابات العصبية قد يعانون فترات من الاضطرابات العاطفية بسبب مثل هذه الرقابة فيقول فرويد : « ان من وظيفة العلاج بالتحليل النفسى أن يكشف حالات الكبت ويحل محلها حالات الحكم الصحيح التى قد ينتج عنها اما القبول واما نبذ ما سبق رفضه وبسبب الطبيعة المؤلمة للمادة المكبوتة فقد جرت العادة أن يحاول المريض منع اكتشاف كبته ويطلق فرويد على هذه المجهودات « مقاومات » ، ويهدف الطبيب الى التغلب عليها ٠

تعرف الآن تلك الطريقة التى ابتكرها فرويد لتناول حالات الكبت والمقاومات باسم « التسلسل الحر للأفكار » — « سيل من حديث العقل الواعى بواسطة مريض راقد على سرير أخصائى التحليل النفسى فى حجرة خافتة الضوء يشجع المريض على أن يقول كل ما يدور فى رأسه بينما يتوقف عن اعطاء أى اتجاه واع لأفكاره » ويقرر فرويد أن طريقة التسلسل الحر للأفكار هى الطريقة الفعالة الوحيدة لعلاج اضطراب الأعصاب وقد حققت ما كان ينتظر منها وهو « اظهار المادة المكبوتة الى الصورة الواعية تلك المادة التى احتجزتها المقاومات » وقد وصف « بريل » طريقة فرويد مع المرضى بقوله : « حثهم على أن يظهروا كل انعكاس واع ويستسلموا الى التركيز الهادىء ويتتبعوا أحداثهم الذهنية التلقائية ويفضوا اليه بكل شيء ٠ وبهذه الطريقة حصل أخيرا على تلك الأفكار المتسلسلة فى حرية والتى تقود الى أصل الأعراض » وهذه المادة المنسية التى يستخرجها المريض من العقل غير الواعى بعد مدة ربما تصل الى شهور من علاج التحليل النفسى تمثل عادة شيئا مؤلما مقيتا ومخيفا وذميما من الماضى وهى مواد يمقت المريض ان يتذكرها بوعى ٠

لابد فى مثل هذه العملية ان تحدث تلك الذكريات الهائمة كمية من المعلومات غير الملائمة والعديمة النفع ٠ اذن يتوقف كل شيء على مقدرة الطبيب على تحليل مادته نفسيا تلك المادة التى كما أشار مختلف النقاد يمكن تفسيرها بعدد لا نهائى من الطرق وعلى ذلك يكون ذكاء ومهارة أخصائى التحليل النفسى على جانب كبير من الأهمية الأساسية ٠

ومن خلال معالجة فرويد لمرضاه بالتحليل النفسى اكتشف ما أطلق عليه « عامل ذو أهمية لا يحلم بها » وهو علاقة عاطفية شديدة بين المريض والطبيب وهذا يسمى « قراءة الأفكار أو انتقال الأفكار » ٠

لا يقنع المريض بالنظر الى الطبيب المحلل النفسانى فى ضوء الحقيقة كمساعد وناصح ... بل على العكس يرى المريض فى طبيبه النفسانى اعادة شخص كل شيء من الأهمية في طفولته أو ماضيه ويعنى بهذه الاعادة « اعادة التجميع » — ونتيجة لهذا ينقل اليه مشاعر وانفعالات تنطبق بلا شك على هذا النموذج .

« يمكن أن تتفاوت قراءة الأفكار بين نهايتين احداهما محبة عاطفية ذات صفة جنسية كاملة والأخرى تعبير منفلت الزمام من التحدى والكراهية المريرتين » . وفى هذا الموقف يكون الطبيب النفسانى المحلل « كقاعدة » فى موضع أحد والدى المريض أبيه أو أمه » ويعتبر فرويد حقيقة قراءة الأفكار « خير أداة للعلاج النفسى » — بيد ان تناولها يظل « أصعب وأهم جزء فى فن التجميل » ويقرر فرويد أن المشكلة « تحل باقناع المريض بأنه يستعيد ممارسة علاقات عاطفية نشأت فى طفولته المبكرة » .

عالم الأحـــلام

ومن الطرق المثمرة الأخرى التى ابتكرهـــا فرويد للوصـــول الى الصراعات والعواطف الداخلية ، تحليل الأحلام الذى كان فرويد أول من توصل اليه فقبل عصره اعتبرت الأحلام بدون معنى أو هدف ، كان كتابه « تفسير الأحلام » أول محاولة لدراسة عملية جديدة لهذه الظاهرة . وقد أبدى فرويد ملاحظته بعد نشر ذلك الكتاب باحدى وثلاثين سنة « بأنه يتضمن ، حتى بعد حكمى فى هذا اليوم الحاضر أعظم الاكتشافات التى ساعده الحظ فى ايجادها وأكثرها قيمة » وتبعا لفرويد : « يحق لنا أن نؤكد أن الحلم هو الانجاز المستتر لرغبة مكبوتة يمثل كل حلم دراما فى العالم الداخلى « فالأحلام دائما نتيجة صراع » . وقال فرويد : و « الحلم هو حارس النوم » . ووظيفته مســاعدة النوم لا ازعاجه فيطلق سراح التوترات الناتجة عن رغبات لا يمكن تحقيقها .

عالم الأحلام حسب رأى فرويد واقع تحت سيطرة العقل غير الواعى بالوحدة الوراثية « الايد » والأحلام مهمة لأخصائى التحليل النفسى ، لأنها تقود الى العقل غـــير الواعى للمريض وتكمن فى العقل اللاواعى جميع الرغبات البدائية والرغبات العاطفية المكبوتة من الحياة الواعية بواسطة الذات والذات الســـامية والرغبـــات البهيمية موجـــودة دائمـــا تحت السطح وتدفع نفسها الى الظهور فى الأحلام وحتى فى النوم تقف كل من الذات والذات السامية فى موقف الحراسة كرقيبتين لهذا السبب كانت معانى الأحلام غير واضحة دائما وانما يكون التعبير عنها فى صورة رموز تحتاج الى خبير يفسرها وكرموز لا يمكن أخذها حرفيـــا الا بالطبع فى

الأحلام البسيطة للأطفال ويحتوى كتاب « تفسير الأحـلام » عدة أمثلة حللها فرويد تحليلا نفسيا .

ومن الأعمال التعبيرية للعقل اللاواعى أخطاء التهجي وزلات اللسان وحيل شاردى الذهن . ويقول فرويد : « بنفس الطريقة ينتفع أخصائى التحليل النفسى من تفسير الأحلام كما ينتفع من الزلات البسيطة الكثيرة والأخطاء التى يقوم بها الناس — التى يطلق عليها اسم أفعال عارضة » . وفى سنة ١٩٠٤ فحص فرويد ذلك الموضوع فى كتابه « العلاج النفسى للحياة اليومية » يقرر فى ذلك المؤلف و « ليست هذه الظـواهر وليدة الصدفة فلها معنى ويمكن تفسيرها . ويقنع المرء بأن يستخلص منها وجود انفعالات ونوايا مكبوتة » فنسيان المرء لاسم ما : معناه أنه يكره الشخص المسمى بذلك الاسم وعندما يفوت القطار شخصا بسبب التباس فى جدول المواعيد فقد يدل ذلك على انه لا يرغب فى ركوبه والزوج الذى يفقد مفتاح بيته أو ينساه قد يكون غير سعيد فى بيته ولا يرغب فى العودة اليه . يمكن لدراسة مثل هذه الهفوات ان تقود أخصائى التحليل النفسى الى متاهات العقل اللاواعى .

يمكن الحصـول على نفس المنطلق من النكات التى سماهـا فرويد « خير صمام أمن أنتجه الانسان العصرى » اذ من خلالها نتحرر مؤقتا من حالات الكبت التى يريدنا المجتمع المؤدب أن نخفيها .

اثر الفكر الفرويدى على الأدب والفن

وقد انقسم علماء النفس اليوم الى معسكرين أو ثلاثة معسكرات متعارضة يؤيد البعض فرويد ويعارضه بعض آخر وحتى تلاميذه عدلوا قبولهم المطلق لنظرياته فى الخمسين سنة الماضية وها هو الفريد ادلر أحد أتباعه المبكرين ينشق عن المعسكر الفرويدى لاعتقاده أن فرويد أكد الغرائز الجنسية أكثر من اللازم . وكمذهب بديل أخذ ادلر يعلم أن رغبة كل انسان فى اثبات تفوقه هى الينبوع الأساسى فى السلوك البشرى وقد أنشأ فكرة (مركب النقص) الذى يضطر الفرد الى النضال لابراز نفسه فى نشاط ما . ومن مشاهير المنشقين الآخرين كارل جونج أحد مواطنى مدينة زيوريخ الذى حاول أيضا أن يقلل من دور الجنس . قسم جونج البشرية الى نوعين نفسانيين : احدهما مقلوب من الداخـل الى الخارج والثانى مقلوب من الظاهر الى الباطن ولو انه أدرك ان كل فرد خليط من النوعين وعلى نقيض فرويد أكـد جونج عوامل الوراثة فى تكـوين الشخصية وعلى العموم فان نقاد فرويد يخالفونه فى بعض النقاط مثل

اصراره على الأهمية الأولى للاضطرابات النفسية فى عهد الطفولة واتهامه الناس بأنهم تتحكم فيهم الغرائز الصارمة وعلى تصعيده الشهوة الجنسية الى مركز رئيسى فى تكوين الشخصية كذلك يخالفه البعض فى اعتقاده ان التسلســـل الحر للأفكار طريقة لا تخطىء لارتياد العقل البـاطن ، مبرزين ، بنوع صعوبة تفسير المعلومات الناتجة عن هذه الطريقة ٠

ومع ذلك فكما لاحظ أحد علماء النفس :

« لم تقلل التغيرات ولا التطورات التى حدثت فى خلال ستين عاما بحال ما من مركز فرويد أو نفوذه لقد فتح مملكة العقل الباطن وأبان كيف انه يساعد فى جعلنا على ما نحن عليه وكيف نصل الى ذلك وكان لابد لكثير من آرائه واستنتاجاته من أن يعد لها من يأتى بعده فى ضوء المزيد من التجارب ويمكنك أن تقول ان خلفه كانوا يكتبون « عهدا جديدا » فى طب الأمراض العقلية ولكن سيجموند فرويد كتب « العهد القديم » وسيظل عمله أساسا فى ذلك المجال » ٠

اننا ندين لفرويد بالكثير من نظريتنا الحديثة الى الجنون وهناك ميل متزايد الى تقرير ان « مرضى الاضطرابات العقلية مثلنا بل وأكثر من كونهم مثلنا » وقد أكد الكسندر رايد مارتين انه : « سواء أعلن أو لم يعلن فان جميع مستشفيات الأمراض العقلية والأمراض النفسية تستخدم عناصر علم النفس الفرويدى ونظرياته الأساسية وما كان يعتبر من قبل عالما غير معروف ومخيفا وغامضا وعديم الهدف وبلا معنى أصبح عن طريق فرويد عالما نيرا وزاخرا بالمعانى وجذابا وممتعا ومعترفا به ليس فى الطب فحسب بل وفى جميع العلوم الاجتماعية ٠

ولوحظ أثر الفكر الفرويدى على الأدب والفن بنفس القدر ففى عالم الخيال والشعر والدراما وغيرها من الصور الأدبية الأخرى ازدهرت آراء فرويد فى السنوات الحديثة وقد أبدى برنار دى فوتر رأيه بقوله : « ما من عالم طبيعى آخر كان له على الأدب مثل ذلك الأثر القوى والواسع الانتشار » فلم يكن أثره أقل عمقا على التصــوير والنحت وعالم الفن عموما ٠

من الصعب احصـــاء ما أسهمت به عبقرية فرويد فى معارفنـــا من نظريات وآراء متعددة النواحى وذلك بسبب اتساع مجالاته المتعبة الشاقة وطبيعة اكتشافاته المتعددة الاتجاهات وقد قام الكاتب الانجليزى روبرت هاملتون بمحاولة فاستنتج ما يأتى : —

« وضع فرويد علم النفس فى الخريطة ٠ وكان عالما مكتشفا عظيما ويعزى الكثير من نجاحه الى طرافته وأسلوبه الأدبى ورغم كون طريقته

لا تعتمد على شيء ملموس فما من طريقة خارج الأدب البحث كانت أكثر امتاعا وطرافة وذات أسلوب جذاب لقد جعل العالم يفكر نفسيا وهذه ضرورة أساسية لعصرنا وأجبر الناس على أن يسألوا أنفسهم أسئلة حيوية لصالحهم البشرى فمن قضايا علم النفس الأكاديمى العقيم للقرن التاسع عشر أنتج النظريات المضادة فى التحليل النفسى بسلبياتها المظلمة » •

وتناول أحد مشاهير الطب النفسى الأمريكيين وهو فريدريك ورثام من وجهة نظر أخرى فكتب يقول : ـ

« يجب على المرء أن يوضـــح انه زيادة على الكثير من الحقـائق الاكلينيكية الجديدة عن المرضى الذين لاحظهم فرويد فانه أحدث ثلاثة تغييرات فى التمهيد لدراسة الشخصية والعلاج العقلى أولها الكلام عن العمليات السيكولوجية والتفكير فيها بمنطق العلوم الطبيعية ، ولم يكن هذا ممكنا الا عندما قدم فرويد الفكرة الواقعية عن العقل الباطن والطرق العملية لفحصه وثانيها تقديمه لبعد جديد للعلاج السيكولوجى : الطفولة • قبل فرويد مارسوا طب الأمراض العقلية كما لو كان كل مريض هو آدم ـ الذى لم يكن طفلا قط وثالثهما هو افتتاح الفهم النوعى للغريزة الجنسية • كان الاكتشاف الجديد هنا هو انه ليس للأطفـال حيـاة جنسية وانما للغريزة الجنسية طفولة •

أصدر أ• أو • تانسلى حكما مماثلا آخر فى تقرير عن موت شخص أعد للجمعية الملكية بلندن :

« تغدو الطبيعة الثورية لاستنتاجات فرويد عندما نتذكر انه كان يفحص مجالا لم يرتده أحد قبله اطلاقا وهو منطقة من العقل البشرى لم ينفذ اليها أحد من قبل واعتبرت مظاهرها الواضحة غير قابلة للتفسير أو انها انحرافات فاسدة أو تجاهلها العلماء لأنها تقع تحت أقوى المحرمات البشرية ولم يدرك مجرد وجود هذا المجال ـ فاضطر فرويد الى فرض حقيقة وجود منطقة لا واعية بالعقل ثم محاولة ارتيادها بالتفكك الواضح فى سلسلة الأحداث العقلية الواعية •

وأخـيرا قررت وينفريد أوفر هولستر انه : « هناك سبب قـوى للاعتقاد بأنه بعد مائة عام منذ الآن سيعتبر فرويد فى مصاف كوبرنيكوس ونيوتن كأحد الرجال الذين فتحوا أفقا جديدا من آفاق الفكر فمن المؤكد انه فى عصرنا هذا لم يلق أحد ضوءا على أعماق عقل الانسان كما فعل فرويد » •

الهـــوامش :

(١) هوراس : ص ٢٠ : (٥٦ ق·م ـ ٨ ق·م) من أعظم شعراء اللاتين · نجح فى تصوير عصره تصويرا حيا فى أسلوب واضح ودقة متناهية والفاظ مختارة ·

(٢) اغسطس : ص ٢٠ : (٦٣ ق·م ـ ١٤ بعد الميلاد) أول امبراطور رومانى ، اسمه أصلا اوكتافيوس · ابن بنت أخت يوليوس قيصر الذى تبناه وجعل منه وريثا له ·

(٣) لوكريتيوس : ص ٢٠ : (ح ٩٩ ـ ح ٥٥ ق·م) شاعر رومانى اسمه تيتوس لوكريتيوس كاروس نظم قصيدة مهمة فى الأدب اللاتينى عنوانها « عن طبيعة الأشياء » ·

(٤) ثيوقريطس : ص ٢٢ : ازدهر حوالى ٢٧٠ ق·م أبو الشعر الرعوى فى الأدب اليونانى ومن أهم شعراء الاسكندرية ·

(٥) الثيوقراطية : ص ٢٢ : أى الشبيهة بالأشــباح التى يصفها فى شعره ثيوقريطس ·

(٦) أرفيه : ص ٣٧ : نسبة الى أرفيوس وهو الشاعر الذى يقال عنه انه كان يحرك الجماد بصوت مزماره ·

(٧) هنرى السابع : ص ٨١ : (١٢٧٥م ـ ١٣١٣م) كونت لكسمبرج · انتخب ملكا على المانيا خلفا لألبرت الأول (١٣٠٨ م)

(٨) الخذروف : ص ٨٧ : عويد مشقوق فى وسطه : يشد بخيط فيدور فيسمع له حنين ، ويشبه به كل سريع فى جريه ·

(٩) ص ٩٠ راجع الفصل الرابع من الجزء الثانى من الكتاب ·

(١٠) توما الاكوينى : ص ٩٢ : ١٢٢٥م ـ ١٢٧٤م فيلسوف ولاهوتى ايطالى · من أشهر وأهم ممثلى الفكر الكاثوليكى يلقب باسم (الدكتور الملائكى) دلالة على صــفاء ذهنه ·

(١١) القوطية : ص ١١٧ : هى حركة احياء قامت فى القرن ١٩ على تقليد الطرز الفنية والمعمارية التى سادت العصور الوسطى ·

(١٢) بروسيا : ص ١٢٠ : ولاية المانية سابقة · كانت تشغل النصف الشمالى من المانيا ·

(١٣) روبرت أوين : ص ١٢٤ : ١٧٧١م ـ ١٨٥٨م مصلح ومفكر اشتراكى انجليزى ومؤسس الحركة التعاونية · ص ١٢٤ ·

(١٤) سير لسلى ستيفن : ١٨٣٢ ـ ١٩٠٤ كاتب وفيلسوف انجليزى من أبرز الشخصيات الأدبية فى أواخر القرن ١٩ ·

(١٥) هربرت سبنسر . ص ١٢٤ : ١٨٢٠م ـ ١٩٠٣م فيلسوف انجليزى · لقب بفيلسوف التطور ·

المراجـــع

١ ـ أصول الكتب الأربعة عشر

٢ ـ عشر روايات خالدة — سومرست موم

٣ ـ ابن عبد ربه وعقده — جبرائيل سليمان جبر

٤ ـ مفكرون لكل العصور — فتحي العشرى

٥ ـ جون ستيوارت مل — د. توفيق الطويل

٦ ـ اتجاهات نظرية فى علم الاجتماع — د. عبد الباسط عبد المعطى

٧ ـ شوقى شاعر الأمراء — انطون الجميل

٨ ـ فى موكب العظمـاء — ابراهيم المصرى

٩ ـ رواد الطـب — جـون والتـون

١٠ ـ أحمد شوقى الشاعر الانسان — أحمد عبد المجيـد

١١ ـ شعراء الوطنية — عبد الرحمن الرافعى

١٢ ـ دانتى اليجيرى — طـه فـوزى

١٣ ـ طاغور .. الذكرى المئوية لميلاده

١٤ ـ رواد علم الاجتماع — د. محمد على محمد

١٥ ـ الحضارة الاسلامية — جوستاف جروينبـاوم

١٦ ـ معالم تاريخ الانسانية — هـ. ج. ولـز

١٧ ـ دائرة المعارف الاسلامية — دار الشـعب

١٨ ـ الحضـارة — أحمد حمدى محمود

١٩ ـ التراث والحضـارة — نعمات أحمد فـؤاد

٢٠ ـ الحضـارة العربية — ى. هـل

٢١ ـ الحضارة الانسانية بين الشرق والغرب فى عشرة قرون — سامى اليافى

٢٢ ـ الغرب والحضارة .. تاريخ الحضارة — كافيـن رايلى

٢٣ ـ حضارتنا وحضارتهم — عبد المنعم النمـر

٢٤ ـ قصـة الحضـارة — ول ديورانت

٢٥ ـ معجم اعلام الفكر الانسانى — نخبة من الأساتذة

٢٦ ـ تاريخ العلم — جـورج سارتون

اقـرأ فى هـذه السـلسلة

أحلام الاعلام وقصص أخرى	برتراند رسـل
الالكترونيات والحياة الحديثة	ى ٠ رادونسكايا
نقطـة مقابل نقطـة	الدس هكسـلى
الجغـرافيا فى مائة عـام	ت ٠ و ٠ فريمـان
الثقـافة والمجتمـع	رايمونت وليـامز
تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ جـ)	ر ٠ ج ٠ فوربس
الأرض الغـامضة	ليسـترديل راى
الرواية الانجليـزية	والتـر الـن
المرشد الى فن المسرح	لويس فارجـاس
آلهـة مصر	فرانسوا دوماس
الانسان المصرى على الشـاشة	د ٠ قدرى حفنى وآخرون
القاهرة مدينة الف ليلة وليلة	أولج فولكف
الهوية القومية فى السينما العربية	هاشـم النحـاس
مجمـوعات النقـود	ديفيد وليـام ماكدوال
الموسيقى ـ تعبير نغمى ـ ومنطـق	عزيز الشـوان
عصر الرواية ـ مقال فى النوع الادبى	د٠ محسن جاسم الموسوى
ديـلان تومـاس	اشراف س ٠ بى ٠ كوكس
الانسـان ذلك الكائن الفـريد	جـول ويسـت
الرواية الحـديثة	بول لويس
المسرح المصرى المعـاصر	د٠ عبد المعطى شعراوى
على محمـود طـه	انـور المعـداوى
القـوة النفسـية للأهرام	بيـل شول وادبنيت
فـن الترجمـة	د ٠ صـفاء خـلوصى
تولسـتوى	رالف ئى ماتلـو
سـتندال	فيكتور برومبير

رسائل وأحاديث من المنفى	فيكتور هوجو
الجزء والكل (محاورات في مضمار الفيزياء الذرية)	فيرنر هيزنبرج
التراث الغامض ماركس والماركسيون	سدنى هوك
فن الأدب الروائي عند تولستوى	ف . ع . أدنيكوف
أدب الأطفال	هادى نعمان الهيتى
احمد حسن الزيات	د . نعمة رحيم العزاوى
اعلام العرب في الكيمياء	د . فاضل أحمد الطائى
فكرة المسرح	جلال العشرى
الجحيم	هنرى باربوس
صنع القرار السياسى	السيد عليوة
التطور الحضارى للانسان	جاكوب برونوفسكى
هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال	د . روجر ستروجان
تربية الدواجن	كاتى ثير
الموتى وعالمهم في مصر القديمة	أ . سبنسر
النحل والطب	د . ناعوم بيتروفيتش
سبع معارك فاصلة في العصور الوسطى	جوزيف داهموس
سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ازاء مصر ١٨٣٠ ـ ١٩١٤	د . لينورا تشامبوز رايت
كيف تعيش ٣٦٥ يوما في السنة	د . جون شندلر
الصحافة	بيير البير
أثر الكوميديا الالهية لدانتى في الفن التشكيلى	الدكتور غبريال وهبه
الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية وبعدها	د. رمسيس عوض
حركة عدم الانحياز في عالم متغير	د. محمد نعمان جلال
الفكر الأوروبى الحديث (٤ ج)	فرانكلين ل . باومر
الفن التشكيلي المعاصر في الوطن العربى ١٨٨٥ ـ ١٩٨٥	شوكت الربيعى
التنشئة الأسرية والأبناء الصغار	د. محيى الدين احمد حسين

نظريات الفيلم الكبرى	تأليف : ج. دادلى اندرو
مختارات من الأدب القصصى	جوزيف كونراد
الحياة فى الكون كيف نشأت وأين توجد؟	د. جوهان دورشنر
حرب الفضاء	مجموعة من العلماء الأمريكيين
ادارة الصراعات الدولية	د . السيد عليوة
الميكروكمبيوتر	د . مصطفى عنانى
مختارات من الأدب اليابانى	صبرى الفضل
الفكر الأوروبى الحديث (٣ جـ)	فرانكلاين . ل . باومر
تاريخ ملكية الأراضى فى مصر الحديثة	جابرييل باير
اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة	انطونى دى كرسبنى
كتابة السيناريو للسينما	دوايت سوين
الزمن وقياسه	زافيلسكى ف . س
اجهزة تكييف الهواء	ابراهيم القرضاوى
الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى	بيتر رداى
سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى	جوزيف داهموس
التجربة اليونانية	س . م بورا
مراكز الصناعة فى مصر الاسلامية	د. عاصم محمد رزق
العلم والطلاب والمدارس	رونالد د . سمبسون ونورمان د. اندرسون
الشارع المصرى والفكر	د . أنور عبد الملك
حوار حول التنمية الاقتصادية	والت روستو
تبسيط الكيمياء	فرد . س . هيس
العادات والتقاليد المصرية	جون بوركهارت
التذوق السينمائى	آلان كاسبيان
التخطيط السياحى	سامى عبد المعطى
البذور الكونية	فريد هويل
	شاندرا ويكراما سينج
دراما الشاشة (٢ جـ)	حسين حلمى المهندس
الهيروين والايدز	روى روبرتسون
صور افريقية	دوركاس ماكلينتوك
نجيب محفوظ على الشاشة	هاشم النحاس

الكمبيوتر فى مجالات الحياة	د. محمود سرى طه
المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية	بيتر لورى
وظائف الأعضاء من الألف الى الياء	بوريس فيدروفيتش سيرجيف
الهندسة الوراثية	ويليام بينز
تربية أسماك الزينة	ديفيد الدرتون
كتب غيرت الفكر الانسانى (٣ ج)	أحمد محمد الشنوانى
الفلسفة وقضايا العصر (٣ ج)	جمعها : جون ر. بورر وميلتون جولدينجر
الفكر التاريخى عند الاغريق	أرنولد توينبى
قضايا وملامح الفن التشكيلى	د. صالح رضا
التغذية فى البلدان النامية	م.هـ. كنج وآخرون
بداية بلا نهاية	جورج جاموف
الحرف والصناعات فى مصر الاسلامية	د. السيد طه أبو سديرة
حوار حول النظامين الرئيسيين للكون	جاليليو جاليليه
الارهاب	أريك موريس وآلان هو
اخناتون	سيريل الدريد
القبيلة الثالثة عشرة	آرثر كيستلر
الفلسفة وقضايا العصر (٣ ج)	جون بورد
الأساطير الاغريقية والرومانية	ب. كوملان
تاريخ العلم والتكنولوجيا	ر.ح. فوريس
التوافق النفسى	توماس ا. هاريس
الدليل الببليوجرافى	مجموعة من الباحثين
لغة الصورة	روى أرمنز
الثورة الاصلاحية فى اليابان	ناجاى متشيو
العالم الثالث غدا	بول هاريسون
الانقراض الكبير	ميخائيل ألبى ، جيمس لفلوك
تاريخ النقود	فيكتور مورجان
التحليل والتوزيع الأوركسترالى	اعداد محمد كمال اسماعيل
الشاهنامة (٢ ج)	الفردوسى الطوسى
الحياة الكريمة (٢ ج)	بيرتون بورتر
قيام الدولة العثمانية	محمد فؤاد ، كوبريلى

عن النقد السينمائى الأمريكى	ادوارد ميرى
ترانيم زرادشت	اختيار / د. فيليب عطية
السينما العربيـة	اعداد / مونى براخ وآخرون
دليـل تنظيـم المتـاحف	آدمز فيليب
سقوط المطر وقصص اخـرى	نادين جورديمر
جماليـات فن الاخـــراج	زيجموند هبنر
التاريخ من شتى جوانبه ٣ ج	ستيفن أوزمنت ،
الحملة الصليبية الأولى	جوناثان ريلى سميث
التمثيل للسينما والتليفزيون	تأليف / تونى بار
العثمانيون فى أوربا	بول كـولز
الكنائس القبطية القديمة فى مصر ٢ ج	الفريد ج. بتلر
رحلات فارتيما	رودريجو فارتيمـا
انهم يصنعون البشر	فانس بكارد
فى النقد السينمائى الفرنسى	اختيار / د. رفيق الصبان
الســينما الخيالية	بيتـر نيكوللز
الســلطة والفرد	برتراند راسل
الأزهر فى ألف عام	بينــارد دودج
رواد الفلسفة الحديثة	ريتشارد شاخت
سفر نامه	ناصر خسرو علوى
مصر الرومانيــة	نفتالى لويس
كتابة التاريخ فى مصر ق ١٩	جاك كرابس جونيـور
الاتصال والهيمنة الثقافية	هربرت شيلر
مختارات من الآداب الآسيوية	اختيار / صبرى الفضل
الكاتب الحديث	ج.س.فريزر
الشموس المتفجرة	اسحق عظيموف
مدخل الى علم اللغة	لوريتو تود
حديث النهر	ترجمة / سوريال عبد الملك
من هم التتـار	د. أبرار كريم الله
ماستريخت	اعداد / جابر محمد الجزار
معـالم تاريخ الانسانية ٤ ج	هـ . ج ولز
ما بعد الحداثة	مارجريت روز

حضارة الاسلام	جوستاف جرونيباوم
الحملات الصليبية	ستيفن رانسيمان
الطفل ٢ جـ	أرنولد جزل وآخرون
الكون ذلك المجهـول	جلال عبد الفتـاح
افريقيا الطـريق الآخـر	بادى اونيمود
فن الزجـــاج	محمـد زينهم
رحــلة بيرتون ٣ جـ	رتيشارد ف ٠ بيرتون
السحر والعلم والدين	د٠ فيليب عطية
الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى	ادمز متـز
رحــلة فاسكو دا جاما	فاسكو داجاما
كوننـــا المتمــدد	ايفـرى شاتزمان
الفلسفة الجـوهرية	ســوندراى
حـــرب المستقبل	مارتن فان كريفـلد
الاعــلام التطبيقى	فرانسيس ج٠ برجين
تبسيط المفاهيم الهندسية	ج كارفيـل
فن المايم والبـانتومايم	توماس ليبهارت
تحول السلطة	الفين توفلر
التفكير المتجدد	ادوارد وبونو
السيناريو فى السينما الفرنسية	كريستيان سالين
فن الفرجة على الأفلام	جوزيف ٠ م٠ بوجز
خفايا نظام النجم الأمريكى	بول وارن
بين تولستوى ودوستويفسكى جـ ١	جـورج ســتايز
بين تولستوى ودوستويفسكى جـ ٢	جـورج ســتايز
ما هى الجيـولوجيا	ويليـام هـ٠ ماثيوز
الحمر والبيض والســود	جارى ب ٠ ناش
انواع الفيـلم الاميركى	ستالين جين سولومون

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٥/١١٢٠٦

ISBN — 977 — 01 — 4641 — 2